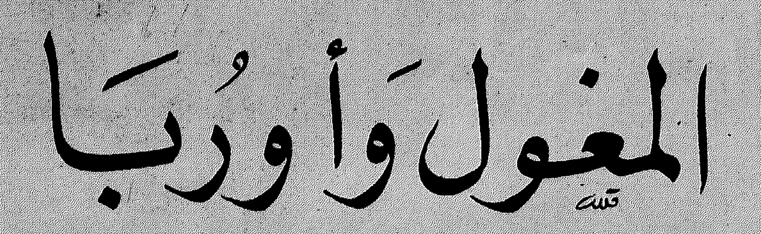


دكتور
محمود سعيد عمران
تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
وكلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقا

المغول وأوربا

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقا

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦



بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

إلى شهداء وأبطال معركة عين جالوت
أهدى هذا الكتاب

دكتور محمود سعيد عمران

المحتـــوى

صفحة

مقدمـــة
أحوال الشرق الاسلامي زمن المغول

أ - الخلافة العباسية
ب - الدولة الخوارزمية
جـ - سلاجقة الـــروم
د - الأيوبيـــــــون



مقدمه

أحوال الشرق الاسلامي زمن المغول:

كان العالم الاسلامي في المرحلة التي بدأ فيها ظهور المغول مقسمًا إلى مجموعة من الممالك والدويلات الصغيرة بعضها قوى وبعضها ضعيف سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية. كما تميزت هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها البعض من أجل السيطرة أو التوسع على حساب الأخرى. يضاف إلى ذلك أن الطائفية الإسلامية قد لعبت جانبًا في هذا الصراع. وهكذا إنشغل الحكام المسلمون فيما بينهم ولم يقدروا خطورة المغول إلا بعد أن إتجهوا إلى الغرب حتى الدولة الخوارزمية، ثم إلى آسيا الصغرى. ثم إلى جنوب روسيا. وأوروبا الشرقية حتى هنغاريا وبولندا، وأخيراً إلى سواحل البحر الأدرياتيكي.

وما يعنينا من العالم الإسلامي في هذا الموضوع هو الجانب الشرقي منها. أما الغربي منه في المغرب والأندلس فقد كان هناك أيضًا الصراعات الداخلية بالاضافة إلى مقاومة حركة الاسترداد. والجانب الشرقي من العالم الإسلامي كانت تتقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس أو إيران كانت تقوم الدولة الخوارزمية التي إمتدت حدودها من جبال أورال في الشمال إلى الخليج العربي في الجنوب، ومن جبال السند شرقًا إلى حدود العراق غربا .

وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية، أما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يعد لهذا الخليفة من القوة إلا أن يطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة أو المناسبات أو الأزمات بأن يوفق الله المسلمين ، أو الإستنفار للجهاد .

أما الدولة الأيوبية في مصر والشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية على الساحل الشامي. ومما يزيد المشكلة تعقيداً أنه مع ظهور أخطار المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد إستولت على برج مدينة دمياط عام ١٢١٨م مما أدى إلى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الأيوبي إلى عدة ممالك أهمها مصر وعلى رأسها الملك الكامل ٦١٥- ٦٣٦ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م، ودمشق وعلى رأسها الملك المعظم عيسى٦١٥ - ٦٢٤هـ/ ١٢١٨ - ١٢٢٧م .

وكان هناك أيضًا دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يضاف إلى ذلك أخطار الصليبين في بلاد الشام، ثم من الشمال الغربي بعد سقوط القسطنطينية في أيدى الصليبين من قوات الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م.

أ - الخلافة العباسية :

كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف، كانت له جذوره العميقة التى بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية على الخلافة العباسية عندما إستأثرت الأسر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافا بين العرب والفرس، وما تلى ذلك من أحداث أذت إلى دخول العناصر التركية إلى السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلى السلطة ثلاثة عناصر هي العرب والفرس والاتراك.

وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بني بويه - الذين أقاموا دولتهم في جنوب غربي إيران في السلطة - وكان لهم ما أرادوا حيث نجحوا في

السيطرة على الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان، وطغى نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسيين، وكان بوسعهم إلغاء الخلافة العباسية تمامًا، ولكنهم لم يقدموا على هذه الخطوة خشية العالم الاسلامي السني، لأن دولة بني بويه كانت من طائفة الشيعية.

كان لهذا كله أثره الكبير على هيبة الخلفاء العباسيين، وبدأ حكام الولايات في الاستقلال بولاياتهم، والاكتفاء بالولاء الإسمى للخلافة العباسية. ومن هنا تمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية أو الإنفصالية، بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدى إلى محاولة البعض الانفراد بالسلطة.

وتعرضت الخلافة العباسية أيضًا لسيطرة الأتراك السلاجقة، وهم مسلمون من طائفة السنه. وقد سيطر هؤلاء على الخلافة وإتخذ حكامهم لقب السلطان، وعرف حكامهم الأوائل بإسم السلاطين العظام، وبقى الخليفة في بغداد أو بالأحرى في قصره لا حول له ولا قوة. وتصرف هؤلاء السلاطين في الأراضى والمدن ومنحوها إقطاعيات للأمراء وذوى الشأن. وقد حكمها هؤلاء تحت إسم الأتابكة، وعندما إنهار سلطان السلاجقة العظام كانت بلاد أعالى الفرات وشمال الشام ثم جنوبه عبارة عن دويلات لا تتعدى المدينة وما حولها، ثم كان الصراع بين الدولة الفاطمية وهؤلاء الاتابكة في بلاد الشام .

وعلى هذه الصورة إنفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد وأصبحت عاجزة عسكريًا عن مواجهة أي غزو عسكري، ولم يكن الخطر المغولي كأي خطر عادي، ولم يكن بوسع الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ /١٢٤٢ - ١٢٥٨م) آخر خلفاء بني العباس، وهو الرجل الضعيف الذي سيطر عليه رجال السوء أن يفعل شيئًا ضد هذا الخطر الجارف.

ب - الدولة الخوارزمية :

وكان من نتائج إنقسام الدولة العباسية إلى دويلات، قيام دولة خوارزم وتعرف أيضًا باسم الدولة الخوارزمية، ومؤسس هذه الدولة هو نوشتكين أحد العبيد الذي كان مملوكًا لأحد الأمراء السلاجقة، وقد شغل عدة مناصب داخل القصر منها منصب الطشتدار، ويروى أيضًا أنه شغل منصب الساقي في بلاط السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م)، وفي عام ٤٩هـ/ ١٠٩٦م عين نوشتكين حاكمًا على إقليم خوارزم.

وكان نوشتكين هذا يعلم تمامًا بحال الدولة العباسية وضعفها ، لذلك سعى منذ البداية إلى الانفصال عن الخلافة أو بالأحرى عن السلطة السلجوقية، وحانت الفرصة لخلفائه من بعده عندما بدأ ضعف السلطنة يظهر بوضوح إلى جانب ضعف الخلافة نفسها ، وذلك بعد الأحداث التي إنتهت بوفاة السلطان السلجوقي سنجر عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م. وعند هذه المرحلة إنضمت ممتلكات السلاجقة في خراسان وفارس إلى الدولة الخوارزمية. وبذلك إمتدت أملاكها من جبال الأورال إلى حدود الفرات ومن حدود الخليج حتى حدود نهر السند.

ومع إتساع هذه الدولة، تطلعت إلى القيام بالعمل الذي قام به بنو بويه والسلاجقة العظام من قبل، ولكنهم إكتفوا بإزالة دولة السلاجقة العظام في العراق بعد هزيمة السلاجقة ومقتل سلطانهم طغرل بن ألب أرسلان في عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م وتقلدوا حكم هذه البلاد من الخلافة العباسية في عام ٥٩٥هـ /١١٩٩م، ويروى إبن الأثير في هذا الصدد ما معناه أن الخليفة العباسي سير الخلع إلى خوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليده بما بيده من البلاد.

وعلا شأن الدولة الخوارزمية وزاد نفوذها أيام حكم علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧هـ / ١٢٠٠- ١٢٢٠م) وكان علاء الدين هذا طموحًا لعب دورًا كبيرًا في محاربة الحشيشية واستولى على قلعة ترشيش، ولم يتركها إلا بعد أن دفعوا له مائة ألف دينار بعد ما علم بخبر مرض أبيه، يضاف إلى ذلك أن علاقاته كانت عاصفة مع جيرانه المسلمين لمحاولته الإستيلاء على أراضيهم.

ومن ذلك أن علاء الدين إستولى على أراضي السلاطين الغوريين التي كانت تمثل جزء من أفغانستان الحالية وبعض أراضي غرب الهند. كما إستولى الخوارزمية أيضًا على الأراضي الواقعة غرب تركستان والتي تعرف بأراضي القرخطائيين والتي يرجع أصلهم إلى شمال الصين. ومع توسع الدولة الخوارزمية على هذه الصورة أصبحت تتاخم حدود الصين دون دولة حاجزة بينهم وبين المغول بعد سقوط دولة القرخطائيين، وعندما هزم المغول الدولة الخوارزمية أصبح الطريق مفتوحًا أمامهم غربًا حتى بغداد.

ولم يكتف الخوارزمية بذلك بل أنهم طمعوا في الخلافة العباسية منذ البداية، لأن خوارزم شاه بن تكشن كان يهوى أن يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان، مثلما كان الحال مع بني بويه والسلاجقة العظام. وعلى الرغم أنه لم يكن بوسع الخليفة أن يعترض على هذا الطلب نظرًا لقوة الخوارزمية، إلا أن هذا الطلب له مغزاه، وهو أن خوارزم شاه أصبح عدوًا للخلافة العباسية. ويرجع ذلك الى أن علاء الدين إعتنق مبادئ الشيعة، وأعلن أن هدفه إعلان خلافه شيعيه ليستميل أهالى البلاد. ولكي يكتسب صفة شرعية إستصدر فتوى تفيد أن الخلفاء العباسيين قد إغتصبوا الخلافة من العلويين. وقد أدخل كل هذا الدولتين في صراع كان من نتائجه إضعاف القوتين معًا. الأمر الذي سهل على القوات المغولية هزيمة واحدة بعد الأخرى.

سلاجقة الروم :

والمقصود بسلاجقة الروم هم الفرع السلجوقي الذي أقام ملكه في آسيا الصغرى وجاور الروم أي الدولة البيرنطية ، ولذلك عرفوا باسم سلاجقة الروم تمييزاً لهم عن فروع السلاجقة الآخرين. وكان أول حكامهم سليمان بن قتلمش في عام ١٠٧٧م وآخرهم هوقلج أرسلان الرابع ١٢٥٧م.

وتبدأ أحداث قيام هذه الدولة بمعركة منزكرت التي دارت رحاها عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م حيث لقى فيها الجيش البيرنطي هزيمة ساحقة وأسر فيها الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٨ - ١٠٧١ م)، وأجبر على توقيع معاهدة مهينة . ولما عاد الإمبراطور المهزوم إلى القسطنطينية وجد أن الإمبراطور ميخائيل السابع Michael VII (١٠٧١ - ١٠٧٨م) قد إستولى على العرش ورفض الاعتراف بالمعاهدة، وهنا قرر السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ/١٠٦٣ - ١٠٧٢م) الانتقام من الامبراطورية البيرنطية، ولكنه مات بعد قليل، فخلفه إبنه ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ/١٠٦٣ - ١٠٩٢م) الذي عين سليمان بن قتلمش قائداً على القوات السلجوقة في آسيا الصغرى.

وقد نجح سليمان في توسع رقعة منطقته في آسياب الصغرى حتى إمتدت الأراضى السلجوقية من البحر الأسود شمالاً حتى شواطىء البحر المتوسط جنوبًا ، وسيطر السلاجقة على مدينة نيقه التي إتخذوها عاصمة لهم. ولكن المشكلة التي واجهها سليمان عدم وجود رابطة بين سلاجقة الروم، فكانت هناك مجموعة من الإمارات المستقلة وهي إمارة قيزيقوس Cyzicus ، وإمارة أزمير وامارة سينوب، وإمارة كبادوكيا التي حكمها آل دانشمند، وبعد وفاة سليمان حدثت إنقسامات بين الممتلكات السلجوقية، وجد فيها الامبراطور

البيرنطي فرصة للتحالف مع أمير ضد آخر.

وكانت الحملة الصليبية سببًا في إتفاق السلاجقة لمواجهة هذا الخطر الجديد، فقد استطاع قلج أرسلان في إستعادة عرش والده (٤٨٥ - ٥٢١هـ/١٠٩٢ - ١١٠٧م)، وفي الوقت نفسه إستغل الإمبراطور البيرنطي ألكسيوس الأول Alexius I (١٠٨١ - ١١١٨م)، مرور الحملة من أراضيه واستعاد جانبًا كبيراً من الأراضي التي إستولى عليها السلاجقة بعد هزيمتهم في معركة نيقيه Nicaea ومعركة ضورليوم Dorylaeum مما دفع السلاجقة إلى التراجع وإتخاذ مدينة قونيه Iconium عاصمة لهم.

وقد إستغل الامبراطور البيزنطي فترة الصراع الداخلي بين السلاجقة بعد موت قلج أرسلان وهي فترة حكم إبنه ملكشاه (٥٠١ - ٥١٠هـ / ١١٠٧- ١١١٦م) وتحالف مع السلاجقة لمحاربة بوهمند الأول Bohemond I أمير أنطاكيــة (١٠٩٨ - ١١٠٤م/٤٩١ - ٤٩٨هـ) وكان النصر حليف الإمبراطور. ويبدو أن النصر الذي حققه الامبراطور بالإضافة إلى الصراع الداخلي في دولة السلاجقة قد دفع الإمبراطور إلى نبذ التحالف الذي عقده مع السلاجقة وشجعه على إستعادة بعض المدن من إيدى السلاجقة. وقد أجبرت إنتصارات الامبراطور على السلاجقة أن سعى السلطان السلجوقي إلى عقد الصلح مع الامبراطور كسبًا للوقت. ودارت معارك بين الطرفين بعد ذلك إنتهت بالتفاوض من أجل الصلح مرة أخرى. ويتضح من النصوص التاريخية أن ملكشاه لم يتخل عن أي منطقة من المناطق الواقعة في أملاكه.

وظلت الحرب متقطعة بين السلاجقة والبيرنطيين، كان الصراع بينهما صراع وجود لا صراع حدود، بمعنى أن السلاجقة يودون الاستيلاء على كل آسيا الصغرى وتكون مياه البسفور والدردنيل هي الحد الفاصل بين الدولتين، في

الوقت الذي تسعى فيه بيزنطه إلى دفع السلاجقة إلى أقصى الشرق من آسيا الصغرى ، وطبقًا لهذه السياسة كان كل طرف يستغل المشاكل الداخلية في الدولة الأخرى ويحاول ضرب خصمه ، وفي عهد السلطان السلجوقي مسعود (١١١٦ - ١١٥٦م) نجح الامبراطور يوحنا كومنين John Comnenus (١١١٨ - ١١٤٣م) في أن يوطد سلطانه في الأجزاء الغربية من اسيا الصغرى.

وتقرب السلطان قلج أرسلان الثاني (١١٥٦ - ١١٩٢م) من الإمبراطور البيزنطي مانويل Manuel (١١٤٣ - ١١٨٠م) وزاره في القسطنطينية عام ١١٦٢م. ودام السلام بين الطرفين حتى عام ١١٧٦م، وقد استغل قلج أرسلان هذا الهدوء وتدخل في منازعات بيت دانشمند، وإنتهى الأمر باعترافهم بسلطانه عليهم، وقد يسر له هذا السيطرة على الموقف داخل آسيا الصغرى وعلى حدود دولته من جهتي الشام والفرات.

ثم ظهرت بعض العوامل التي أدت إلى قيام الامبراطور مانويل باعداد حملة كبيرة لمهاجمة السلاجقة في عام ٥٧٢ هـ /١١٧٦م، وقد إغتر مانويل بما تحت يديه من قوات وتقدم في عمق آسيا الصغرى للوصول إلى مدينة قونيه عاصمة السلاجقة، ولكن القوات السلجوقية تمكنت من إنزال هزيمة ساحقه بالجيش البيزنطي عند قلعة ميريوكيفالون Myriocephalon.ولم تفق بيزنطة من هذه الهزيمة بعد ذلك .

وفي الوقت نفسه تعرضت دولة السلاجقة إلى بعض الاحداث الداخلية التي أدت إلى إضعاف أحوالها ، يضاف إلى ذلك ما كان هناك من متاعب أثناء مرور بعض قوات الحملة الصليبية الثالثة وهي قوات الامبراطور فريدريك بارباروسا Frederick Barbarossa ، وما تلى ذلك من صراع على السلطة بعد

وفاة السلطان قلج أرسلان في عام ١١٩٢م، إلى أن إستقر السلطان كيخسرو الأول (١١٩٢ - ١١٩٦م) بفضل مساعدة آل دانشمند والتركمان. وأن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ضعف النظام داخل السلطنة السلجوقية. ويتضح ذلك إن من نتائج هذا الصراع وسوء النظام أن تولى السلطان سليمان الثاني عرش السلطنة السلجوقية (١١٩٦ - ١٢٠٤م) ثم تولى قلج أرسلان الثالث العرش بقية عام ١٢٠٤م، ثم عاد الى كيخسرو الأول مرة أخرى (١٢٠٤ - ١٢١٠م).

ومع بداية حكمه سقطت الامبراطورية البيزنطية في أيدى الصليبيين ١٢٠٤ - ١٢٦١م، وخلال هذه المرحلة قامت حكومة الإمبراطورية البيزنطية في المنفى في مدينة نيقية. وقد نجح كيخسرو أن يضم إلى بلاده مدينة أضاليه البيزنطية التي تقع إلى الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى على ساحل البحر المتوسط، كما نجح ابنه عز الدين كيكاوس الأول (١٢١٠ - ١٢٢٠م) في ضم مدينة سينوب الواقعة في جنوب البحر الاسود، وقد إستفاد السلاجقة من هذه المدينة عسكريًا وتجاريًا.

ويعتبر عهد كيقباذ الأول (١٢٢٠ - ١٢٣٧م) من أفضل العصور في عهد الدولة السلجوقية، فقد تمكنت الدولة في عهده من السيطرة على كل ساحل آسيا الصغرى الجنوبي حتى مداخل بلاد الشام، كما ضمت شبه جزيرة القرم، وبذلك تدفقت التجارة إلى آسيا الصغرى. كما إتخذ كيقباذ من مدينة العلايا مقرا له . ورغم أن الحياة الاقتصادية والحضارية إزدهرت في عهد كيقباذ الأول، إلا أن هذه المظاهر كانت تخفى وراءها عوامل الضعف والإنهيار، فقد بدأت المشاكل تظهر داخل الدولة عندما بدأ الخطر المغولي يداهم منطقة الشرق الأدنى الاسلامي، وقد نجح المغول في دخول مدينة أرزن

الروم عام ١٢٤٢م ثم هزموا السلاجقة هزيمة ساحقة في معركة كوس داغ في العام التالي وتحطم الجيش السلجوقي ولاذ السلطان كيخسرو الثاني (١٢٣٧ - ١٢٤٥م) من أرض المعركة. أما وزيره مهذب الدين فقد تقرب إلى المغول ، فعقدوا معه إتفاقًا يقضي ببقاء الدولة السلجوقية على شرط تأدية الجزية كل عام، وأن ترسل الدولة للمغول الامدادات عند الحاجة. ثم زادت سيطرة المغول الإدارية بالتدريج على السلاجقة الأمر الذي عجل بزوال دولتهم في عهد آخر حكامهم مسعود الثالث (١٣٠٧ - ١٣٠٨م).

الأيوبيون:

أسس الدولة الايوبية صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي ولد في تكريت عام ١١٣٨م من أبوين كرديين، وقد إنتقل صلاح الدين مع أسرته إلى بعلبك في العام التالي. وقد عين عماد الدين زنكي أتابك الموصل(١١٢٧ - ١١٤٦م) والده أيوب قائداً لحامية المدينة.

وقد رافق صلاح الدين عمه شيركوه في حملاته على مصر خلال الصراع النورى الصليبي على مصر في عهد نور الدين زنكي أتابك حلب (١١٤٦ - ١١٧٤م) وأتابك حلب ودمشق (١١٥٤ - ١١٧٤م)، حتى انتهى الأمر بأن أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد (١١٦١ - ١١٧١م)، ثم ما لبث الخليفة أن توفى بعد فترة قصيرة وإنتهت الدولة الفاطمية وبدأ التمهيد لقيام الدولة الأيوبية في مصر والشام والحجاز واليمن. ووقع على كاهل صلاح الدين مقاومة الصليبيين في بلاد الشام، فكانت معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م وما تلى ذلك من سقوط القدس وبعض مدن الساحل الشامي في أيدى صلاح الدين.

وترتب على ذلك قدوم الحملة الصليبية الثالثة من أجل استعادة القدس وغيرها، ولكن هذه الحملة لم توفق في تحقيق أهدافها، وانتهى الأمر بعقد صلح الرملة الذي عقد في عام ١١٩٢م، وما لبث صلاح الدين أن توفى في العام التالي ١١٩٣م، وتم تقسيم الدولة بين أمراء البيت الأيوبي، فضاعت وحدة الدولة وتماسكها، وظل الصراع مستمراً لعدة سنوات حتى تمكن العادل أخ صلاح الدين من السيطرة على الموقف في عام ٥٩٨هـ (١٢٠١ - ١٢٠٢م) وبدأ في اعادة تنظيم الدولة بعد التفكك الذي إنتابها.

وبصرف النظر عن كل هذه الصراعات قد تميز حكم العادل بسياسة الدفاع عن مملكته ضد الصليبيين ولم يأخذ بسياسة الهجوم، لأنه كان يرى أن الهجوم على ممتلكات الصليبين ربما يؤدى إلى قدوم حملة صليبية جديدة. ولذلك عقدت هدنه في ١١٩٨م ،ورغم ذلك وقعت بعض الاشتباكات بين الطرفين، ومن هذه الاشتباكات ما وقع في عام ١٢٠٤م عندما أتى إلى الشام كثير من الصليبين متشجعين بإمتلاك قوات الحملة الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية، وهي الحملة التي كانت وجهتها مصر ثم انحرفت لمهاجمة الدولة البيرنطية، وعلى أيه حال لقد انتهت هذه الأحداث بهدنه مدتها ست سنوات، من عام١٢٠٤م حتى ١٢١٠م ثم عقدت معاهدة أخرى من عام ١٢١٢م إلى ١٢١٧م.

ومع نهاية هذه الهدنة قدمت الحملة الصليبية الخامسة التي هاجمت مصر من عام ١٢١٨ حتى ١٢٢١م، تم خلالها الاستيلاء علي مدينة دمياط. وفي هذه المرحلة بدأ الخطر المغولي في الأفق، الأمر الذي دفع الملك الكامل حاكم مصر إلى عرض الصلح على الصليبين عدة مرات للجلاء عن دمياط مقابل التنازل عن كل الاراضي التي فتحها صلاح الدين عدا قلعتى الكرك

والشوبك ،ولكن الصليبين رفضوا هذا العرض المجزي حتى إنتهت إحداث الحملة وهزمت هزيمة نكراء وإضطرت للجلاء دون قيدٍ أو شرط، ثم عقدت هدنة لمدة ثمان سنوات.

زال الخطر الصليبي مؤقتا وظهر خطر آخر وهو تجدد الصراع بين أفراد البيت الأيوبي خاصة بين الكامل حاكم مصر وأخيه المعظم حاكم دمشق ، فقد خرج المعظم على طاعة أخيه ودعا جلال الدين خوارزم شاه للاستيلاء على ديار بكر وحرض البعض على مهاجمة الموصل وحمص لانتزاعها من أيدى أخيه الاشرف، ولم يكن أمام الاخير سوى الخضوع لاخيه المعظم خاصة بعد ما تعرضت مدينة خلاط لهجمات الخوارزمية.

وأمام ما فعله المعظم عيسى، قام الملك الكامل بدعوة الامبراطور الالماني فريدريك الثاني للقدوم الى الشرق لتسليمه مدينة القدس نكاية في أخيه المعظم. وقبل ان يصل الامبراطور مات المعظم في عام ١٢٢٧م، وعندما وصل الامبراطور كان على الملك الكامل أن يحل المشكلة بشكل أو بآخر، وإنتهى الأمر بان سلم الكامل مدينة القدس للامبراطور فسخط عليه كافة المسلمين.

ومهما كان الأمر فقد إستمرت الهدنة حتى عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م حين قدمت إلى الشام حملة صليبية أخرى على رأسها تيوبوت الرابع Thibaut IV أمير شامباني وملك نافارو، وبعض الأمراء الآخرين، وتذرع الملك الناصر داود صاحب الأردن بوصول هؤلاء الصليبيين وطرد الصليبيين المحليين من القدس، ورغم هذا كله فقد إنتهى الأمر باستلام الصليبيين للقدس مرة أخرى ومعها طبرية وعسقلان وبعض القلاع والمدن الأخرى.

ولم تكد هذه الحملة تغادر بلاد الشام حتى وصلت حملة أخرى تعرف باسم الحملة الانجليزية في عام ١٢٤٠م وعلى رأسها ريتشارد أف كورنول

Richard of Cornwall أخ هنرى الثالث ملك إنجلترا . وقد نجحت هذه الحملة بدورها في تأكيد حق الصليبين في ملكية بيت القدس، وبعد قليل من رحيل هذه الحملة، تمكن الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية من استعادة القدس في عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ، وبذلك فقد الصليبيون إلى غير رجعة تلك المدينة المقدسة، كما استعان الصالح أيوب بالخوارزمية واستولى على مدينة دمشق ولكن هؤلاء الخوارزمية عاثوا في بلاد الشام فساداً حتى إنتهى الأمر بهزيمتهم عند حمص عام ١٢٤٦م ، فتبدد شملهم وزالت أهميتهم كقوات مقاتلة.

وكان ضياع القدس من أيدى الصليبيين سببًا في قدوم الحملة الصليبية السابعة وعلى رأسها لويس التاسع ملك فرنسا وما حدث من نجاح رسو القوات الصليبية في دمياط وتراجع القوات الاسلامية إلى المنصورة ،ثم وفاة الصالح أيوب في نهاية ١٢٤٩م. وقد أربك هذا كله القيادة الأيوبية ، ولكن شجر الدر نجحت في السيطرة على الموقف واستدعت توران شاه بن الصالح أيوب من حصن كيفا في أعالى العراق لتولي حكم مصر ، وانتهت الاحداث بهزيمة لويس وأسره ثم إطلاق سراحه ورحيله من مصر، ومقتل توران شاه على أيدى المماليك.

هب الأيوبيون في الشام مطالبين بالثأر لما حدث في مصر، وتقرر تعيين المغيث عمر سلطانًا على شرق الاردن بينما تولى الناصر يوسف أمير حلب حكم دمشق ١٢٥٠ - ١٢٦٠م، وخلال هذه الاحداث تزوجت شجر الدر من عزالدين أيبك وأصبح أول سلطان للمماليك في مصر، وهنا كون الايوبيون بالشام حلفا لاستعادة مصر، ولكن هذا الحلف هزم في عام ١٢٥٠م .وتمت محاولة أخرى في العام التالى إنتهت بالمفاوضات بين الطرفين تنازل فيها الناصر يوسف عن مدينة القدس للسلطان عزالدين أيبك.

ولكن العداء بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ما لبث أن تجدد بعد ما قتل أيبك منافسه في الحكم وهو الأمير أقطاى ،وهروب مماليكه إلى دمشق حيث رحب بهم الناصر يوسف . ولكن السلام ما لبث أن عاد بين أيبك والايوبيين بإتفاق في عام ١٢٥٦م تنازل بموجبه الناصر يوسف عن جانب من بلاد الشام. وظل الناصر يوسف لمدة أربع سنوات زعيمًا للبيت الأيوبي في بلاد الشام . ولما إستولى هولاكو على بغداد عام ١٢٥٩م ارسل الى الناصر يطالبه بالحضور، ولكنه لم يذهب وأرسل بدلاً منه إبنه العزيز محمد، وعندما توجه هولاكو صوب بلاد الشام غادر الناصر حلب وأقام خارج دمشق، وهنا أحس الناصر بضعفه أمام القوات المغولية فأرسل إلى القاهرة ليستنجد بالسلطان المملوكي سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠م) .

وفي يناير عام ١٢٦٠م تقدم المغول الى حلب واستولوا عليها ونهبوها فهرب حاكمها المنصور الثاني الأيوبي وانضم إلى جيش المماليك تحت قيادة قطز، وبعد حلب إستولى المغول على دمشق في العام نفسه، وبسقوط بغداد وحلب ودمشق وهي المدن الكبيرة بدا للجميع أن المسلمين قد حان أجلهم، ولكن المغول ما لبثوا أن هزموا في معركة عين جالوت ١٢٦٠م على يد القوات المملوكية بقيادة قطز فتغيرت الأوضاع تمامًا في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي. وحاول المغول مرة أخرى الهجوم على بلاد الشام فاستولوا على حلب في عام ١٢٦١م، ولكن المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص تصدا للقوات المغولية وأنزلا بها هزيمة كبيرة ولم يكتفيا بذلك بل ظلا يطاردان القوات المغولية حتى عبرت نهر الفرات .

وبعد هذه الأحداث بقى من البيت الأيوبي المغيث صاحب الكرك، والاشرف

موسى صاحب حمص، والمنصور صاحب حماه، وفيما يتعلق بالمغيث فقد قتله السلطان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) في عام ١٢٦٣م وإستولى على الكرك - وعن المنصور صاحب حماة ، فقد إحتفظ بحكم المدينة ولأسرته من بعده، من سلالة المظفر الأول تقى الدين عمر (١١٧٨ - ١١٩١م) حتى تولى أمرها الأفضل محمد بن إسماعيل (١٣٣٢ - ١٢٤١م) - ومن سلالة هذا الفرع المؤرخ أبو الفدا (١٣١٠ - ١١٣٢م) .



الفصل الاول
قيام دولة المغول

جنكيز خان

تنظيم الامبراطورية

فتوحات جنكيز خان

أوكيتاي ١٢٢٧ - ١٢٤١م

باطو وغزو الروسيا

باطو وشرق أوروبا

كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨م

مونكو ١٢٥١ - ١٢٦٠م

هولاكو وسقوط بغداد ودمشق

قوبيلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤

معركة عين جالوت ١٢٦٠م

أباقا (خان فارس) ١٢٦٥ - ١٢٨٢م

مغول القفجاق

تيمورلنك ١٣٦٩ - ١٤٠٢م

الطرق التجارية زمن المغول

الفصل الأول

قيام دولة المغول

جنكيز خان :

عاش في الأراضي الشاسعة التي تقع إلى شمال وغرب الصين مجموعة من القبائل. وكانت هذه الأراضي في مجموعها صحارى وسهوب تتصف بالمناخ القاري. وقد عاشت هذه القبائل منذ حوالي سنة ٢٠٠ ق.م ومن هذه القبائل المغول والتتار وبعض العناصر التركية مثل الكرايث keraits والأويغور Uigurs والنايمان Naimans والتايجيوت Tayichut وبعض القبائل الأخرى .

وقد ولد تيموجين Temujin في عام ١١٦٧م لزعيم مغولي يدعى يسوكاى Yesugai وأم تدعى هويلون Hoelun. وقد عرف هذا الطفل في التاريخ باسم جنكيزخان Jenghiz Khan ، وفي تلك المرحلة كان المغول عبارة عن قبائل تعيش في أعالى نهر آمور Amur، وكانت في حرب شبه دائمة مع قبائل التتار المقيمه إلى الشرق منهم. وقد نجح يسوكاى في إنزال الهزيمة ببعض قبائل التتار، الأمر الذي زاد من سلطانه وعلو مكانته .

أما علاقة يسوكاى بالكرايث كانت ودية تعاهدية وليست عسكرية. ويرجع ذلك إلى أن الكرايث شعب بدوى تركي عاشوا حول نهر أورخون Orkhon ، وقد إعتنقوا المسيحية على المذهب النسطوري مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادي وترتب على ذلك إتصالهم بقبائل الأويغور النساطرة أيضًا. وقد مات خان الكرايث كورياكوس Qurjakuz حوالي عام

١١٧٠م فبدأ الصراع على العرش بين إبنه طغرل والأخوات والأعمام
وعند هذه المرحلة طلب طغرل من يسوكاي مساعدته لاسترداد [illegible]
والده، وقد تعاهدا على ذلك، وبعد ما تم [illegible]
الكرايت أصبح يسوكاي في منزله رفيعه بين زعماء المنطقة، ولكنه مات بعد قليل، ويقال أنه مات مسمومًا، ولم يكن تيموجين قد بلغ التاسعة من عمره، ولكن والدته تمكنت من الاحتفاظ بالعرش له.

وكان تيموجين على حد قول أحد المؤرخين طويل القامة، شديد النشاط والاحتمال والصبر، وله شخصية أثرت في كل من صادفهم، يضاف إلى ذلك موهبته الفائقة على التنظيم وكيفية إختيار مساعديه . كما أنه كان معروفا بحبه للعلم وإحترامه للعلماء، لذلك أبقى على حياة كل عالم وقع في أسره. وفي عام ١١٩٤م تم إختيار تيموجين زعيمًا للقبائل المغولية وأصبح يعرف باسم جنكيزخان (أي القوى)، واعترف به امبراطور الصين ليتحالف معه ضد التتار الذين هددوا أراضيه. وفي حروب سريعة وقصيرة خضع التتار لحكم جنكيزخان.

أما خضوع الكرايت لحكم جنكيزخان، فيرجع ذلك إلى أن الصراع على العرش في دولة الكرايت إنتهى بطرد الخان طغرل عام ١١٩٧م، ولكن جنكيزخان ساعده على العودة إلى عرشه ثم ما لبث أن أصبح طغرل من أعظم الأمراء وعرف باسم وانك خان Wang-Khan أو أونك خان Ong-Khn وهو إسم وصل الى هذه المناطق في صيغة يوحنا، ولذلك رشح طغرل للدور الذي كان على الكاهن يوحنا أن يقوم به وهو التحالف مع الغرب الأوروبي ضد المسلمين في حوض البحرالمتوسط.

ويبدو أن شهرة طغرل قد أثارت جنكيزخان فدب الخلاف بينهما عام ١٢٠٣م، حيث قامت المعركة الأولى بين الطرفين ولكنها لم تحسم لصالح

أي طرف منهمـا ، وفي المعـركـة الثـانيـة التي وقـعت بعـد قليل هزم جنكيزخان طغرل هزيمة نكراء وأبيد الجيش في معركة جيجر أوندور Jejer Undur في قلب بلاد الكرايث، وقد لقى طغرل مصرعه أثناء فراره من أرض المعركة فخضعت دولة الكرايث لدولة جنكيزخان وضمها إلى دولته، وبذلك أضاف جنكيزخان أراضي التتار ثم أراضي الكرايث.

وقد نجح جنكيـزخـان في العـام التـالى ١٢٠٤م فى إخضـاع قبـائل النايمان بعد هزيمتهم في معركة شقيرميوت Chakirmaut ، وحتى عـام ١٢٠٥م كـان جنكيـزخـان قـد نجح في فـرض سيـادته على كل القـبـائل القـاطنة بين حـوضى نهـر التـاريمTarim الواقـع إلى الغـرب من مـدينة سمرقند ونهر آمـور، الذي يصب في بحر اليـابان حاليًا، وسور الصين العظيم. وفي العـام التـالى ١٢٠٦م عـقـدت جمـيع القـبـائل مـجلسًا (قوريلتاى)، وأعلنت سيادة جنكيز خان على هذه القبائل التي ينبغي أن يطلق عليهـا إسم المغول. ولعل الأمر أصبح واضحاً في الفرق بين كلمة المغـول والتـتـار ، وإن كـان البعـض ومنهم المؤرخـون المعـاصرون للأحداث يطلقون إسم التتار على المغول وبالعكس أيضًا.

ويلاحظ أن جميع هذه القبـائل كانت تنقسم إلى فرعين كبيرين، وهما الأتراك والمغول ويختلفان في اللغة، فقد استخدم الأتراك اللغة التركية، أما المغول فقد إستخدموا أبجدية الأويغور، وكان الفرع التركي قد بدأ بالرحيل إلى المناطق التى سميت بإسم (تركستان). أما المغول فهو إسم أطلق على إحدى قبائلهم. وقد صنف الصينيون القبائل المغولية إلى ثلاثة أنواع هم المغول البيض الذين عاشوا شمال الصين، والمغول السود وهم الذين عـاشوا شمـال المغول البـيض، والمغول المتوحشـون وهم سكان الغابات وقامت حياتهم على الصيد

تنظيم الامبراطورية:

بعد أن نجح جنكيزخان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد، وقد حدد هذا النظام في مجموعة وظائف يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، وإذا كانت إحدى هذه الوظائف من الوظائف الهامة أو الحساسة تولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم وكانت هذه الوظائف كما يلى :

١ - أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس .

٢ - ثلاثة أفراد يتولون الاشراف على الطعام والشراب .

٣ - فرد واحد يتولى إعداد المراعى للاغنام والماشية، وثلاثة للمحافظة على هذه المراعى.

٤ - شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل.

٥ - فرد واحد للاشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.

٦ - أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحمل السيوف.

٧ - إثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.

٨ - أربعة اشخاص لتبليغ رسائل الخان.

٩ - إثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في إجتماعات المغول.

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجندي الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، ويتم إختيار هؤلاء بعناية، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان أحدهما للنهار وآخرى لليل، وقد بلغ عدد هؤلاء حوالى عشر آلاف ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس. ومن هؤلاء يتم إختيار ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) أي الشجاع المبارز.

وهؤلاء الألف يقومون بخدمة الخان ويلازمونه ولا يخرجون للقتال إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه. وبالاضافة إلى الخان الأعظم وحراسه، كانت طبقة الأمراء وهم معفون من الضرائب ولهم حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان. وكان من عادة الخان إكرامهم وذلك بأن يقدم لهم الشراب بنفسه.

وإعتبر كافة المغول جنوداً في الجيش وعليهم حمل السلاح إذا ما دعت الحاجة، ولذلك إعتبر المغول راعيًا للاغنام والماشية في السلم جنديًا في أوقات الحرب. وكان على الجميع تدريب أنفسهم وإعداد الأسلحة اللازمة للقتال. وقد عرف المغول جميعاً بالطاعة العمياء لقوادهم، كما عرفوا بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود، وكانوا يحاربون دون رحمة لا فرق بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ أو الشباب أو المريض، ولذلك اتسمت حروبهم بالقسوة والتدمير والتخريب.

وعندما تدق طبول الحرب ويجتمع المغول تبدأ عملية تنظيمية دقيقة، ينقسم المغول بعدها إلى فرق كل منها عشرة آلاف وعليهم أمير، ثم ينقسم هؤلاء إلى عشرة أقسام على كل منها أمير ألف، ثم إلى عشرة أقسام أخرى على كل منها أمير مائه ثم إلى عشرة أقسام أخرى على رأس كل منها أمير عشرة، وبذلك أصبح هناك أربعة قواد، وعلى رأس هؤلاء القادة قائد الجيش الذي يجمع هؤلاء لتدارس المواقف وإعطاء الأوامر بعد إستشارتهم، ومن نظم الجيش المغولي وضع الخطط العسكرية قبل بداية العمليات العسكرية، ثم تبدأ عملية جمع المعلومات عن العدو بمعرفة الجواسيس لإعداد المعدات الكافية لمهاجمة المدن أو الحصون. وقد إستخدم المغول طريقة الكر والفر والالتفاف حول العدو والصياح أثناء المعركة لإرهاب الأعداء.

وفي المعارك يقسم المغول قواتهم إلى القلب والمقدمة والمؤخرة والميمنه والميسرة، وتتسلح كل واحدة من هؤلاء بالسلاح المناسب، ومن ذلك أن قوات القلب كانت تتكون من فرقة أمامية وأخرى خلفية. وتتسلح الأمامية بالدروع الكاملة ويحمل أفرادها السيوف والحراب ويغطون خيولهم بالدروع المناسبة، أما الخلفية فكانت أسلحتها خفيفة مثل القوس والنشاب، وتكون سريعة الحركة حتى يمكنها تقديم المساعدة للقوات الأمامية.

وعامل المغول أعداءهم معاملة قاسية، فإذا إجتاحوا مدينة قتلوا أهلها دون رحمة، مع الإبقاء على أصحاب الحرف والصناعات، وبعض من الأهالى بالمدينة لاستخدامهم كدروع بشرية في حرب أخرى، ويرجع ذلك إلى أن الاسرى هم الذين يتعرضون للقتل والمغول خلفهم، وبذلك يستهلكون قوة أعدائهم في قتل الاسرى، وفي الوقت المناسب يتقدم المغول للقضاء على خصومهم.

أما عن دستور إمبراطورية المغول فقد كان هناك مجموعة من التقاليد والأعراف تحكم حياة المغول، ولكنها لم تكن مكتوبة لعدم معرفة المغول الكتابة، ولما أصبح جنكيزخان خانًا أعظم لهم، قام بمراجعة هذه الأعراف، فألغى منها ما لم يعد مناسبًا وأبقى ما وجده صالحًا، وأضاف إليها ما رآه ضروريًا. وأمر بتدوين ذلك بالخط الأويغوري حتى يتعلمه الصغار والكبار، وقد إحتفظ كل أمير مغولي بنسخة من هذه القواعد في خزانته الخاصة. وقد عرفت هذه القواعد باسم Yass ، وقد عربت هذه الكلمة إلى ياسا أو الياسا أو الياسة، أو اليسق أو اليساق، ومعنى هذه الكلمة حكم أو قاعدة أو قانون.

ومما لا شك فيه أن التجارب والشدائد التي عاشها جنكيزخان وما تعرض له من محن ومؤامرات، وما قام به من حروب، كان له أهمية كبرى

عند وضع بنود الياسا ، لأنه كان حريصًا على جمع كلمة القبائل والسيطرة عليها ، لذلك تضمنت الياسا نصوصًا بالغة الصرامة لضبط القبائل ونشر الأمن والاستقرار داخل القبائل المغولية، ويتطلب الأمر في هذا المجال أن نعرض بعض بنود الياسا للتعرف عليها ، ومن ذلك :

أن من وجد عبداً أو أسيراً آبقًا عليه أن يرده لصاحبه، وإلا تعرض للقتل. ومن أطعم أسير قوم أو كساه دون إذن أسياده قتل - ومن وقع منه متاعه أو سلاحه اثناء القتال ، فعلى الشخص الذي ورا ءه أن ينزل عن فرسه ويناول زميله ما سقط منه، فإن لم ينزل ويناوله قتل، ولا يختص فرد بأكل شيء وغيره يراه ، بل عليه أن يشرك من يراه في أكله، ولا يتميز مغولي بالأكل دون سواه، فإن مر مغولي بفرد أو جماعة وهم يأكلون، له ان يأكل معه أو معهم، وليس لأحد أن يمنعه.

وقد حذرت الياسا بعض الاعمال على المغول، ومن ذلك يمنع المغولي من غسل ثيابه حتى تبلى، يمنع المغولي من أن يخص شيئًا بالنجاسة فجميع الأشياء طاهرة، ويمنع المغولى من التعصب لمذهب ديني، كما يمنع المغولي من إستخدام الألقاب قبل الأسماء، فيخاطب الفرد مهما كانت منزلته باسمه.

وهناك أيضًا بعض الإلتزامات يجب القيام بها ، ومن ذلك إلزام القادة العسكريين بالتفتيش على أسلحة الجنود قبل الخروج للقتال، وكافة ما يلزم الجنود وإذا قصروا عوقبوا. وإلزام النساء بالقيام بأعمال الرجال طوال وجود العساكر في القتال، يضاف إلى ذلك الزام المغولي بإقامة حلقات الصيد بإعتبارها تدريبًا على أساليب القتال. وفوق هذه كله وغيره أقام الخان نظام البريد للاتصال بأنحاء الامبراطورية ،واصدار الأوامر في الوقت المناسب،والتعرف أيضًا على أحوال بلاده.

وقد ورد في الياسا أيضًا تجريم أعمال السرقة والفحشاء، وإنكار حقوق الوالدين، ووجوب إتباع الصغير لتعاليم الكبير، ومساعدة الغني للفقير، وإحترام صغار الموظفين لرؤسائهم. وقد بقيت الياسا موضع إحترام المغول طالما بقيت العناصر المغولية، وقد أخذت بعض العناصر الأخرى بعض بنودها مثل المماليك.

فتوحات جنكيزخان:

قبل أن تبدأ سنة ١٢٢٥م كان جنكيزخان قد فرض نفوذه على إمبراطورية كين الصينية، ومملكة هسيا هسى Hsia Hsi ومملكة قرة خيتاى Kata Khitai ، وقد ترتب على هذا التوسع أن أصبح المغول متاخمين للدولة الخوارزمية، وبات الوضع يهدد بالانفجار، خاصة أن محمد خوارزم شاه لم يكن بالحاكم الذي يتهاون في التعامل مع جيرانه. وفي بداية الأمر ساد السلم بين الدولتين وتبودلت الرسائل والسفارات، ولما كان المغول يعتبرون أنفسهم أسياداً وبقية الأمم توابع لهم، فقد كتب جنكيرخان إلى الملك الخوارزمي يطالبه بالخضوع للمغول وأن يعتبره سيده، وكانت شرارة الحرب عندما ذهبت سفارة من المغول مع قافلة تجارية في طريقها إلى الملك الخوارزمي. ولما وصلت القافلة والسفراء إلى مدينة أوترور Utrur - الواقعة إلى الداخل على نهر سيحون، وشمال سمرقند - صادر حاكم المدينة بضائع القافلة. وكان في ذلك إهانة للخان الأعظم جنكيزخان.

إستعد المغول للقتال وحشدوا جيشًا بلغ قوامه مائتي ألف مقاتل في نهاية صيف عام ١٢١٩م. وتقدم إلى الشرق إلى مسافة حوالى ألف ميل لمهاجمة الأراضي الخوارزمية، وبادر خوارزم شاه بالاستعداد للقتال، ودفع بعض قواته إلى الأمام بينما عسكر هو بالقوات الرئيسية في إقليم ما

وراء النهر عند مدينتي بخارى وسمرقند. وكانت المدينة الأولى التي واجهت الغزو المغولي هي مدينة أوترور، وهي المدينة التي صادر حاكمها تجارة القافلة المغولية، ويبدو أن هذا التصرف كان مقصوداً لتأديب المدينة وحاكمها.

وبعد سقوط أوترور تقدم الجيش المغولي إلى مدينة بخاري فوصلها في فبراير عام ١٢٢٠م، فبادر السكان بفتح أبواب المدينة، عدا قلة تحصنوا بالقلعة، ثم ما لبث أن قتلهم المغول عن أخرهم . ويبدو أن ماحدث في بخارى دفع خوارزم شاه إلى التراجع مما جعل مدينة سمرقند هدفًا سهلاً للمغول. وقد إستسلمت بدورها للمغول فقتل جنكيزخان جميع ما صادفه من الجنود فتراجع الخوارزمية حتى عاصمتهم أورجنده - الواقعة عند نهر جيحون - وتقع إلى الشمال الغربي من بخارى، وقد دافعت القوات الخوارزمية عن العاصمة دفاعًا مجيداً، الأمر الذي أجل سقوط المدينة عدة أشهر هرب خلالها خوارزم شاه. فطاردته بعض القوات المغولية، ولكنها لم تلحق به فوصل إلى جزيرة داخل بحر قزوين حيث مات في نهاية عام ١٢٢٠م.

بعد هذه الأحداث تولى جلال الدين حكم الدولة الخوارزمية بعد والده، واتجه إلى فرغانه فجمع القوات وتراجع إلى أفغانستان وتمكن من هزيمة بعض القوات المغولية، أما جنكيرخان فقد إتجه إلى بلخ فإستسلمت له، ومنها إتجه إلى مدينة باميان فقاومته لبعض الوقت، ولقى حفيده في حصارها مصرعه، فلم يبق على أحد من سكانها بعد سقوطها. كما نجحت قوة مغولية بقيادة طولوى بن جنكيزخان في الاستيلاء على مدينة مرو وتم قتل جميع سكانها عدا المهرة من الصناع، ثم سقطت مدينة نيسابور ولقيت نفس المصير الذي لقيته مدينة مرو.

وفي خريف عام ١٢٢١م تقدم جنكيزخان بقواته لمقاتله جلال الدين عند نهر السند حيث وقعت معركة في نوفمبر من العام نفسه فر بعدها جلال الدين إلى مدينة دلهى، وفي أفغانستان قضى جنكيزخان حوالى العام تمكن خلاله من إسقاط مدينة هراه وقتل من سكانها الآلاف بعدما خربت المدينة،

وعاد جنكيزخان بعد ذلك إلى منطقة نهر سيحون الذي أصبح خرابًا ،وقد عبره عائداً إلى بلاده في ربيع عام ١٢٢٣م، فوصلها في صيف العام التالى. وقد راقب النساطرة في آسيا حروب جنكيزخان واستبشروا خيراً خاصة أن بعض ابناء جنكيزخان قد تزوجوا من أميرات مسيحيات من قبائل الكرايث ،واعتقد الصليبيون في بلاد الشام وحكام الغرب الأوروبي أن بالامكان إتخاذ جنكيزخان حليفًا لهم.

وكان جنكيزخان قد أرسل جيشًا تحت قيادة سوبوتاى Sobotai وجيب Jebe للحاق بخوارزم شاه بعد فراره من عاصمته أورجنده، وبعد أن أفلت منهما واصلا سيرهما نحو الغرب، وقد استطاعت القوات المغولية الاستيلاء على مدينة الرى في صيف عام ١٢٢٠م، ثم تلاها مدن قم وقزوين وزنجان. أما مدينة همذان فقد قدمت الفدية المناسبة فنجا أهلها من القتل.

بعد هذه المرحلة تقدم الجيش المغولي لقتال بلاد الكرج (جورجيا)، وقاد الملك جورج الرابع قواته لمواجهة المغول، ولكنه منى بهزيمة ساحقة بالقرب من مدينة تفليس Tiflis حطم فيها جيش الكرج تمامًا. وتوقف زحف المغول لبعض الوقت إلى الشمال لأنهم إضطروا للعودة إلى همدان لخروجها على طاعتهم، وفي طريقهم نهبوا مدينة مراغة وبقوا لبعض الوقت حتى نهاية عام ١٢٢١م.

وفي بداية العام التالي تقدمت القوات المغولية إلى الشمال مرة أخرى بقيادة سبوتاى وجيب واتجهوا إلى بلاد القفجاق عند نهري الفولجا والدون . وقد إستطاع المغول هزيمة القفجاق بعد أن حيدوا قبائل الآلان Alans واللكز Lesghians ، ثم استدار المغول لهما بعد هزيمة القفجاق. وعند هذه المرحلة قام الآلان واللكز بالاستنجاد بأمير مدينة كييف الروسي، وكان مصير هذا التحالف الهزيمة عند نهر كلكا Kalkha بالقرب من بحر آزرف.

وكانت المحطة التالية للقوات المغولية في هذا الجانب شبه جزيرة القرم، وقد تم نهب المركز التجاري الجنيوى في مدينة صولدايا Soldaia المقام في تلك الأنحاء ، ثم إتجهت إلى الشرق حيث هزمت جيش بلغاريا. وبعد كل هذه العمليات العسكرية عادت إلى منطقة نهر سيحون لتنضم إلى الجيش الرئيسي بقيادة جنيكيزخان في مطلع عام ١٢٢٣م. وهكذا إمتدت إملاك المغول من كوريا حتي غرب فارس، ومن المحيط الهندي حتى الشمال في روسيا. وكان فيما أنزله المغول من تخريب وتدمير وقتل وسلب ونهب دون رحمة ما منع أية دولة من المخاطرة بمقاومة القوات المغولية الا فيما ندر. كما أن مداهمة المغول لبعض الدول المسيحية قد خيب آمال من إعتقدوا في إمكانية التحالف مع الغرب الأوروبي والصليبيين لمهاجمة أملاك المسلمين في الشرق الأدنى الاسلامي. ومات جنكيزخان في عام ١٢٢٧م، بعد ما خلف بعده إمبراطورية شاسعة، وأقام حكومة عادلة ترعى الأمن والنظام، فإنتعشت التجارة وأصبح بوسع القوافل أن تسير عبر آسيا آمنة، بعدما أهلك الملايين من السكان وخرب ودمر المساحات الشاسعة من الحقول والبساتين.

أوكيتاى (١٢٢٧ - ١٢٤١)

عندما توفى جنكيزخان كان له أربعة أولاد هم، جورجي، جغتاى،

وأكيتاى، وأصغرهم طولوى، وطبقًا للأعراف المغولية كان الابن الأكبر ولسلالته من بعده الحق في حكم الإمبراطورية ، وأن يحتفظ الابن الاصغر بالاقليم الأصلى للمغول، ولكن جنكيزخان خرج على هذه القاعدة التي كان يجب أن تنفذ لأول مرة، ورشح إبنه الثالث أوكيتاى لتكون له السلطة العليا على الامبراطورية المغولية. ولعل ما دفع جنكيزخان إلى ذلك بعض الاسباب التى لها وجاهتها، فكان يرى في جورجي أنه ليس بالقائد العسكرى الناجح ،وأن جغتاى حاد المزاج، أما أوكيتاى فقد وصف بالصبر والقدرة على معالجة الأمور، في الوقت الذي كان فيه طولوى محبًا للهو. ويقول رشيد الدين الهمذاني، إن عرش الامبراطورية ظل خاليًا من ملك قرابة سنتين، وأخيراً فكر الأمراء أنه قد يحدث أمراً ما ، وليس هناك من رئيس أو ملك، فيتطرق الفساد أوالخلل إلى أساس الملك، فمن المصلحة التعجيل بتنصيب خان للخانية، وبهذا الفهم الدقيق تبادل الأمراء الرسل فيما بينهم من الجهات المختلفة، وبدأ الإستعداد لعقد القوريلتاى ، وقد ظل المجلس منعقداً حوالى ثلاثة أيام، وبعد تبادل الرأى إستقر الرأى على تعيين أوكيتاى في منصب الخانية تنفيذاً لوصية جنكيرخان.

وبعد إنهاء مراسم تعيين الخان قام أوكيتاى بتوزيع أراضى الأمبراطورية على الأمراء الكبار، فإحتفظ أخوة جنكيزخان بالاقاليم الشرقية حول نهر آمور وإقليم منشوريا، وحاز أولاد جورجي - لأنه كان قد مات - وهم باطو، وأوردا ، وبركة ، وشيبان الأقاليم الغربية من الإمبراطورية حتى نهر الفولجا، أما أملاك أوكيتاى الشخصية فكانت أراضى الكرايث والنايمان ،وإحتفظ طولوى بالأراضي الواقعة على نهر أونون . ويعتبر ذلك أول تقسيم إدارى لإمبراطورية المغول، وليس تقسيمًا سياسيًا، وعلى ذلك فعلى جميع الأمراء تنفيذ أوامر حكومة الخان الأعظم

التي أقامها أوكيتاى في قراقورم.

ومع وفاة جنكيزخان أطلت المشكلة الخوارزمية برأسها مرة أخرى، فقد نجح جلال الدين بن خوارزم شاه في العودة الى بلاد فارس فرحب به الجميع وإلتفت حوله بقايا الجيش الخوارزمي، واعتبروه محرر البلاد من سيطرة المغول. وخلال عام ١٢٢٥م كانت له السيادة على بلاد فارس وأزربيجان، ولم يكتف بذلك بل إنه تقدم في العام نفسه إلى بلاد الكرج ودخلها بسهولة حتى وصل إلى العاصمة تفليس، وإنكمشت أملاك الكرج وإقتصرت على أملاكها الواقعة على البحر الأسود. يضاف إلى ذلك أن جلال الدين نجح في فرض سيادته على بغداد في العام التالى .

وأمام هذه الاحداث تحركت القوات المغولية في مطلع عام ١٣٣١م، ويرجع هذا التأخير إلى إنشغال المغول بأحداث الثورات التي قامت في الصين، وتقدمت القوات المغولية بقيادة الأمير شورماجان Chorma-gan حتى وصلت إلى أذربيجان دون مقاومة تذكر، وفر جلال الدين من القتال وتبعه الجنود، ومات جلال الدين بعد ذلك في ظروف غامضة في نواحي كردستان، أما الجنود الخوارزمية فقد إتجهوا إلى إقليم الجزيرة شمال العراق، وهناك عاشوا لبعض الوقت كجنود مرتزقة في جيوش الأمراء الأيوبيين المتنافسين على السلطة في بلاد الشام.

وبانتصار المغول على الخوارزمية عادت فارس وأذربيجان إلى السلطة المغولية وظل شورماجان يحكم هذه المنطقة حتى عام ١٤٤١م. وفيما يتعلق ببلاد الكرج، فقد إلتقتت أنفاسها بعد هزيمة القوات الخوارزمية وإستعادت الملكة روسودان Russudan أراضيها ومنها العاصمة تفليس، ولكن هذا الهدوء لم يدم طويلاً، فسرعان ما تحرك شورماجان بقواته إلى بلاد الكرج فأستولى على الجانب الشرقي منها، وإنتهى الأمر باعتراف

الملكة بأن تكون من أتباع المغول وأن يكون لإبنها مملكة الكرج من بعدها تحت سيادة الامبراطورية المغولية.

باطو وغزو الروسيا :

بدأ الغزو المغولي لروسيا في عام ١٢٢٣م، ويرجع ذلك إلى أن القوات المغولية ظلت تطارد فلول القوات الخوارزمية حتى شواطئ بحر قزوين، ويبدو أن بعض القبائل الروسية التي كانت تعيش في هذه المنطقة قد عاونت القوات الخوارزمية بشكل أو بآخر ضد القوات المغولية. والحقيقة أن الروس لم يكن يعلمون شيئاً عن المغول حتى تلك المرحلة، ويتضح ذلك من حوليه نوفجورد التي سجلت بعض الأحداث عن الغزو المغولي لروسيا في هذا العام، ومما ذكرته أنه في عام ١٢٢٣م تقدمت إلى روسيا قبائل غير معروفة للروس، ولا يعرف أصلهم ولا دينهم وقد اطلقت عليهم الحوليه إسم التتار. وذكرت الحولية أيضاً أن الروس قد سمعوا أنهم استولوا على الكثير من البلاد وأنزلوا بها الدمار. ويتضح من نصوص الحولية أن المغول هاجموا أول الأمر بعض القبائل التركمانية، وأن حاكم أقليم القفجاقِ (أوكرانيا حالياً) قد طلب النجدة من الحكام الروس الذين تجمعوا لمقاومة الغزو المغولي عند نهر كالكا Kallka، ولكن المغول هزموا هذا التحالف الروسي في شهر مايو من العام نفسه، والواقع أنها كانت معركة كبيرة قتل فيها الكثير من القوات الروسية، كما اسر العديد أيضاً، وما تبع ذلك من دمار المناطق التي مر بها المغول والأراضي التي دارت على رحاها المعارك. ثم ما لبث أن عادت القوات المغولية إلى الجنوب ثم إلى قواعدها في آسيا. ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى مات

جنكيزخان في عام ١٢٢٧م، وتلى ذلك انشغال المغول بأمورهم الداخلية لبعض الوقت.

وطبقاً للتنظيمات الذي وضعها جنكيزخان قبل وفاته فقد آلت المناطق الجديدة الواقعة شمالي بحر آرال إلى إبنه جوجي Juji الذي توفى في حياة أبيه فآلت إلى باطو بن چوچي. كما أن المجلس الأعلى للمغول كان قد أقر في اجتماعه عام ١٢٣٥م بتقسيم وتوجيه الجيوش المغولية إلى أربعة اتجاهات للقتال، ومن هذه الاتجاهات روسيا والغرب الأوربي التي تولى أمرها باطو. وتنفيذاً لذلك - أصدر الخان الجديد أركيتاي الذي تولى أمر المغول جميعاً بعد وفاة والده جنكيزخان - أصدر أوامره إلى كافة القادة المغول لإلزامهم بإرسال جانباً من القوات المغولية التي تحت إمرتهم لمساندة باطو في حملاته المقبلة، كما عين سوبوتاي Sobotai، الذي لعب دوراً كبيراً في هزيمة القوات الخوارزمية، قائداً عسكرياً لهذه القوات، هذا بالإضافة إلى خبرته العسكرية في الحملة التي قامت بها القوات المغولية على جنوب روسيا في عام ١٢٢٣م.

كان تقدم القوات المغولية في صورة مفاجئة إلى المنطقة الشمالية لبحر قزوين، وفي هذه المنطقة توجد ثلاث أنهار هي نهر إمبو Embo إلى الشرق ونهر أورال في الوسط ثم نهر الفولجا في الغرب، وعلى هذا النهر الأخير كان يعيش بلغار الفولجا. والواضح من الأعمال العسكرية أن المغول أرادوا أن يتخذوا من منطقة جنوب نهر الفولجا مركزاً لعملياتهم العسكرية في روسيا أو المناطق المتاخمة لها.

كان تقدم المغول في عام ١٢٣٧م أى بعد أربعة عشر عام من حملتهم

الأولى التي يمكن أن نعتبرها أنها كانت حملة استكشافية للغزو المغولي المقبل للروسيا. وقد نجح المغول في هذا العام في مباغتة إقليم الفولجا بما يزيد عن مائة ألف من القوات المغولية وماوالاها من جنود الأقاليم التي فتحها المغول من قبل. وقد أنزلت القوات المغولية الأعمال الوحشية ضد سكان هذا الاقليم مثل ذبح الرجال والنساء والأطفال، وتحولت المنطقة الواقعة في جنوب نهر الفولجا إلى السيطرة المغولية، وتمركزت القوات المغولية في هذه المنطقة لتنطلق منها في عملياتها العسكرية المقبلة.

ومن المعسكر المغولي خطط القادة المغول لغزو المنطقة الشرقية حيث يوجد نهر أورال وتعيش قبائل الباشكير والمنطقة الغربية الواقعة إلى شمال البحر الأسود حيث قبائل القفجاق. ولتنفيذ هذه الخطة قسمت القوات إلى قسمين إتجه القسم الأول إلى الشرق وهزم قبائل الباشكير، كما إتجه القسم الثاني إلى الغرب واجتاح اقليم القفجاق فهرب الآلاف من سكان البلاد إلى الغرب بما فيهم ملك القفجاق ووصلوا إلى مملكة المجر حيث أقاموا هناك. وكان بين المغول والمجر جولة أخرى بعد ذلك.

وفي ديسمبر من عام ١٢٣٧م كانت وجهة المغول مدينة ريازان Ray-zan، وعندما أصبحت القوات المغول على مقربة من المدينة أرسلوا إلى أميرها إنذاراً يطالبونه فيه بالتسليم، ولكن أمير المدينة رفض طلبات المغول وأعد قواته للقتال وأرسل في طلب النجدة من أمير مدينة فلاديمير التي تقع على أحد فروع نهر الفولجا وإلى الشمال من مدينة ريازان، وعندما علمت القوات المغولية بنوايا أمير مدينة ريازان عجلت بمهاجمة المدينة في الشهر ذاته فدمرتها وقتلت الكثير من سكانها. ثم تقدمت إلى الشمال واستولت على مدينة كولومنا Colomna التي تقع إلى الشمال منها.

ولقد دار جدل طويل بين المؤرخين حول كيفية توغل القوات إلى هذا العمق في الأراضي الروسية في قلب فصل الشتاء. وقد قدم كل منهم أسباباً متعددة حول هذا الموضوع، ولكن الأمر الذي يجب التركيز عليه هو أن المغول الذين عاشوا في عاصمتهم قراقورم قد تعودوا مثل هذه الظروف الجوية، لأن العاصمة المغولية تقع عند نفس خط العرض تقريباً التي تقع عليه مدينة كييف، ولم يكن تقدم القوات المغولية أكثر من ذلك إلا قليلاً.

وبعد هذه الانتصارات استراحت القوات لبعض الوقت طوال شهر يناير من عام ١٢٣٨م ولعل ذلك بسبب الأحوال الجوية، وفي الثاني من فبراير من العام نفسه تقدمت القوات المغولية إلى مدينة فلاديمير Vladimir وحاصرتها لمدة ستة أيام، ثم ما لبثت المدينة أن سقطت في أيديها فدخلتها وأشعلت النار فيها.

ويبدو أن هذا التصرف جاء إنتقاماً من المدينة التي ربما كانت تستعد لنجدة مدينة ريازان. وعلى أية حال لقد هرب أمير المدينة إلى الشمال لعله يستطيع تجميع قواته لمنازلة المغول مرة أخرى، ولكن القوات المغولية اسرعت بالتقدم خلال الشهر نفسه إلى المناطق المجاورة، ونجحت خلال أسابيع قليلة في السيطرة على عدة مدن منها سوزدال Zuzdal إلى الشمال وتفر Tevr وموسكو إلى الغرب.

تطلعت القوات المغولية إلى التوجه إلى الشمال والاستيلاء على مدينة نوفجورد Novgorod التي تقع تحت خط عرض ٦٠ بقليل، وهي مدينة يحميها من الجنوب بحيرة إلمان Ilman. والواضح من النصوص التاريخية أن المدينة كانت قد استسلمت لمصيرها، ولم يعد لأهلها ورجال الدين فيها سوى الدعاء لله أن ينقذهم من خطر المغول. وواقع الحال أن المغول لم

يكملوا مسيرتهم في هذه المرحلة إلى نوفجورد، وقد تناول العديد من المؤرخين تفسير تراجع المغول المفاجئ إلى الجنوب، ولعل أقرب الأسباب إلى الصواب يرجع إلى ذوبان الجليد في فترة الربيع وظهور المستنقعات الكثيرة في الأراضي التي كان سيمر بها المغول، فضلاً عن مياه بحير إلمان التي زادت مساحتها وهي البحيرة التي تحمي المدينة من الجنوب.

عادت القوات المغولية إلى قواعدها جنوب نهري الفولجا والدون عن طريق مدينة كالوجا Kaloga التي إجتاحتها، واستراحت جنود المغول لبعض الوقت وأعاد قادتهم تنظيم صفوفهم مرة أخرى، وجددوا معداتهم أو أصلحوها، وبدأ التخطيط لجولة عسكرية أخرى. وانقضى عام ١٢٣٩م قام خلاله المغول بعمليات عسكرية محدودة في المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين حيث يوجد معسكرهم. ويبدو أن هذه العمليات كانت من أجل فرض نفوذ المغول على المنطقة أو لجمع الضرائب، كما قامت القوات المغولية ببعض العمليات العسكرية في المناطق الواقعة إلى شمال البحر الأسود حيث قبائل القفجاق، والواضح أنها كانت عمليات استكشافية أكثر من غزو عسكري.

ويؤكد ذلك أنه في العام الثاني ١٢٤٠م كانت العمليات في ذات المناطق، ولكنها دارت على نطاق واسع. ويلاحظ هنا أن التوسع المغولي في هذه المرحلة سوف يكون لا إلى الشرق أو إلى الشمال وإنما إلى الغرب، وهو الطريق الذي سيؤدي إلى أوربا في مراحل مقبلة. والمهم هنا أن المغول نجحوا خلال شهور قليلة في الاستيلاء على مدينتين هامتين تقعان على نهر الدنيبر وهما تشرنيجوف Chernigov وبرياسلاف Percy-aslav ويبدو أن القوات المغولية لم تبذل جهداً كبيراً في عملياتها

العسكرية في تلك المرحلة الأمر الذي أغراها بالتقدم إلى الشمال حيث تقع مدينة كييف، وهي من المدن التي تقع على نهر الدنيبر أيضاً. وكعادة المغول فقد أرسلوا إلى حاكم المدينة يطالبونه بتسليم المدينة وإلا نزل بها الخراب والدمار، ولكن حاكم المدينة رفض طلب المغول وقتل سفراءهم فبدأت القوات المغولية في محاصرة المدينة، وبدأت آلات الحرب تدك أسوار المدينة حتى نجحت في تحطيم بعض أجزائها الأمر الذي سهل على القوات المغولية اقتحام المدينة في السادس من ديسمبر عام ١٢٤٠م، وقد استولى المغول على كنوز المدينة، ولقى معظم السكان مصرعهم. وقد أبقى باطو على حياة ديمتري Dmitri قائد حامية المدينة لشجاعته في الدفاع عنها. ومن نتائج سقوط مدينة كييف أن أسرع أمراء القفجاق إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للقادة المغول وتعهدوا بتقديم ما تفرضه عليهم القيادة المغولية من غذاء للقوات المغولية وعلف لدوابهم، وبالإضافة إلى ذلك، لقد أصبح المغول على مشارف حدود أوربا الشرقية.

باطو وشرق أوربا :

كانت أول العمليات العسكرية التي بدأها المغول بعد أن استولوا على بعض مدن نهر الدنيبر هو التوجه إلى الغرب نحو نهر الفستولا حيث دولة بولندا. وقد دفع الخان باطو بقواته المغولية إلى تلك المنطقة تحت قيادة بايدار Baidar، وقد بالغ المؤرخون في عدد القوات المغولية التي غزت بولندا وقدروها بأكثر من مائة ألف مقاتل. وفي أواخر عام ١٢٤٠م أو أوائل عام ١٢٤١م تقدمت القوات المغولية إلى مدينة لوبين Lubin واجتاحتها، ثم تقدمت إلى الجنوب على طول نهر الفستولا لمسافة ستين ميلاً، ثم عبرت النهر وهاجمت مدينة ساندومير Sandomir فنهبتها، ثم

تقدم بايدار بقواته حتى وصل إلى مدينة كراكو Craiou، وهي مدينة تقع عند منابع نهر الفستولا، وتبعد حوالي مائة ميل عن مدينة ساندومير وقد استولى المغول على المدينة ونهبوها.

لم يكن أمام الملك البولندي سوى طلب النجدة من جماعة الفرسان التيوتون المقيمين عند سواحل البحر البلطي، وهنري دوق سيليزيا وقد تم التحالف بين القوات البولندية وفرسان التيتون والقوات السيليزية. وتقدمت القوات المغولية إلى مدينة برسلاو Breslau، وهي مدينة تقع في شمال اقليم سيليزيا الذي يقع إلى الجنوب من بولندا، وتقع على الضفة الغربية لنهر الأودر Oder. وقد حاصرت القوات المغولية المدينة ثم أضرمت فيها النار، ولكنها إنسحبت من أمامها عندما علموا أن القوات البولندية وحلفاءها قد تجمعوا عند مدينة لينجنتز Liegntiz.

تقدمت القوات المغولية إلى الجنوب حيث القوات المتحالفة، وفي مدينة فاهلشتات Wahlstadt القريبة من مدينة ليجنتز دارت معركة عنيفة في التاسع من أبريل عام ١٢٤٠م إنتهت بهزيمة القوات المتحالفة هزيمة ساحقة. والواضح أنه كان هناك إتفاق مسبق بين القائد المغولي بايدار والخان باطو على غزو بلاد المجر، فبعد انتصار القوات المغولية في بولندا تقدمت جنوباً إلى اقليم مورافيا Moravia، ومنها إلى الجنوب أيضاً لتتقابل مع بقية القوات المغولية بقيادة باطو.

وفي الوقت الذي تحركت فيه بعض القوات المغولية بقياد بايدار لغزو بولندا كان الخان باطو يساعده القائد المغولي سوبوتاي قد غادروا روسيا بعد أن تركوا الحاميات العسكرية الكافية بها واتجها إلى بلاد المجر (هنغاريا - Hungary). وقد اتخذت القوات المغولية طريقها إلى اقليم جالسيا Galica في بداية الأمر بعد أن عبرت نهر الدينسر Dniester.

وكـانت دولة المجـر تقع إلى الجنوب من مملكة بولندا ويتـولى حكمهـا في تلك المرحلة الملك بيلا الرابع Bela IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠م).

وكان ملك المجر يتوقع الغزو المغولي بسبب إيوائه العناصر التي فرت من المناطق الروسـيـة خاصـة بعض قـواد القـفجـاق. ويلاحظ أن دولة المجر كـانت دولة صـغـيـرة مـحـدودة الإمكانيـات، ولكن ملكها على ما يبدو اعـتـمد علي قـوة العناصر التي فرت من أمام الغـزو المغـولي، لذلك دعا إلى اجتماع كبير في مدينة بودا Buda وهي الجزء الغربي لمدينة بودابست الحـاليـة الواقـعـة على نهر الدانوب، وقد حضر هذا الاجتـمـاع كبار رجال الدين والنبلاء والقادة العـسكريون. وفي هذا الاجتـمـاع لم يتـمكن الملك بيـلا من السـيطرة على الموقف. فـقـد كـان للنبـلاء بعض المطالب مـثل الامـتيـازات التي كـانت ممنوحة لهم من قـبل، وطرد عناصر القفجان التي اعتبروها السبب الرئيسي لغزو المغول لبلادهم. ولم يتنازل الملك عن بعض الامـتـيـازات للنبلاء، ولكن أرضاهم وقبض على بعض قـواد القـفـجـاق. ولكن هذا التـصـرف جاء بنتـيـجة عـكسـيـة، إذ ثارت عناصـر القـفـجـاق وعاثت في الأرض فساداً، وبذلك أصبحوا مصدر ازعاج بدلاً من مساعدة الملك في محنته أمام الغزو المغولي.

دبت الفوضى في المملكة المجرية الأمر الذي سهل أمر القوات المغولية التي تـقـدمت عـبـر ممرات جبـال الكربات، وعندمـا عـلم الملك بيـلا بذلك أرسل أسـرتـه وثروته إلى دوق النمـسـا Austria وطلب منه النجدة، كـمـا أرسل أيضـاً إلى بقيـة المـالك الأوربية يطلب العون منهم. وكانت معركة غير متكافئة على الأطلاق خاصة أن القيادة المغولية نجحت في ضم جزء كبير من عناصر القـفـجـاق إلى قـواتهـا. وبالقرب من جسر مدينة موهي Mohi الواقـعـة على نهر سايو Sajc - أحـد فـروع نهـر الدانوب - دارت

مذبحة مروعة في الحادي عشر من أبريل ١٢٤١م في صفوف القوات المجرية، ولما شعر الملك بيلا بعدم جدوى المقاومة هرب من أرض المعركة، فتقدم المغول إلى بلاد المجر دون مقاومة تذكر.

وتتبعت القوات المغولية الملك بيلا داخل اقليم كرواتيا حتى وصلت إلى سواحل اقليم دلماشيا على البحر الادرياتيكي حتى وصلت إلى مدينة كاتارو Cattaro الواقعة بين مدينتي راجوزه Ragues ودرازو Duazzo. ولعدم وجود قوات بحرية لدى القوات المغولية لم يكن بوسعها أن تتعامل مع هذه المنطقة، يضاف إلى ذلك أنه في أوائل عام ١٢٤٢م وصلت إلى الخان باطو الرسل تخبره بموت الخان أوكتياي في العاصمة الأم قراقورم في الحادي عشر من ديسمبر عام ١٢٤١م بعد مرض لازمه لبعض الوقت، وبعد أن حكم خاناً أعظم حوالي سبع سنوات، فعاد باطو بعد أن خلف وراءه الحاميات العسكرية في روسيا.

كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨م

كان أوكيتاى قد جعل العرش من بعده لإبنه الثالث كوشو Kuchu ولكنه قتل في عام ١٢٣٦م في صراعه ضد أسره سونج بالصين، فجعل أوكيتاى ولاية العهد لحفيده شريمون بن كوشو، ولكنه كان صغيراً قليل الخبرة، فلما توفى أوكيتاى تولت الوصاية على العرش أرملته توراكينه Toragina، وحرصت على أن يكون إبنها كيوك Guyuk خانًا أعظم للمغول، ولما كان كيوك يحارب في شرق أوروبا مع باطو، قامت الارملة بإدارة شئون البلاد وحرصت على إطالة مدة الوصاية حتى تمهد لتنصيب كيوك خانًا أعظم، وظلت وصايتها من ١٢٤٢ - ١٢٤٦م تخلصت خلالها من العديد من مستشارى أوكيتاى .

وخلال فترة الوصاية غزا المغول أراضي آسيا الصغرى، وقد بدا ذلك أواخر عهد السلطان كيقباذ الأول، ولكن الخطر تأجل لبعض الوقت بسبب

بعض المشاكل الداخلية عند المغول وهي الفترة التى أعقبت وفاة الخان الأعظم أوكيتاى. وقد ظهر هذا الخطر بصوزة فعلية عندما غزا بياجو Baichu بلاد سلاجقة الروم في أواخر عام ١٢٤٢م، واستولى على مدينة أرزن الروم، وكانت الهجمة الكبرى للمغول في يونيه من العام التالى عندما نجحت القوات المغولية بقيادة بياجو في إنزال هزيمة ساحقة بقوات سلطان سلاجقة الروم كيخسرو في معركة كوس داغ بالقرب من مدينة أرزنجان Erzinjan ، وأعقبت ذلك إستيلاء المغول أيضًا على مدينة سيواس ونهبها، ثم مدينة قيصرية التي نالت نفس المصير، وقد فرض المغول على هاتين المدينتين جزية سنوية قدرها أربعمائه ألف دينار.

وعند هذه المرحلة هرب السلطان كيخسرو الى الغرب حتى قارب الحدود البيرنطية، ولكن وزيره تصرف تصرفًا معقولاً، فقد توجه إلى العسكر المغولي وبعد التفاوض نجح في عقد معاهدة مع بياجو تقضى ببقاء دولة سلاجقة الروم مع دفع الجزية وارسال الامدادات التي تطلب منها.

وفي صيف عام ١٢٤٦م إنعقد القوريلتاى، وحضر الاجتماع جميع الأمراء المغول عدا باطو الذي لم يحضر لمرضه، ، أو لعله علم بما تخطط له الأرملة توراكينه، كما حضر هذا الاجتماع عدد كبير من حكام الأقاليم والملوك التابعين للخان، ويمدنا رشيد الدين الهمذاني ببعض الشخصيات الأخرى التي حضرت الإجتماع ومنهم مسعود من التركستان وفي رفقته عظماء تلك الديار، ومن خراسان الأمير أرغون، في صحبته الأمراء والوجهاء في هذا الاقليم ،ومن العراق وازربيجان، ومن سلاجقة الروم السلطان ركن الدين، ومن جورجيا (مملكة الكرج) المطالبان بعرش المملكة وهما داود نارين، وداود لاجا، ومن حلب أخو أميرها ومن الموصل بدر الدين لؤلؤ، ومن دار الخلافة ببغداد قاضى القضاة، ومن أرمينيا حضر سمباد أخو الملك هيتوم، كما حضر رسل من فارس وكرمان وغيرهم ، وقد

حضر كل هؤلاء بأحمال كثيرة وهدايا تليق بمثل تلك الحضرة، وقد أعد لهذا الاجتماع حوالى ألفي سرادق،ولكثرة الخلق لم يبق موضع للنزول في المنطقة المحيطة بالمعسكر.

وفي هذا الاجتماع تحدث الامراء في موضوع تعيين الخان الأعظم، ولما كانت الارملة توراكينه تميل إلى تنصيب إبنها كيوك، وأن شريمون لازال قاصراً، فالمصلحة تقضى بأن ينصب كيوك خانًا أعظم، ولكن كيوك رفض أن يتقلد هذا المصب وطلب من الامراء ترشيح أمير آخر. واعتذر بإعتلال صحته، ولكن الأمراء أصروا على أن يتولى كيوك منصب الخانية، فقال لهم «إني أقبل هذا المنصب، بشرط أن تبقى الخانية في ذريتي» فوافق الجميع.

ويهمنا عند هذه المرحلة أن نتوقف قليلاً لإلقاء الضوء على موقف حكام العالم الأوروبي من الغزو المغولي الذي وصل إلى بولندا وهنغاريا وشبه جزيرة البلقان حتى سواحل البحر الأدرياتيكي، ويهمنا أيضًا أن نذكر أن كل غزوات المغول كانت برية وليس فيها معركة بحرية واحدة. وأن المغول إجتاحوا أوربا الشرقية في فصل الشتاء، وهو من أصعب الفصول على الحياة حيث الثلوج. ويكفى على هذه الصفحات أن نذكر أنه كان على العالم الأوروبي أن يتدبر أمره بعد كل هذه الفتوحات ، لأن حكام الغرب الأوروبي كانوا على علم بكل هذه الاحداث ،كما أن طائفة الحشيشية التي اتخذت من قلعة ألموت في جبال فارس مقراً لها قد إنزعجت من تحركات المغول بعد تدمير الدولة الخوارزمية، وبادرت بإرسال الرسل إلى حكام أوربا تحذرهم من هذا الخطر الجارف.

والواقع أن البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤٠م) قام من جانبه بالدعوة إلى عقد تحالف بين دول أوربا لمواجهة هذا الخطر، ولكن الدعوة شيء والتنفيذ شيء آخر. فقد كان الامبراطور الألماني فريدريك

الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) مشغولاً بصراعة مع البابا على ممتلكات المانيا في ايطاليا، وإكتفى بأن طلب من إبنه كونراد وضع الجيش الألماني موضع الاستعداد للحرب، وطلب أيضًا من ملكى إنجلترا وفرنسا أن يستعدوا بقواتهم لهذا الغرض، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وتوقف حشد القوات العسكرية بعدما علم هؤلاء الحكام بانسحاب المغول الى الشرق لوفاة الخان الأعظم أوكيتاى، وبدأ الغرب الأوروبي يعود إلى أوهامه ويتذكر أسطورة الكاهن يوحنا وما سيأتي على يديه من خلاص والتحالف مع الغرب الاوروبي والقضاء على المسلمين. وفي الوقت نفسه إنشغل الغرب الأوروبي باعداد حملة صليبية تولى أمرها الملك الفرنسي لويس التاسع Louis ix ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م لاستعادة بيت المقدس بعد ما إستردها المسلمون في عام ١٢٤٤م .

مونكو ١٢٥١ - ١٢٦٠م

لما توفى كيوك تطرق الخلل مرة أخرى إلى شئون المملكة، وقامت زوجته أوغول قاميش بتدبير مصالح البلاد مع كبار الأمراء حتى يتم تنصيب الخان الجديد. وكان الأمير باطو بن جورجي بن جنكيزخان يشغل منصب خان القبيلة الزرقاء في جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق مريضًا - مصابًا في قدمه - فأرسل الرسل الى كبار الأمراء للحضور إليه، وكان باطو يرى أن يتولى منصب الخانيه من يكون جديراً به وصالحًا له. وقد رفض ابناء أوكيتاى وكيوك الذهاب إلى مقر باطو وقالوا «إن أونان وكلوران هما الموطن الأصلي وحاضره جنكيزخان، ولسنا ملزمين بأن نخطو خطوة إلى دشت القفجاق» ولكنهم أرسلوا رسلاً عنهم وقالوا «إن باطو هو الأخ الاكبر لكافة الأمراء، وأمره نافذ على الجميع، واننا لن نحيد بأى وجه عما يراه صوابًا» .

وفي هذا الاجتماع إتفق الجميع على أن مونكو هو الجدير واللائق

للملك، وأن بإمكانه أن يضبط الممالك والجيوش بفكر ثابت ورأى صائب، وقد تم تنصيب مونكو طبقًا لتقاليد المغول، فقد حل جميع الأمراء والأنجال وأمراء الجيش أحزمتهم ورفعوا قلانسهم، وجثوا على ركبهم، ثم أخذ باطو الكأس ، ثم بايع جميع الحاضرين مونكو، وكان عليه أن يتجه إلى كلوران لتولى مهام منصبه. وقد صادف مونكو بعض العقبات من بعض الأمراء والوصية على العرش أرملة كيوك، ولكن الأمور استقامت بعد سنتين وتسلم مونكو مهام عمله، بعد أن هدد باطو بالاطاحة برأس كل من يخالف أحكام الياسا. وقد وجه مونكو عنايته إلى ضبط شئون المملكة وترتيبها، ونعمت الدولة في عهده بالعدل والسلام. وقد وجه كل إهتمامه برعاية المطيعين وقهر المتمردين، والترفيه عن الرعايا وتوفير أنواع المؤن لهم، وإختار الجد على الهزل، وترك إدمان الشراب، وفي بداية حكمه بادر بإرسال الجنود إلى أقاصى الشرق والغرب لضبط أحوال البلاد.

كما أصدر مونكو مرسومًا بشأن تخفيض الضرائب عن الرعايا، ويرجع ذلك إلى بعض الامراء والخواقين قد منحوا لبعض الناس إعفاءات ضريبية بغير حساب، فأمر بألا يكتب الأمراء بعد ذلك منشورات عن أمور تتعلق بالمصالح العليا للولايات دون إستطلاع رأى نواب الخان الاعظم، وألا يصدروا أوامر لأي شخص ، وألا يستعمل كبار الرسل أكثر من أربعة عشر جواداً عندما ينتقلوا من دار البريد إلى دار أخرى، وألا يغتصبوا دواب الناس في الطريق، ورتب مونكو أيضًا إنتقال التجار على الدواب، فقد كان من المتبع أن التجار كانوا يسافرون إلى ولاية منغوليا على الخيول التي تملكها الدولة، ورأى أن التجار ينتقلون لكسب الأموال، وليس هناك من معنى لركوبهم خيول الدولة، وأمر بأن ينتقل هؤلاء

التجار على دوابهم الخاصة، وأمر أيضًا بألا يذهب الرسل إلى أية مدينة أو قرية ليست لهم مصلحة فيها، وألا يأخذوا من العلف أكثر من المقرر.

ورفع مونكو الظلم عن الرعية، لأن الدهاقين (رؤساء القرى) قد ضاقوا ذرعًا بسبب كثرة المطالب، وأداء الضرائب لدرجة أن محصولهم لم يعد يفي بنصف ما يطلب منهم، وطالب مونكو بأن على التجار وأصحاب الأعمال أن يسلكوا مع أتباعهم طريق المسامحة والمساواة، وأن يؤدي ، كل شخص على قدر استطاعته وقدرته، كل ما عليه من ضرائب دون مماطلة أو اعتذار، وأعفى مونكو من الضرائب طائفة السادات والكرام والمشايخ الكباو والأئمة الاخيار من المسلمين، وكذلك كبار القساوسة والرهبان النصارى، واللامات البوذيين، كما أعفى كبار السن والعاجزين عن الكسب.

والحقيقة أن الاحوال الداخلية للبلاد في عهد مونكو تضيق بها هذه الصفحات، وقد نكتفي هنا بالقول أنه خص المسلمين بمزيد من الإكرام والإحترام، وميزهم على جميع الطوائف والمذاهب، وأمر لهم بالصلات والصدقات ، ومصداق ذلك أنه في عيد الفطر لعام ٦٥٠ هـ /١٢٥٢هـ حضر إلي معسكر المغول القاضي جلال الدين محمود وطائفة من المسلمين، فخطب في الناس وأمهم، ووشح الخطبة بذكر ألقاب الخليفة ودعا للخان الأعظم مونكو، فأمر لهم بالمنح على سبيل التشريف وأعطاهم عربات محملة بأكياس النقد من الذهب والفضة والملابس القيمة، وقد ذاع أمر مونكو في أطراف البلاد ،وصار الترك من قريب ومن بعيد يلجأون اليه برغبة صادقة، وكان الملوك الذين دخلوا في طاعته،يرسلون إليه التحف والهدايا .

أما العمليات العسكرية في عهد مونكو فهي كثيرة ومتعددة،

وسوف نركز في هذه الصفحات على الجوانب التي تهم العالم الإسلامي والمسيحي، ومن ذلك أن الخان الأعظم أرسل أخاه الأصغر هولاكو Hula-gu إلى المنطقة الغربية في الامبراطورية، وقد قاد هولاكو جيشًا كبيراً إلى تلك النواحي. والمعروف أن هولاكو فاق كل أمراء المغول في العلم. وكان شاماني العقيدة مثل المغول، كما كان يميل إلى الشر وليس لديه نزعة إنسانية، وكانت زوجته طقز خاتون أميرة من قبيلة الكرايث مسيحية نسطورية، كرهت الاسلام والمسلمين وحرصت على مساعدة المسيحيين ، وكان الهدف الأول من هذه الحملة هو الاستيلاء على قلعة ألموت مقر طائفة الحشيشية في فارس، لأنهم تمردوا على المغول وإغتالوا جغتاي Jagitai ثاني إبناء جنكيزخان، أما الهدف الثاني فكان بغداد عاصمة الخلافة العباسية، والثالث دمشق مركز البيت الأيوبي في بلاد الشام.

والحقيقة أن الإستعداد لهذه الحملة بدأ في عام ١٢٥٣م ،فقد تم إرسال جيش كبير لتمهيد الطريق وعلى رأسه كتبغا النسطوري الذي كان ينتمى إلى قبيلة النايمان، وفي عام ١٢٥٦م كان تحرك هولاكو بقواته بعد أن إنضم إليه الكثير من الأمراء المغول من كل حد وصوب. واشترك في الحملة نحو ألف من الرماة الصينين البارعين في قذف السهام التي تحمل المشاعل .

ولما علم الحشيشية بتقدم المغول حاولوا بالطرق السلمية دفع هذا الخطر، ولكن كل هذا لم يجد، فقد إتجه هولاكو بجيشه حتى وصل إلى قلعة ألموت وشدد الحصار عليها واضطر زعيم الحشيشية ركن الدين خورشاه إلى الذهاب لخيمة هولاكو واعلن الخضوع والاستسلام. فأرسله هولاكو إلى الخان الاعظم مونكو ليرى فيه ما يراه، ولكنه رفض مقابلته

فعاد ركن الدين، ولكن لقى مصرعه أثناء عودته. وتمكن هولاكو من الاستيلاء على قلعة ألموت وغيرها من القلاع، وقتل الألوف من الحشيشية، وقبل أن ينتهي عام ١٢٥٧م لم يكن هناك إلا عدداً قليلاً منهم في جبال فارس، وعندما علم الحشيشية في بلاد الشام بما حدث لإخوانهم في فارس أحسوا بدنو أجلهم.

ومن طريف ما يروى حول سقوط قلعة ألموت أنه كان بها مكتبة ضخمة تحتوى على العديد من الكتب النفيسة، وقد طلب هولاكو من حاجبه المسلم عطا الملك الجويني أن يفحص المكتبة، فأخرج المصاحف والكتب التاريخية والعلمية وأحرق الباقي، ولكن صاعقة نزلت على المكان فأحرقت ما تبقى من كتب، ولم ينقذ إلا القليل .

بعد أن إنتهى هولاكو من تدمير قلاع الحشيشية في بلاد فارس، تحركت القوات المغولية لتنفيذ الهدف الثاني من أهداف الحملة وهو مهاجمة بغداد، وكان على رأس الخلافة العباسية في تلك المرحلة الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ/١٢٤٢ - ١٢٥٨م) الذي أصبح آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وكان يأمل في أن يعيد مجد الخلافة مرة أخرى، ولكنه كان رجلاً ضعيف الشخصية، وجعل كل إهتمامه إشباع غرائزه، يضاف إلى ذلك الصراع المذهبي الذي دار داخل البلاط بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي، وبين كاتب الخليفة السني أيبك.

وواقع الحال أن الجيش العباسي أو جيش الخلافة أصبح ضعيفًا بعد أن خفض الخلفاء أعداده حتى وصلت إلى عشرين ألفًا بدلاً من مائة ألف فارس لعدم الوثوق في قادته، وظل الاعتماد على المقاومة محصوراً في حصانه مدينة بغداد، وعلى ما يمكن أن يأتي من مساعدة من البيت الأيوبي في مصر والشام، وهذا أمر مشكوك فيه لإنشغال القوات

الأيوبية بالصراع مع الصليبيين، وعلى امكانية التفاوض مع المغول ودفع الأموال لتجنب مهاجمة بغداد.

أما القوات المغولية فرغم إستعداداتها وكثرة عددها، فقد وصلت إليها قوات إضافية من مقاتلى القبيلة الذهبية، وبعض القوات المغولية الأخرى من بلاد الأناضول بقيادة الأمير بياجو، وبعض العناصر الجورجية المسيحية الذين كانوا متلهفين على مهاجمة حاضرة الاسلام والمسلمين ومقر الخلافة العباسية وهي مدينة بغداد.

وقد ساعدت الفتن الداخلية في بغداد على تقدم الجيش المغولي، فقد كان يسكن المدينة عناصر مختلفة الأديان والطوائف، وحدث في تلك المرحلة الحرجة إندلاع الفتن بين السنة والشيعة في ضاحية الكرخ، وقد ساند ابن العلقمي وزير الخليفة طائفة الشيعة، فتدخل أبو بكر بن الخليفة وولى عهده وأمر بنهب ضاحية الكرخ، وزاد الأمر حتى أن العسكر إعتدت على النساء. ويقول المؤرخ أبو الفدا «ان ذلك عظم على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد»، وهذا يدل على فساد الحكم وشدة الانقسام داخل الخلافة العباسية. وبدأت الأعمال العسكرية للقوات المغولية عندما تحركت في نهاية عام ١٢٥٧م من مدينة همذان التي تبعد عن بغداد إلى المشرق حوالى ستمائه كيلومتر. وإنقسم الجيش المغولي إلى ثلاثة أقسام سارت في ثلاثة محاور، الأول وتولى أمره الأمير بياجو وإتجه إلى الموصل وعبر نهر دجلة وسار إلى جانب الشاطىء الغربي للنهر في الطريق إلى بغداد التي تبعد عن [illegible]صل حوالى ثلاثمائة وثمانين كيلومتر، والمحور الثاني وعلى رأسه [illegible]غا واتجه إلى سهل العراق الواقع شرق بغداد، والثالث وهو الرئيسي [illegible]ة هولاكو وكانت وجهته بغداد مباشرة.

وحاول الكاتب أيبك أن يتصدى للقوات المغولية القادمة من الموصل، ولكن القوات المغولية أوقعته وقواته في كمين لاذ بعدها بالفرار في الطريق إلى بغداد، وحوالي ذلك الوقت خرج ابن العلقمي إلى هولاكو، فأخذ الأمان لنفسه، ولكنه مالبث أن عاد ومعه شروط هولاكو بالاستسلام، وموجز هذه الشروط أن يبقى المستعصم خليفة على البلاد، وأن يتزوج أبو بكر ابن الخليفة من إبنه هولاكو، وقد طلب ابن العلقمي من الخليفة الخروج لمقابلة هولاكو وقد زين له هذا العمل، ويقول أبو الفدا «فخرج إليه المستعصم في جمع من إكابر أصحابه، فانزل في خيمة، ثم إستدعى ابن العلقمي الفقهاء فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وغيرهم، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن أخرهم». وعند هذه المرحلة عبرت القوات المغولية إلى بغداد على جسر أقاموه على نهر دجلة وأنزلوا القتل في بغداد، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف، ولم يسلم إلا صغار السن الذين أخذوا أسرى، ودام القتل والنهب في بغداد أربعين يومًا. وقد أسفر ذلك عن قتل حوالى ثمانين ألف من أهل المدينة. أما الجالية المسيحية فقد لجأت إلى الكنائس، وتدخلت طقز خاتون المسيحية زوجة هولاكو لحمايتهم فلم تتعرض القوات المغولية لهم بسوء. وكان هولاكو قد أبقى على حياة الخليفة حتى دخل بغداد وبعد أن دله على الأماكن التي وضع فيها ثروته وكنوزه. وقد إضطرت القوات المغولية إلى الانسحاب من المدينة بعد أن فاحت رائحة الجثث، وذلك في نهاية مارس ١٢٥٨م.

وصار بحوزه هولاكو عند إنسحابه من المدينة ثروات الخلفاء التي كدسوها منذ قيام الخلافة في بغداد، وقبل أن يغادر هولاكو المدينة عين عليها واليًا هو ابن العلقمي، كما أغدق الأموال على البطريك النسطوري ماكيكا Makika وخصص له أحد قصور الخلافة لتكون مقرًا له وكنيسة.

كان لسقوط بغداد نتائج متعددة على الشرق والغرب على السواء، فقد إرتاع العالم الاسلامي وبات يخشى العاقبة، أما المسيحيون فقد إبتهجوا وإعتبروا سقوط بغداد هو سقوط بابل الثانية، وأن هولاكو وزوجته طقز خاتون هما الإمبراطورة قسطنطين وأمه هيلينا. وأن أسطورة الكاهن يوحنا أصبحت حقيقة ينقصها تحالف المغول مع المسيحيين للقضاء على المسلمين في بلاد الشام لإستعادة بيت المقدس.

وبعد سقوط بغداد أقام هولاكو معسكره في مراغه حيث إستقبل بعض سفراء الدول إما للتأييد أو الإعتذار، ثم استعد بعد ذلك لتحقيق الهدف الثالث و هو الهجوم على دمشق، ولم يبدأ هولاكو بمهاجمة دمشق مباشرة بل قام ببعض العمليات العسكرية في بلاد الشام خاصة في الشمال إستمرت حوالى عام قبل أن يتوجه إلى هدفه الثالث والأخير دمشق.

وبدأت العمليات العسكرية في إقليم الجزيرة ضد مدينة ميافارقين لأن حاكمها الكامل الثاني نصر الدين (١٢٤٤ - ١٢٦٠م) كان قد صلب مبعوث هولاكو ورفض قبول السيادة المغولية. وقد سقطت المدينة في أوائل عام ١٢٦٠م، بفضل المساعدات التي قدمها الأرمن والكرجيون، ودارت مذبحة في المدينة قتل فيها كل المسلمين، أما المسيحيون فقد تم الابقاء على حياتهم. وتم القبض على الكامل الثاني وعذب حتى الموت، وقد حملت رأسه على رمح وطيف بها في البلاد مثل حلب وحماه دمشق، ولعل هذا التصرف أثار الرعب في نفوس أهل الشام ، مما كان أبلغ الأثر على الحالة النفسية للأهالي والقوات الاسلامية.

انت المرحلة الثانية من العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام دن نصيبين وحران والرها والأراضي الواقعة في تلك النواحي مثل

البيرة وسروج حتى وصلت القوات المغولية بقيادة هولاكو إلى مدينة حلب، حيث تم إلقاء الحصار عليها بعد أن رفضت الإستسلام، وقد قاومت المدينة لمدة ستة أيام حتى إنهارت أسوارها أمام ضربات المغول فدخلتها القوات المغولية وحل بها ما حل بالمدن الأخرى من ذبح المسلمين والإبقاء على المسيحيين ،ورغم هذا كله فقد ظلت قلعة المدينة تقاوم لمدة شهر حتى سقطت، وقد إحترم هولاكو الأمير الأيوبي تورانشاه بن صلاح الدين لكبر سنه وبسالته. وقد استولى هولاكو على ثروة المدينة وعين عليها الأمير الأيوبي الأشرف حاكم حمص (١٢٤٦ - ١٢٦٢م) الذي زار المعسكر المغولي قبل عدة أشهر من هذه الأحداث، واعتبر الأشرف من أتباع المغول بعد أن أعطاه هولاكو الدستور (الأمر) على حد قول أبو الفدا.

وبعد مدينة حلب إتجه هولاكو إلى الممتلكات الاسلامية في ضواحي أنطاكية خاصة أن أميرها بوهمند السادس Bohemond VI (١٢٥١ - ١٢٦٨م) كان قد دخل في طاعة المغول، وكانت مدينة حارم وقلعتها في الطريق إلى أنطاكية، وقد رفضت الاستسلام فوقع بها ما وقع بحلب، وفي تلك المرحلة تقدم بوهمند وهيثوم الأول ملك أرمينية (١٢٢٦ - ١٢٦٩م) إلى معسكر هولاكو بإعتبارهما حلفاء له لتقديم فروض الولاء والطاعة، وقد كافأهما هولاكو ببعض العطايا، كما طلب من سلطان سلاجقة الروم إعادة الأراضي التي كانت في حوزة الأرمن من قبل ، كما أعاد إلى بوهمند بعض المدن والحصون التي إستولى عليها المسلمون أيام صلاح الدين، وطلب هولاكو من بوهمند أن يعين البطريك الأرثوذركسي يوثيميوسEuthymiusعلى الكنيسة الأرثوذوكسية في أنطاكية وكان في ذلك إرضاء للامبراطورية البيرنطية التي كانت على علاقة طيبة بالمغول،

وقد ظل يوثيموس في منصبه حتى عام ١٢٧٤م، وليس معنى ذلك إلغاء منصب البطريك الكاثوليكي فقد كان المنصبان موجودان في أنطاكية، ولكن هناك فرق بين بطريك يعين وبطريك منتخب.

وكانت وجهة هولاكو بعد ذلك مدينة دمشق ، ولما علم الناصر صلاح الدين يوسف سلطان دمشق بما فعله المغول بحلب رحل عن المدينة بما بقى معه من العساكر إلى جهة الديار المصرية، ولم يحاول الدفاع عن المدينة، وأقام لبعض الوقت في مدينة نابلس، ثم إتجه إلى غزة، وبلغه أن المغول هاجموا نابلس، فرحل إلى العريش وأرسل إلى سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠م) يطلب منه المساعدة، أما دمشق فقد دخلها المغول بقيادة كتبغا بالأمان، ولم تتعرض الأهالى إلى القتل والنهب. ولكن قلعة المدينة رفضت التسليم وقاومت عدة أسابيع فأقام المغول عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان في جمادى الأولى عام ٦٥٨هـ/ أبريل ١٢٦٠م، ورغم ذلك نهب المغول جميع ما فيها وهدموا القلعة وأسوارها وما بها من أدوات القتال.

وهكذا حققت حملة هولاكو أهدافها بنجاح، وهي تدمير قلاع الحشيسية وأسقاط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية، ودمشق عاصمة الايوبيين في الشام، يضاف إلى ذلك أن هولاكو ضمن ولاء سلطنه سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ودولة الأرمن في قيليقية، والصليبيين في أنطاكية، أما بقية الامارات الصليبية فلم يكن في نية لمغول مهاجمتها طالما أظهروا الطاعة لهم، وقد إلتزم الجميع بذلك عدا جوليان Julian حاكم مدينة صيدا والشقيف Beaufort وزوج يوفيما Eu- phemia إبنة الملك الأرميني هيثوم. وقد قام جوليان بالإعتداء على إضي البقاع الأمر الذي أقلق المغول، وأرسلوا إليه بعض القوات

المغولية بقيادة إبن أخت كتبغا، ولكن جوليان كمن لهذه القوات ودارت معركة قتل فيها القائد المغولي، وهنا أرسل كتبغا جانبًا كبيراً من جيشه خرب مدينة صيدا، عدا القلعة التي انقذتها بعض السفن الجنيوية التي أتت من صور، وترتب على ذلك عزل جوليان من حكم المدينة. وإلى جانب جوليان، تمرد يوحنا الثاني إبلين John II of Ibelin حاكم بيروت عندما إعتدى على إقليم الجليل بمساعدة الداوية، وقد أرسلت قوة مغولية لردعه، وكان لتصرف المغول هذا أثره السيء في تصرفات الصليبين ضد المغول في المرحلة المقبلة.

أما النتائج العامة لغزوات المغول في فارس والعراق والشام فكانت سيئة جداً على العالم الاسلامي وتوقعوا نهاية أجل الدول الاسلامية بعدما أحسوا أنهم في بلاد الشام بخاصة أقلية مغلوبة على أمرها، على العكس من الدول المسيحية والصليبية التي استبشرت خيراً بقدوم المغول، ولكن هذا الإحساس والتفاؤل شيء والواقع شيء آخر. فقد كان هناك مصر التي حملت لواء الدفاع عن العالم الاسلامي ومقدساته.

قوبيلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤م

توقفت العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام عندما وصلت الأخبار بوفاة الخان الأعظم مونكو، وكان له ثلاثة أخوة هم قوبيلاي Ku-bilai وهولاكو، وأريق بوقا Arigboga ، وكان له أبناء صغار قليلوا الخبرة. وأشارت الدلائل إلى ترشيح قوبيلاى لمنصب الخان الأعظم، وكان قوبيلاي أثناء ذلك يقود حملة عسكرية ضد بلاد الصين فساندته القوات المغولية المرافقة له في حملته، فبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة كلوران لتولي منصبه بحكم أنه الأخ الأكبر للخان الراحل. ولكن الأخ الاصغر وهو أريق بوقا كان في العاصمة وسيطر على أموال الإمبراطورية وطالب بالعرش.

وإنقسمت الأسرة الحاكمة إلى قسمين أحدهما يساند قوبيلاي والاخر يساند أريق بوقا، واختار كل فريق من يسانده لتولى عرش الخانيه، وظلت المناورات حتى أواخر عام ١٢٦١م حتى إنتهى الأمر بإختيار قوبيلاي في منصب الخانية، ولكن أريق بوقا ظل يعارض أخاه لفترة، وقع خلالها بعض الاحتكاك بين الفصائل المغولية حتى إنتهى الأمر بوفاة أريق بوقا عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥ - ١٢٦٦م) .وبعد أن إستراح خاطر قوبيلاي من فتنة أريق بوقا دخل جميع الأمراء في طاعته عدا قلة، وفي النهاية خضع الجميع واستكانوا.

وكان على هولاكو خلال هذه الأحداث أن يسحب بعض قواته ويتراجع ليراقب الأحداث ، فترك كتبغا مع بعض القوات المغولية في بلاد الشام، ولم يكن في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي من قوة تستطيع أن تواجه المغول سوى مصر وبها دولة المماليك التي تولت السلطنة في مصر، وكان عليها أن تحمل راية الجهاد لإثبات وجودها وقوتها في المنطقة، وحتى تكون جديرة بحكم مصر، وما تتطلع إليه من ميراث البيت الأيوبي في بلاد الشام.

معركة عين جالوت ١٢٦٠م :

كان بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك السفارة المغولية التي أرسلها هولاكو الى مصر في أوائل عام ١٢٦٠م/٦٥٨هـ ، تطلب من السلطان قطز الخضوع للسيادة المغولية، ولكن قطز أمر بقتل الرسل، ومعنى ذلك أن الحرب قائمة لا محالة بين الطرفين، وعلى ذلك إستعد قطز للقتال فحشد قواته وإنضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية، وعساكر المغيث عمر الأمير الأيوبي حاكم إمارة الكرك حتى أصبحت القوات الاسلامية تفوق أعداد القوات المغولية، واجتاز قطز وقواته الحدود المصرية في نهاية

يوليـو ١٢٦٠م وتولى بيبرس قيادة المقدمة وتمكن من الانتصار على القوات القليلة للمغول التي كانت مرابطة في غزة، وعلى أثر هذه الهزيمة أرسل القائد المغولي في غزة وهو بايدار Baidar إلى بعلبك حيث كان كتبغا يخبره بالوقائع.

إستعد كتبغا وما معه من قوات للتقدم من بعلبك إلى غزة، ولكنه إضطر لترك جانب من قواته لتتوجه إلى دمشق لقمع ثورة قام بها المسلمون داخل المدينة، وترجع أسباب هذه الثورة إلى أن المغول أخرجوا نقيب قلعة دمشق وواليها من الإعتقال وضربوا أعناقهما، ولما كان أهل دمشق قد علموا بخروج العساكر من مصر لقتال المغول فإعتدوا على المسيحيين الذين إستطالوا على المسلمين، بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع، ونهبوهم، وخربوا كنيسة السيدة العذراء.

وخلال هذه الفترة تقدم قطز إلى الشمال بحذاء الساحل وأرسل سفارة إلى حكام مملكة بيت المقدس الإسمية في عكا تطلب من الصليبين إقامة تحالف إسلامي صليبي ضد المغول، والسماح للقوات الإسلامية بالمرور عبر الأراضي الصليبية، والحصول على المؤن اللازمة للجيش. وعقد بارونات المملكة مجلسًا للتشاور، وكان تقييم الموقف عند هؤلاء البارونات، أن سجل المغول حافل بالمذابح وإن المغول تعاطفوا مع المسيحين المحليين، ولم يتعاطفوا مع الصليبيين، وانهم إعتدوا على مدينة صيدا منذ قليل، وأن التعامل مع المسلمين رغم الحروب الدائمة أفضل بكثير من التعامل مع المغول، وإنتهى قرار البارونات إلى استبعاد فكرة التحالف العسكري مع المسلمين، والإكتفاء بالسماح بمرور القوات الاسلامية عبر الأراضى الصليبية، وتمويل القوات بما يلزم من المؤن ،و على إثر هذه الاتفاقية تقدم قطز وقواته إلى الشمال حتى وصل إلى مدينة عكا وعسكر في البساتين الواقعة خارج المدينة لعدة أيام.

وفي الوقت نفسه كان كتبغا قد رتب ما لديه من قوات، وكان مع قوات المغول قوات كرجية وأرمينية، وكان أيضًا في معية كتبغا من البيت الأيوبي الملك السعيد، والملك الاشرف موسى ، ولكنها كانت أقل عدداً من القوات الاسلامية.

وعلى أية حال تقدم كتبغا من بعلبك حتى وصل الناصرة، ثم إلى عين جالوت التي وصلها في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ/ الثاني من سبتمبر ١٢٦٠م، وفي هذا المكان حيث كان كتبغا لا يدرى بما يدور حوله، ولم يكن هناك من السكان المحليين من يساعده، كان قطز قد خطط للمعركة، وكانت خطة قطز تقضى بأن تختبأ القوات الرئيسية في التلال، ولا يظهر أمام القوات المغولية إلا قلة بقيادة الأمير بيبرس، وهنا أسرعت القوات المغولية لملاحقة القوات الاسلامية التي تظاهرت بالانسحاب، فانقضت القوات الاسلامية على القوات المغولية وهزمتها هزيمة قاسية ،وأخذتها سيوف المسلمين، وهرب من سلم من المغول إلى الجبال ولكن المسلمون تبعوهم وأفنوهم، وقد نجح البعض في الهروب إلى الشرق، أما كتبغا فقد ظل يقاتل حتى هلك فرسه، فوقع في أسر المسلمين وحمل مقيداً بالأغلال إلى السلطان فأمر بقتله، كما وقع في الأسر الملك السعيد وقد أمر السلطان أيضًا بقتله، أما الملك الأشرف فقد فارق المعسكر المغولي وطلب الأمان من السلطان فأمنه وأقره على ما بيده وهو مدينة حمص ومضافاتها، وبعد هذه المعركة تقدم قطز حتى دمشق.

والحقيقة فإن الأمر يتطلب وقفه قصيرة للنظر في الأسباب التي أدت إلى هزيمة المغول في معركة عين جالوت، وهم الدولة التي لم تهزم هزيمة واحدة في كل فتوحاتها من بلاد الصين غربًا حتى البحر الأدرياتيكي شرقًا، ومن جنوب الروسيا شمالاً حتى تركستان جنوبًا، ويمكن حصر هذه

الأسباب في عدة نقاط هي : وفاة الخان مونكو وما له من تأثير على عودة هولاكو والجزء الأكبر من جيش المغول حتى أصبح ما تبقى من قوات أقل من القوات التي كانت تحت السلطان قطز، وسبب آخر يرجع إلى مساعدة الصليبيين للقوات الاسلامية والسماح لها بالمرور في أراضيهم والالتفاف حول القوات المغولية من الشمال، وهو أمر لم يتوقعه المغول، يضاف إلى ذلك الثورة التي قامت في دمشق بسبب تصرف المغول وقتل نقيب قلعة المدينة وواليها، الأمر الذي أجبر كتبغا على ترك جانبًا من قواته لإقرار الأمن والنظام داخل المدينة، كما أن عدم تعاون الأهالي مع المغول في الاراضي التي مروا بها جعلهم لا يدرون بما يدور من حولهم حتى فاجأتهم القوات الاسلامية، هذا بالاضافة إلى جهل المغول بطبوغرافية الأراضي التي مروا بها، وأن وقت المعركة قد حدد بمعرفة قطز وليس بمعرفة المغول، وهذا أمر هام لأن المغول كما شاهدنا في المعارك السابقة كانت حروبهم تبدأ مع فصل الشتاء وتنتهي مع نهاية فصل الربيع. أما أحداث معركة عين جالوت فقد بدأت من شهر يوليو وامتدت حتى أوائل سبتمبر، وهذا وقت تشتد فيه الحرارة في بلاد الشام وتقل المياه في الأنهار والأفلاج. وأخيراً يمكن القول أن هذه المعركة كانت معركة حياة أو موت بالنسبة لدولة المماليك الناشئة التي أعلنت راية الجهاد على أعداء الاسلام.

أما النتائج التي ترتبت على هذه المعركة التي تعتبر من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ فهي كبيرة وعميقة الأثر على تاريخ العالم كله في تلك الحقبة التاريخية، فقد جعلت من دولة المماليك القوة الرئيسية في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي حتى الفتح العثماني، ولقد قوت هذه المعركة أيضًا من قوة المسلمين في آسيا كلها وأضعفت العناصر المسيحية، حتى أن المغول الذين بقوا في إيران والأقاليم الغربية

للإمبراطورية المغولية قد إعتنقوا الاسلام، كما عجلت هذه المعركة بالقضاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

كان لجنكيز خان أربعة أولاد حسب كبر السن جورجي، وجغتاى، وأوكيتاي، وطولوي، وفي أيام جنكيزخان كانت الحكومة في إقليم منغوليا، أما بعد وفاة جنكيرخان فقد تم نوع من التقسيم الإداري، فأصبح أوكيتاي خانا أعظم بالاضافة إلى اقليم منغوليا، أما جغتاي فقد اختص بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية منذ عام ١٢٢٧م وفي سلالته التي إستمرت حتى عام ١٣٧٠م، وفيما يختص بإقليم فارس فقد آل إلى هولاكو بعد موت طولوى وذلك منذ عام ١٢٥٦م.

أما جورجي فقد حكم القبيلة الذهبية وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى اللون الذهبي الذي كان لون مخيماتها، وقد حكم بعده ولدان هما باطو وعرفت سلالته باسم القبيلة الزرقاء وحكمت في جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق منذ عام ١٢٢٧م حتي ١٣٨٠م، والثاني هو أوردا الذي عرفت سلالته بإسم القبيلة البيضاء واستمرت سلالته منذ ١٢٢٦ حتى عام ١٤٨١م وحكمت في سيبريا وشرقى بلاد القفجاق.

وما يعنينا على هذه الصفحات في هذا الفصل خانات فارس، وهم فرع هولاكو وذلك لسببين، الأول هو قرب فارس إلى العالم الاسلامي العربي، وما كان لهذا الفرع من إتصالات سلمية وعسكرية مع دولة المماليك في مصر، والثاني هو محاولة أوربا التحالف مع هذا الفرع في بلاد فارس للقضاء على دولة المماليك وتمكين الصليبيين في بلاد الشام من السيطرة على منطقة الشرق الأدنى الاسلامي العربي.

مات هولاكو في مدينة أزربيجان في الثامن من فبراير عام ١٢٦٥م

بعد أن كان قوبيلاي قد منح هولاكو لقب خان في حكم إقليم فارس وعاصمته تبريز، وجعل له وسلالته الحكم وراثيًا في هذا الإقليم، وما يهمنا في هذه الدراسة أن هولاكو توقف عن مهاجمة منطقة الشرق الأدنى الإسلامي بعد معركة عين جالوت، ويرجع ذلك إلى مشاكل هولاكو بسبب الوراثة في البيت المغولي، وبسبب مشاكله أيضًا مع مغول التركستان ومغول القبيلة الذهبية الذين إعتنقوا الإسلام، ولكنه رغم هذا كان يملك من القوة العسكرية التي أخافت المماليك من مهاجمة حلفائه من الأرمن، والصليبين في أنطاكية، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى ودولة الكرج (جورجيا)، ثم الإمبراطورية البيزنطية بعدذلك، وكان هولاكو يرى أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية في غاية الأهمية، وذلك لإيجاد توازن في آسيا الصغرى بين الامبراطورية وسلطنه سلاجقة الروم، ولذلك أرسل هولاكو من عاصمته تبريز إلى الإمبراطورية يطالب بزوجة له، وقد وافق الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaologus (١٢٥٨ - ١٢٨٢م) وشرع فى ارسال إبنه غير شرعية له هي ماريا Ma-ria . وتوفى هولاكو في الثامن من فبراير عام ١٢٦٥، وجاءت وفاته في لحظة حرجة من تاريخ المغول، وكان لها أثراً كبيراً في إضعافهم، وقد نجحت زوجته طقز خاتون في الاحتفاظ بالعرش في إقليم فارس لإبنها أبغا Abaga ، وماتت بعد قليل طقزخاتون حامية المسيحية في كل الأراضي التي دخلها المغول فحزنوا عليها حزنًا شديداً، وثارت بعض القلاقل ضد أبغا من قبل بعض أمراء المغول، فلم يعد بوسعه أن يقوم بأى عمل عسكري في بلاد الشام في تلك المرحلة .

أبغا خان فارس (١٢٦٥ - ١٢٨٢م)

وإذا كان العالم المسيحي قد حزن على موت طقز خاتون، فانهم وجدوا في ماريا البيرنطية ما يعوضهم عن ذلك، فعندما وصلت ماريا إلى

البلاط المغولي في فارس كان هولاكو قد مات، ولكنها تزوجت من إبنه أبغا ، وبذلك حلت ماريا التى عرفت في البلاط المغولي بإسم ديسبينا خاتون Despina Khatun محل طقز خاتون، ووجدوا فيها حاميًا جديداً للمسيحية، وقد أجلها المسيحيون والمغول وإحترموها لما إشتهرت به من حب الخير والحكمة.

وقد شجع ذلك الغرب الأوربي وعلي رأسه البابوية ، فأرسل البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥ - ١٢٦٨م) إلى أبغا يعرض عليه عقد محالفة عسكرية لمحاربة المماليك، ولكن أبغا كان مشغولاً بحروبه مع القبيلة الذهبية، ولذلك لم يقدم سوى وعوداً غامضة، كما إنشغل بحرب أخرى بعد قليل مع ابناء عمومته آل جغتاى الذين أغاروا على أملاكه الشرقية في عام ١٢٧٠م. وفي العام نفسه وبعد أن إنتهى من مشاكله مع أبناء عمومته وهزيمتهم، فكر أبغا في التحالف مع الملك لويس التاسع وتعهد بأن يقدم المساعدات العسكرية إذا وصل لويس بحملته إلى بلاد الشام، ولكنه لويس لم يتقدم إلى بلاد الشام بل وجه حملته إلى تونس حيث مات هناك ففشل هذا المشروع، وكان لويس قد إتفق مع الامير الأنجليزي إدوارد أن يتوجها بحمله صليبية معا ، فلما مات لويس كان إدوارد موجوداً في صقلية، فأبحر إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا في التاسع من مايو ١٢٧٠م.

وما يعنينا في هذه الدراسة هو محاولة تحالف إدوارد مع المغول لقتال المسلمين. وقد أرسل الأمير الانجليزي إلى أبغا سفارة مكونه من ريجنالدرسل Reginald Russel، وجود فرى ويليس Godfery Welles ، وحنا باركر John Parker إلى الخان أبغا يطلب منه المساعدة لقتال المماليك، ولما كانت قوات أبغا مشغولة بالقتال في تركستان، فقد أرسل إليه في منتصف اكتوبر عام ١٢٧١م عشرة آلاف فارس سحبها من بلاد

الاناضول.

تقدمت القوات المغولية إلى مدينة عين تاب، ثم إلى حلب ففرت الحامية المملوكية إلى حماة، فتقدمت القوات المغولية في إثرهم حتى معرة النعمان وأفاميه، ولما أحست بقدوم القوات المملوكية عادت من حيث أتت لأنها شعرت بقلة قواتها أمام القوات المملوكية. ومن الملاحظ أن إدوارد لم يتقابل مع القوات المغولية، ولم يكن هناك أي تنسيق في العمليات العسكرية، وقد غادرت الحملة الانجليزية بلاد الشام بعدما قامت ببعض العمليات العسكرية البسيطة في ضواحي عكا، وبعد أن رتب إدوارد لعقد هدنة بين الصليبين في عكا والظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) في القاهرة ،ما لبثت أن تساقطت الممتلكات الصليبية واحدة بعد الأخرى.

وفي نهاية القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر قام المغول ببعض الغارات على بلاد الشام أحيت بها الأمل عند الغرب الأوروبي في إمكانية الاعتماد على المغول في القضاء على الدولة المملوكية، ففي عام ١٢٩٩م أغار على بلاد الشام خان فارس غازان محمود (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) الذي اعتنق الاسلام وإستبدل لقبه بلقب السلطان بدلاً من لقب خان، وقد نجح غازان في هزيمة الحاميات المملوكية، عند حمص في نهاية عام ١٢٩٩م، ثم تقدم إلى مدينة دمشق في مطلع العام التالى ١٣٠٠م، فاعترفت المدينة بسيادته، ومن دمشق هدد غازان بفتح مصر ثم غادرها إلى عاصمته في فارس.

وتقدم غازان مرة أخرى إلى بلاد الشام في عام ١٣٠٣م ولكنه هزم في مرج الصفر فعاد بعدها إلى بلاده، وهدأ تهديده لمصر لبعض الوقت، ورغم أن غازان كان قد إعتنق الاسلام إلا أنه كان يبحث عن حليف للقضاء على القوات المملوكية، ولم يكن هناك سوى دول أوربا التي سبق

لها أن توسلت كثيراً إلى خانات المغول للتحالف ضد المماليك، ولكن الخانات كانوا يطلبون الخضوع لا التحالف، وبذلك ضاعت فرصة التحالف الاوربي لضرب العالم الاسلامي.

وإنقلبت الأوضاع وبدأ المغول يبحثون عن حليف في أوربا يتعاونون معه لضرب القوة المملوكية، ولذلك أغار أولجايتو خدا بندة محمد الذي اطلق عليه أبو الفدا اسم خربندا على بلاد الشام في عام ١٣٠٨م لجذب أنظار حكام أوربا، وتوغل حتى وصل إلى مدينة بيت المقدس. وترددت الشائعات بأن أولجايتو ينوى تسليم المدينة إلى دولة مسيحية تتحالف معه، ولم يحدث أن تقدمت دولة أوروبية لعقد هذا التحالف، رغم وجود إرهاصات بقيام حملة صليبية دعا إليها البابا وملك فرنسا، وبعد سنوات قليلة مات خان فارس، فتضاءلت فرص التحالف الأوربي المغولي، وعندما تولى أبو سعيد بهادر السلطة في فارس نزع الى الوفاق مع مصر، وقد ظل أبو سعيد في السلطنة حتى عام ١٣٣٥م تفككت بعده الخانية وانقسمت إلى أسرات عديدة، ولم يعد هناك ما يهدد مصر، أو من يفكر في التحالف مع أوربا.

مغول القفجاق

سبق إن ذكرنا أن جورجي بن جنكيز خان حكم القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق، وفي عهد الخان بركه Berke بن جورجي (١٢٥٧ - ١٢٦٧م) انتشر الاسلام في بلاد القفجاق كأول قبيلة مغولية تعتنق الاسلام، وقد أدى هذا إلى ظهور العداء بين بقية القبائل المغولية وبين القفجاق، وقد ترتب على ذلك تقرب القفجاق إلى الدول الإسلامية المجاورة خاصة دولة المماليك، كما سعى أيضًا المماليك بدورهم للتقرب من خانات القفجاق خاصة أن الصراع ظل على أشده بين خانات فارس وبين المماليك في مصر. وتبودلت السفارات والرسائل بين الطرفين، ومن ذلك أن الخان بركه

أرسل في عام ١٢٦٣م سفارة إلى مصر حملت معها رسالة للسلطان بيبرس، وقد إمتلأت هذه الرسالة بالعبارات التي تفيد أن بركه متحمس للإسلام والمسلمين وأنه لا سبيل له إلا إعلاء كلمة الله. وقد أرسل بيبرس رسالة عبر فيها على انحيازه الكامل لقبيلة القفجاق وإحترامه الزائد للخان بركة،

ولم يقف بيبرس عند هذا الحد من المجاملة، بل أنه أمر بالدعاء للخان بركة - بعد الدعاء للسلطان المملوكي - على منابر البلدان الإسلامية المقدسة وهي مكة والمدينة والقدس بالاضافة إلى منابر القاهرة. واستمرت العلاقة بين الظاهر بيبرس والخان مانكو تيمور ١٢٦٧ - ١٢٨٠م بقصد توحيد الجهود لمواجهة أخطار مغول فارس، ولم تنقطع هذه الصلات بعد بيبرس، فقد أرسل الناصر محمد بن قلاوون رسالة يساند فيها غياث الدين تقتو ١٢٩٠ - ١٣١٢م، ويعلن إستعداده لمحاربة غازان خان المغول في فارس. ويبدو أن مغول فارس قد تنبهوا لهذا الترابط الذي قام بين المماليك وخانات القفجاق، لأن أولجايتو خليفة غازان رضى بالصلح مع دولة المماليك، فخفت حدة التوتر بين مغول فارس وبين المماليك وبالتالى إلى حد ما مع مغول القفجاق.

ورغم هذا إستمر الترابط بين المماليك ومغول القفجاق، وفي عهد غياث الدين محمد أزبك (١٣١٢ - ١٣٤١م) أرسل الناصر محمد بن قلاوون في عام ١٣١٦م يطلب منه الزواج من إحدى أميرات القفجاق، وقد تأخر تنفيذ ذلك لبعض الوقت حتى كانت سنة ١٣٢٠م حتى وصلت العروس إلى ميناء الاسكندرية، وكانت تدعى طولونية، ويقال دلنبية. وفي السنوات التالية وخاصة في عهد جاني بك (١٣٤١ - ١٣٥٧م) كانت العلاقات مع سلاطين المماليك قائمة على التقدير والاحترام المتبادلين. ومع انحلال خانية فارس منذ عام ١٣٣٦م زال الخطر المشترك

بين القفجاق والمماليك، ثم دخلت خانية القفجاق هي الأخرى في مرحلة من الانحلال بعد عام ١٣٥٧م ، كما إنشغل المماليك بقضايا أخرى، الأمر الذي أدى إلى إضعاف روابط الاتصال مع القفجاق .

تيمور لنك ١٣٦٩ - ١٤٠٤م

ولد في قرية خواجة إيلغار بالقرب من مدينة سمرقند في عام ١٣٣٦م، وعندما بلغ الثلاثة والثلاثين من عمره أصبح حاكما على إقليم تركستان الشرقية وإقليم ما وراء النهر، وهي المنطقة التي حكمها الخانات من فرع جغتاى بن جنكيزخان ، ومنذ تولى تيمورلنك السلطة شن حربًا واسعة على بلاد فارس ثم على بغداد، وعلى بلاد روسيا حيث توجد القبيلة الذهبية، وعلى شرق بلاد الأناضول حيث أملاك الدولة العثمانية، وفي نهاية القرن الرابع عشر ومطلع الخامس عشر الميلادي تقدم إلى بلاد الشام حيث حلب ودمشق وغيرها.

وترجع إنتصارات تيمورلنك في كل هذه الأقاليم إلى حروبه التي كانت شديدة الوطأة لا تعرف الرحمة، مما أدخل في الاذهان عصر خانات المغول الأوائل. ويلاحظ على فتوحات تيمور لنك في بدايتها أنها كانت بطيئة ومتأنية ولكنها كانت فتوحات مدروسة مكن فيها تيمور لنك لنفسه ولدولته في الاقليم الذي حكمه، وقد ظلت حروب تيمور لنك منذ عام ١٨٣١م وحتى وفاته عام ١٤٠٤م. وكانت بداية عمليات تيمور لنك الرئيسية ضد خانات المغول في فارس ،لأن بلاد فارس قد تمزقت إلى عدة دول في عام ١٣٣٦م بعد الخان موسى، ولعل هذا ما أغرى أو شجع تيمور لنك على غزو هذه النواحي، وقد نجح في ١٣٨٦ من الاستيلاء على تبريز وتفليس. وظل يترقب الأوضاع في بغداد حتى إستولى عليها عام ١٣٩٢م.

وبعد هذه المرحلة تطلع تميور لنك إلى قتال القبيلة الذهبية في روسيا، وتقدم بعدة حملات متلاحقة حتى وصل إلى مدينة موسكو. وفي سنة ١٣٩٥م إتجهت القوات المغولية إلى بلاد الأناضول فخضعت له مدينتي أرزنجان وسيواس وغيرهما، وبعد ثلاث سنوات كانت حملات تيمور لنك على شمال بلاد الهند في عام ١٣٩٨م وتميزت حملاته على الهند بقسوة لم تعهدها البلاد التي فتحها من قبل. وكان لذلك أثره على سكان البلاد التي فتحها بعد ذلك .

وبدأت الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام بقيادة تيمولنك في عام ١٤٠٠م، وكانت وجهته مدينة حلب التي قاومت ببسالة، ولكنها سقطت في النهاية ،ودخلتها القوات المغولية وإستباحتها لمدة ثلاثة أيام، وبلغ عدد القتلى من أهالى المدينة حوالى عشرين ألفًا، وقد قطعت بعض رؤوسهم في كومة قطرها عشرين ذراعًا وارتفاعا عشر أذرع. كما دمر المغول مدارسها ومساجدها التي أسسها البيت الزنكي والبيت الأيوبي والمماليك.

وحاول السلطان المملوكي فرج بن برقرق (١٣٩٩ - ١٤١٢م) أثناء حكمه في المرة الأولى أن يتصدى للجيش المغولي ولكن القوات المغولية أبادت الطلائع التي أرسلها لمقاومتها، فأصبح الطريق مفتوحًا أمام تيمور لنك إلى دمشق. وقد صمدت المدينة حوالى شهر، ثم استسلمت المدينة بعد ذلك، ويقول ابن تغرى بردي إن تيمور لنك لم يحترم شروط التسليم التي قرأت على منبر جامع دمشق، فقد جمع من سكان المدينة حوالى ثلاثين ألفًا من الرجال والنساء والأطفال - دون تفرقة بين الجنس أو العمر - في جامع المدينة ثم أمر باضرام النار في المسجد، فلم يبق منه شيئًا سوى بعض الجدران.

كما نقل تيمور لنك جميع العلماء والحرفيين المهرة إلى عاصمته

سمرقند، ورأى أهل دمشق أنواعًا من العذاب لم يسمع بمثلها استمرت تسعة عشر يومًا بعدها أشعلت النار في المنازل والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وظلت النار مشتعلة ثلاثة أيام بلياليها، حتى ثارت دمشق أطلالاً باليه، وما كاد يفرغ من دمشق حتى إتجه إلى بغداد في العام التالى (١٤٠١م) لينزل بها العقاب بسبب ثورة قامت فيها، وحل ببغداد ما حل بدمشق.

ودارت الدائرة بعد بلاد الشام على آسيا الصغرى حيث كانت الدولة العثمانية، وترجع بداية هذه الأحداث إلى أن السلطان با يزيد الأول ١٣٨٩ - ١٤٠٢م كان قد إستولى على أراضي بعض أمراء الأتراك السلاجقة، وقد لجأ هؤلاء إلى تيمور لنك لحمايتهم، وقد أرسل تيمور لنك في مطلع عام ١٤٠٢م إلى السلطان بايزيد يأمره بإعادة كل المدن والاراضي التى استولى عليها إلى أصحابها. وقد رفض السلطان بايزيد طلب تيمور لنك ورد عليه بإجابة قاسية، وكان ذلك يعني الحرب . وتقدم تيمور لنك إلى مدينة أنقره، فوجد بالقرب منها جيوش بايزيد وكانوا حوالي مائه وعشرين ألفًا، وفي صباح الثامن والعشرين من يوليو دارت معركة بين الطرفين تصدى لها من جانب الدولة العثمانية الجنود الصرب بقيادة ستيفان لازاروفيتش Stephan Lazarovic، ولكن بايزيد أمرهم بالانسحاب حتى لا تحاصرهم القوات المغولية، فتقدم المغول حتى بلغوا الصفوف التركية، فألقى الاتراك السلاجقة سلاحهم ورفضوا القتال ضد أمرائهم المغول السابقين، وثبت بايزيد في المعركة حتى المساء، ثم حاول الفرار تحت ظلام الليل، ولكنه وقع في الأسر هو وإبنه موسى وبعض القادة.

ولمزيد من السخرية والاهانة للسلطان بايزيد وضعه تيمورلنك في

قفص من حديد وطاف به البلاد، ثم ما لبث أن توفى بايزيد في الأسر في الثامن من مارس ١٤٠٢م فسمح تيمورلنك بدفنه في مدينة بروسه. وقد ترتب على غزو تيمورلنك للبلاد العثمانية ،عودة الأمراء السلاجقة إلى إماراتهم، كما أبقى تيمورلنك إقليم تراقيه في أوروبا في يد ابن بايزيد تحت السيادة المغولية، وبعد أن نهب المغول جميع مدن آسيا الصغرى عادوا إلى بلادهم، ثم ما لبث أن مات تيمورلنك في التاسع عشر من فبراير عام ١٤٠٤م، وهو الشهر نفسه الذي مات فيه هولاكو عام ١٢٥٦م .

وبعد موته استرد المماليك سوريا، وظهرت في أزربيجان أسرة الشاه السوداء التي أقامت دولة إمتدت من شرقي آسيا الصغرى حتى بغداد. كما ظهرت انتفاضات قومية في بلاد فارس ظهرت على إثرها الدولة الصفوية، وظلت سلالة تيمورلنك تحكم في إقليم ما وراء النهر طوال القرن الخامس عشر، كما استطاعت سلالته إقامة دولة في الهند عرفت باسم إمبراطورية المغل في دلهى إستمرت لفترة طويلة.

الطرق التجارية زمن المغول :

كانت التجارة قبل الفتوحات المغولية تمر عبر الطريق الذي كان يعرف باسم طريق الحرير، وكان هذا الطريق يبدأ من الصين ثم إلى التبت وإلى شمال بحر آرال، ثم إلى جنوب بحر قزوين فإلى طهران وبغداد ودمشق، ومنها إلى ثلاث شعب هي الطريق إلى بيروت، والطريق إلى صور، والثالثة إلى انطاكية، ومن هذه المدن إلى موانىء البحر المتوسط في أوربا وافريقيا.

ولكن هذا الطريق قد تأثر في بداية فتوحات المغول، وبعد أن هدأت الاحوال وأصبح للمغول امبراطورية واسعة، بدأ المغول في تشجيع التجار

على أن يرتادوا الطريق البرى القديم القادم من الصين ويجتاز تركستان ثم إلى شمال بحر قزوين إلى موانى البحر الأسود ، أما الطريق الآخر فقد بدأ من الصين ثم الى بلاد فارس ثم إلى سواحل البحر الأسود الجنوبية مثل طرابيزون أو إلى مدينة إياس الواقعة في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى. وقد شجع التجار على إعادة إستخدام مثل هذه الطرق، ما فرضه المغول من الأمن والنظام حتى أصبح الطريق البرى أفضل من طريق البحر الطويل لمروره بالهند ، وما به من أخطار وكوارث طبيعية . كما ترتب على سيطرة المغول على بلاد العراق أن جانبًا من تجارة الشرق الأقصى وصلت إلى بغداد عبر الخليج ومنها إلى دمشق أو حلب ثم المدن الساحلية الشامية التي كانت في أيدى الفرنج الصليبيين لبعض الوقت، ومنها إلى مدن البحر المتوسط مثل مدينة إياس .

وإشتد تنافس مدن البحر المتوسط مثل البندقية وجنوة ثم لحقت بهما بيزا. وقد سيطرت البندقية في أول الأمر على البحر الأسود بعدما ساعدت الصليبين في إقتحام القسطنطينية عام ١٢٠٤م، ولما إستعاد البيزنطيون عاصمتهم في عام ١٢٦١م بمساعدة الجنويين تراجع نفوذ البنادقة التجاري من البحر الأسود ، واحتكرت جنوة تجارة الرقيق القادمة من سهوب روسيا إلى مصر والشام. أما البنادقة فقد تقربوا إلى الأرمن الذين تحالفوا مع المغول ، وبذلك سمح للبنادقة أن يشاركوا في تجارة المغول القادمة إلى مدينة إياس . وفي سواحل بلاد الشام حيث كان الصليبيون .فقد سيطر البنادقة على التجارة في عكا ، كما سيطرت جنوة على التجارة في مدينة صور وإن كانت أقل من تجارة عكا. وعندما تطورت مدينة اياس بفضل التجارة المغولية ضعفت موانى الساحل الشامي الصليبية. ورغم ما قام بين المغول والمماليك من حروب بعد

سقوط الإمارات الصليبية فإن ذلك لم يعرقل مسيرة التجارة كثيراً، فتقدمت القوافل من بلاد فارس إلى العراق ثم إلى سواحل بلاد الشام، وطبقا للقاعدة الاقتصادية بأن رأس المال جبان ، فمما لا شك فيه أن الحروب تؤثر بشكل أو بآخر على سير الحركة التجارية، وكما هو معروف أيضًا أن التجارة سارت وراء الصليب في العصور الوسطى ، فإن الصليب سار وراء التجارة مع الكشوف الجغرافية.

ومن العوامل التي ساعدت على سهولة العمليات التجارية داخل الامبراطورية المغولية قيام الخان الاعظم بانشاء دار لسلك النقود بالعملة الورقيه ، والحقيقه أن النقود الورقية كانت مستخدمة في بلاد الصين ، وقد قام الخان الاعظم أوكيتاى فى عام ١٢٣٤ م بتقليد ما كان سائدا فى بلاد الصين ، وان مقر دار سلك النقود هذه كان فى مدينة كانبالا . ولصناعة هذه العملة الورقية كان الخان يأمر بنزع لحاء اشجار التوت ، ثم تأخذ منها القشرة الداخلية الرقيقه التي تقع بين اليابس وخشب الشجرة ، ثم تنقع هذه القشرة وتدق في هاون حتى تتحول الى عجينه يصنع منها الورق الذي يماثل في مادته الورق التى يصنع من القطن .

وبعد ما يصبح الورق معدا للاستعمال يتم قطعه الى أحجام مختلفه شبه مربعه ، وكان لكل حجم قيمه ثابته لعملة أخري أجنبية . وتعطى هذه العمله الورقيه شرعيتها ببعض الاشكال والرسوم ، ويتولى بعض الموظفين المختصين وضع اسمائهم واختامهم على هذه العمله .فاذا صدرت هذه العمله علي الطريقه السابقة يتولى كبير الموظفين المفوض من الخان الاعظم بختمها بالخاتم الملكى الموجود في حيازته، وعلي هذه الصورة تكون العمله الورقية أصبحت معده للتداول .

وكان يعد تزوير هذه العملة جريمه عقوبتها الاعدام ، وعلى ذلك لا

يجرؤ إنسان على القيام بمثل هذه العمل والا عرض حياته للموت ، وكان يسجل على كل عملة عبارة « كل من زور سوف تقطع رأسه » وكان يتم تداول هذه العمله داخل الامبراطورية وخارجها ويتقبلها الرعايا والاجانب دون تردد.

وكان الخان الاعظم يضع ثمن لكل سلعه واردة من الخارج ، فعندما تصل القوافل الضخمه يقوم الخان باستدعاء جماعه من ذوى الخبرة فيأمرهم بفحص السلع بكل عناية ، ثم يضعون ثمنا لكل سلعه، ثم يسمح بهامش ربح معقول يضاف الى ثمن السلعه . ثم يدفع للتجار الثمن على الفور بالعمله الورقيه دون أى إعتراض من التجار ، واذا كان هؤلاء التجار من اقليم لا يتعامل بهذه العمله الورقيه ، فانهم يستثمرون المبلغ فى شراء سلع تجارية أخرى تناسب اسواقهم، وعندما يتصادف أن يمتلك شخصا نقودا ورقيه بليت من طوال الاستعمال ،فانه يحملها الى دار سلك النقود فيسلمها ويحصل على أوراق جديدة بدلا منها بعد خصم ٣ ٪ من القيمه .

واذا أراد أى فرد الحصول على الذهب أو الفضه بقصد تصنيعها كؤوسا للشراب أو أحزمه أو غير ذلك وجب عليه التقدم بطلبه الى دار سلك النقود ،حيث يحصل على ما يريد مقابل ما معه من عملة ورقيه، وكانت أعطيات الجند تصرف بهذه العمله الورقيه أيضا التى تعد عندهم على نفس قيمة الذهب أو الفضه .

الفصل الثاني

أوربا زمن المغول

إنجلترا

فرنسا

ألمانيا

البابوية



الفصل الثاني

أوربا زمن المغول

أولا : إنجلترا :

وفي الوقت الذي ظهر فيه المغول على الساحة الآسيوية والأوربية كانت أوربا الغربية قد وصلت إلى مرحلة من الإستقرار النسبي مكنتها من أن تكون لها مكانتها العالمية خاصة بعدما لعبت دوراً كبيراً في الحروب الصليبية، ومن الدول التي كانت لها قوتها السياسية والعسكرية إنجلترا وفرنسا وألمانيا، والدول الاسبانية والبرتغالية التي لعبت دوراً كبيراً في حركة الاسترداد في الأندلس، هذا فضلاً عن البابوية التي مكنتها سلطتها الروحية من فرض كلمتها لبعض الوقت على ملوك وحكام أوربا. وفيما يتعلق بإنجلترا، فيمكن البدء بعهد الملك ريتشارد الأول قلب الأسد . وهناك ملاحظة هامة يجب الإشارة إليها قبل الخوض في تاريخ إنجلترا - وهي أن الجزيرة البريطانية تتكون من ثلاثة أقسام كبار هي إنجلترا وويلز واسكتلندا وهو ما يعرف اليوم باسم المملكة المتحدة إذا أضفنا إليها الجزء الأيرلندي. ولذلك فإنه عندما نتحدث في العصور الوسطى عن إنجلترا فإننا نقصد به على هذه الصفحات الأجزاء الجنوبية والشرقية من الجزيرة البريطانية ولا يدخل فيها ويلز أو أسكتلندا، مع عدم الإلتزام بالحدود الإدارية المعروفة الآن.

ريتشارد الأول ١١٨٩ - ١١٩٩م

تولى ريتشارد الأول حكم إنجلترا بعد أبيه، ويعرف باسم ريتشارد قلب الأسد Richard I The Lion-Heart ، وقد ولد في إكسفورد عام ١١٥٧م، وعاش أكثر عمره في مقاطعة اكويتين Aquituine ليصرف شئون المقاطعة بدلاً من أمه اليانور Eleanor . وكان لتواجده في إقليم

إكوتين أثراً كبيراً على ثقافته، فلم يعد إنجليزيا، وتأثر بالثقافة الفرنسية الجنوبية خاصة الشعر والغناء وحب المغامرات، وعندما تولى حكم إنجلترا اضطر للعمل بالسياسة وهو عنها بعيد.

وإنشغل منذ توليه عرش إنلجترا بالإستعداد للقيام بحملة صليبية وهي الحملة المعروفة بالثالثة، وانضم فيها فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفريدريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا، ومن أجل هذه الحرب إضطر للمال ولم يكفيه ما تركه والده، ولكي يحصل على الأموال فصل عدداً كبيراً من موظفي الدولة ثم أعاد تعيينهم مقابل بعض الأموال، ومنح براءة قيام بعض المدن من أجل المال أيضًا، وحصل على مبلغ هزيل من أجل الاعتراف باستقلال إسكتلندا، وصادر بعض السفن التي كانت راسيه على شواطىء إنجلترا ليستخدمها في نقل قواته إلى سواحل الشام.

وفي طريقه إلى الأراضي المقدسة عبر البحر المتوسط مع فيليب أوغسطس إستولى على جزيرة قبرص عام ١١٩١م ثم باعها لفرسان الداوية Templers، ولما فشلت الصفقة مع الداوية باعها إلى جاى لوزيجيان Guy Lusignan المطالب بعرض مملكة بيت المقدس الصليبية، وحارب ريتشارد صلاح الدين، وفشل الملك الانجليزي في الاستيلاء على مدينة بيت المقدس، وعقد مع صلاح الدين صلح الرملة عام ١١٩٢م، وعاد إلى بلاده مقتنعًا بأن الطريق إلى بيت المقدس يمر عبر القاهرة وأن الاستيلاء على بيت المقدس لا يتم إلا بعد ضرب القوى الاسلامية في مصر.

وبعدما أبحر ريتشارد من الساحل الشامي في التاسع من أكتوبر ١١٩٢م فاجأته عاصفة دفعت بسفينته إلى جزيرة كورفو Corvu البيزنطية، وخاف أن يأسره الامبراطور البيرنطي إسحق إنجليوس Isaac Angelus (١١٨١ - ١١٩٥م)، فإستقل قاربًا إلى البحر الأدرياتيكي

ومنه إلى مدينة أكويليا Aquileia ، ثم أسرع ليصل إلى ألمانيا حيث يوجد زوج أخته ما تيلدا ،هنرى الأسد ولكنه وقع في يد ليوبولد دوق النمسا Leopold of Austria فأسره، لأن ريتشارد مزق أعلام ليوبولد في عكا، كما إتهمه بقتل كونراد أف مونتفرات Conrad of Monferrat ثم سلمه ليوبولد بعد ثلاثة أشهر إلى هنرى السادس امبراطور ألمانيا.

ظل ريتشارد سجينًا لدى هنرى رغم مخالفة ذلك لقوانين الحروب الصليبية ، وطالب هنرى بالفدية لإطلاق سراحه، وظل في الأسر حوالى سنه عجزت فيها إنجلترا عن جمع الفدية اللازمة لاطلاق سراح ريتشارد، وفي هذه الأثناء حاول أخوه يوحنا إغتصاب العرش، ولكن الأم اليانورساندت حقوق ريتشارد ففر يوحنا إلى فرنسا وإنضم إلى فيليب أوغسطس في الهجوم على إنجلترا، ولما فشل فيليب في النيل من إنجلترا غزا نورماندى وراسل هنرى السادس ليبقى على ريتشارد أسيراً.

وفي مارس ١١٩٤م أطلق سراح ريتشارد فعاد إلى إنجلترا ليستعد لمحاربة فيليب ، ونجح ريتشارد في إستعادة أملاكه بعد حرب دامت خمس سنوات على أراضي القارة الأوروبية. وفي السادس والعشرين من مارس ١١٩٩م مات ريتشارد في مدينة ليموزين Limousin بسهم إنطلق من قلعة أحد الإقطاعيين الذين تصارع معهم ريتشارد.

يوحنا ١١٩٩ - ١٢١٦م

تولى يوحنا بعد أخيه ريتشارد، وعند تتويجه إضطره رئيس أساقفه كانتربوري هيوبرت والتر Huber Twalter أن يقسم بأنه تولى عرشه بالانتخاب من قبل النبلاء ورجال الدين وليس وراثه من أخيه، ويتضح من تاريخ يوحنا أنه لم يتلزم بهذا القسم، وكانت حياة يوحنا عاصفة مع نبلائه

والبابوية وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، ورغم ذلك فإن سياسته لم تكن خاطئة على الدوام . وفي العام الذي تولى فيه يوحنا عرش إنجلترا طلق زوجته إيزابيلا إف جلوستر Isable of Gloucester بحجة أنها تمت إليه بصلة القرابة وتزوج من إيزابيلا أف انجوليم Isablele of Angouleme . وقد جرت عليه هذه الزيجة متاعب متعددة، لأن زوجته الثانية كانت مخطوبة إلى لوزجنان Lusinan كونت لامارش La Marche . وقد غضب الأشراف في إنجلترا وفي بواتو Poitou لهذا العمل، كما إحتج البارونات النورمانديون في أنجومين - وإشتكى هؤلاء إلى فيليب أوغسطس بإعتبار أن نورماندي إقطاعية تابعة للتاج الفنسي - وأن يوحنا بإعتباره مالكًا لإقليم نورماندى يعتبر تابعًا لملك فرنسا.

تجدد العداء القديم بين إنجلترا وفرنسا في هذه المرحلة ،ووجد فيليب في هذه القضية فرصة لإذلال يوحنا، وأرسل فيليب إلى يوحنا بإعتباره تابعًا له وأمره بالحضور إلى القصر الملكي في باريس ليدافع عن نفسه ، ومن الطبيعي ألا يحضر يوحنا وكان هذا متوقعًا، فانعقدت المحكمة الإقطاعية الفرنسية ومنحت آرثر Arther كونت بريتاني - وهو حفيد هنرى الثاني - نورماندي، وأنجو وبواتو ، وتشجع آرثر وطالب بعرش إنجلترا، وساعده فيليب بالمال والرجال لتحقيق ذلك.

تقدم آرثر لمهاجمة نورماندي وحاصر اليانور والده يوحنا في قلعة ميرابو Mirabeau وقادت الملكة الأم القوات للدفاع عن حقوق إبنها، وأسرع يوحنا إليها وهزم آرثر وقبض عليه وسجنه في قلعة فاليس Falaise ولم يسمع عن آرثر بعد ذلك، ويبدو أن يوحنا أمر بقتله .

إنتهز فيليب هذه الفرصة وتقدم لغزو نورماندي وكان الموقف في صالحه، فقد كان يوحنا يفتقر إلى المال ووسائل الدفاع فهزمه فيليب وهرب

يوحنا إلى إنجلترا، وضم فيليب إلى فرنسا جميع الممتلكات الإنجليزية في القارة الأوروبية وهي نورماندى، ومين، وأنجو، وتورين في عام ١٢٠٥م وأقسم إقطاعيوها يمين الولاء للملك فيليب .

ولما كان البابا أنوسنت الثالث على خلاف مع فيليب أوغسطس فقد حاول مساعدة يوحنا قدر المستطاع، ولكن يوحنا لم يمنح البابا الفرصة لمساعدته، فقد إختلف الاثنان في العام نفسه بسبب الخلاف على تعيين رئيس أساقفة كانتربوري. ويرجع هذا الخلاف إلي موت هيوبرت والتر عام ١٢٠٥ ، وكان الملك يوحنا يرى تعيين الأسقف يوحنا دي جراى Jhon de Gray، ولكن بعض الرهبان الشبان في كاتدرائية كانتربوري إختاروا نائب رئيس ديرهم وهو ريجنالد Reginald.

إتجه المرشحان إلى روما يطلب كل منهما تأييد البابا أنوسنت الثالث ،ولكن البابا إعترض على المرشحين وعين ستيفن لانجتون-Stephen Lang ton وهو كاردينال إنجلترا وأستاذ سابق للاهوت في جامعة باريس . اعترض يوحنا على هذا الاجراء، ولم يعبأ البابا ونصب ستيفن لانجتون كرئيس لأساقفه كانتر بوري عام ١٢٠٧م، وتمسك يوحنا بموقفه وهدد وتوعد وأنذر الرهبان، وأصدر أوامره بعدم دخول ستيفن لانجتون الاراضي الإنجليزية وأعلن تحديه للبابا. رد البابا على هذا الاجراء بانزال قرار الحرمان على الملك وقرار القطع على إنجلترا في عام ١٢٠٨م وظل القراران حتى عام ١٢١٣م .

وخلال هذه المرحلة كان الملك يصادر أملاك الكنيسة، لذلك سانده النبلاء لأن إنشغال الملك بالصراع مع رجال الدين يشغله إلى حد ما عن الصراع مع النبلاء، ونجح يوحنا في هذه المرحلة في الانتصار عسكريًا في حروبه مع ايرلندا، واسكتلندا، وويلز. وقد شجع كل هذا يوحنا على

التمادى في سياسته المتشددة، فعندما إحتاج إلى المال زج باليهود في السجن وصادر أموالهم ولم يرحم رجال الدين من السجن أيضًا، وتركهم حتى ماتوا في سجنهم، كما زاد من الضرائب التي أرهقت الأهالي.

ولما يئس البابا أنوسنت الثالث أصدر مرسومًا في عام ١٢١٢م بخلع الملك يوحنا من العرش الإنجليزي ،وحل رجاله من القسم الذي أدوه له ، وأعلن أن الأملاك الانجليزية حقًا لكل من يتمكن من الاستيلاء عليها. وحانت الفرصة للملك الفرنسي فيليب اوغسطس فإستعد لغزو إنجلترا. وعلم يوحنا بهذا الاستعداد فدعا رجاله للحرب، ولكن رجاله لم يمدوا له يد المساعدة خوفًا من عقوبات البابا. وأحس يوحنا بالخطر، وكان لابد من التراجع حتى يفوت الفرصة علي الجميع فعقد إتفاقًا مع المبعوث البابوي باندولف Pandulf، ويقضى هذا الإتفاق بأن يرد الملك يوحنا جميع أملاك الكنيسه وأن يضع إنجلترا بأكملها تحت السيادة البابابوية الاقطاعية إذا ألغى البابا قرار الحرمان وقرار القطع. وإتفق الطرفان على ذلك وسلم يوحنا إنجلترا إلى البابا عام ١٢١٣م - ويعتبر هذا الإستسلام الأول للملك يوحنا - ثم إستعادها بعد بضعة أيام بوصفها إقطاعًا، وعلى الملك أن يؤدي الجزية عن إنجلترا للبابابوية.

وبعد أن سوى يوحنا مشكلته مع البابابوية إستعد لمحاربة فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وتحالف مع أوتو الرابع Otto IV إمبراطور ألمانيا ١٢٠٨ - ١٢١٥م، ولكن بارونات إنجلترا تخلفوا عن المشاركة في هذه الحرب، ورغم ذلك عبر يوحنا القناة الإنجليزية بما لديه من رجال ووصل إلى أنجو في الوقت الذي سار فيه أوتو إلى باريس، وفي يوليو عام ١٢١٤م هزم أوتو في موقعه بوفين Bouvines في إقليم فلاندرز ،وترتب على هذه الهزيمة نتائج هامة جداً في تاريخ أوربا خاصة في ألمانيا

وانجلترا. ففي المانيا إهتز عرش أوتو وفتح المجال أمام فريدريك الثاني ليتولى عرش ألمانيا. أما في إنجلترا فقد إضطر يوحنا إلى عقد الهدنة بعد هزيمة ألمانيا وتخلى باروناته عنه. وبموجب هذا الصلح تنازل يوحنا عن إقليم بواتو. أما فرنسا فقد أصبحت القوة الوحيدة على القارة الأوربية.

ولم يكن يوحنا جاداً في طلب الهدنة إنما عقدها لكسب الوقت، فلما عاد إلى إنجلترا بعد عقد الهدنة بدأ يعد جيشًا لمحاربة فيليب، ولكن الأشراف والنبلاء رفضوا مرة أخرى الإنضمام إلى الجيش واعترضوا على الضرائب التي يجمعها الملك للدخول في حروب لا فائدة منها، وذكروا الملك أيضًا بسياسته الخاطئة التي أدت إلى تسليم إنجلترا للباباوية، ولم يكن لدى الملك وسيلة غير التفاوض.

عرض يوحنا على الأمراء أن يؤدوا مبلغًا من المال بدلاً من الخدمة العسكرية، ولكن الأمراء تجاهلوا هذا المطلب وطالبوا الملك الإلتزام بالقوانين التي وضعها الملك هنرى الأول والتي تحدد حقوق الأشراف وسلطات الملك. وماطل يوحنا في الرد، فظن الأمراء أنه يستعد لمحاربتهم فجمعوا قواتهم، وحتى يكسب الملك يوحنا تأييد البابا ورجال الدين أعلن بعض الامتيازات لرجال الدين، وأعلن أنه سيحمل الصليب ويقود حملة صليبية إلى الشرق لإستعادة بيت المقدس.

ولم يغير هذا مجرى الأحداث،فقد إجتمع في أبريل عام ١٢١٥م في مدينة براكلي Brackley خمسة من الإيرلات وأربعون من البارونات وقدموا قائمة بمطالبهم للملك، وأرسل الملك إلى المجتمعين وليم لامارش بالإضافة إلى ستيفن لانجتون بهدف إخضاعهم لسلطان الملك، ولكن المجتمعين رفضوا وأعلنوا في مايو من العام نفسه الحرب على الملك ونجحوا في غزو لندن بعدما إستمالوا مواطنيها، وطلب الملك من ستيفن لانجتون رئيس

أساقفه كانتربورى إنزال قرار الحرمان على المتمردين ولكن ستيفن رفض إصدار مثل هذا القرار.

تحرك يوحنا بقواته من إكسفورد إلى وندسورWindsor وتحرك البارونات من لندن وعقدوا إجتماعًا في رونيميد Runnymede من الثامن حتى الرابع عشر من يونيه ١٢١٥م، وتولى أمر الوساطة بين الملك والبارونات ستيفن لانجتون ووليم لامارش، وظلت المباحثات بين الطرفين، حتى إنتهت بالوثيقة المعروفة بالعهد الأعظم Magna Carta ، وهي الوثيقة التي صيغت عباراتها خلال عدة أيام، ووقعها الملك يوحنا في الخامس عشر من يونية عام ١٢١٥م. ولعب ستيفن لانجتون ووليم لامارش دوراً كبيراً في صياغة بنودها. ويعتبر العهد الأعظم أشهر وثيقة في التاريخ الإنجليزي بأكمله وبه إستسلم يوحنا الاستسلام الثاني. والعهد الاعظم يتكون من إثنين وستين مادة بخلاف الديباجة وقد ورد بها.

تحية من يوحنا المتوج ملكًا على إنجلترا بعناية الله تعالى، وسيد إيرلندا، ودوق نورماندى واكويتين وكونت انجو، إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والإيرلات والبارونات .. وجميع رعاياه المخلصين ... وبارادة الله ومن أجل خلاص جميع أرواحنا وأرواح خلفائنا ... وتلى ذلك البنود الخاصة بالعهد الأعظم، ونكتفى في هذا الموضع بإلقاء الضوء على بعض بنوده، فقد ورد في البند الأول أن تكون الكنيسة حرة لا يتعدى أحد على شيء من حقوقها وحرياتها، وفي البند الثاني «إننا نمنح جميع الأحرار في مملكتنا عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر جميع الحريات المدونة فيما بعد » .

مادة ١٢ : لا يفرض بدل خدمة أو معونة ... إلا المجلس العام في المملكة.

مادة ١٤ : وهي مرحلة إنتقال حتى يتم تشكيل المجلس العام، وقد ورد بها ، حتى يجتمع المجلس العام الذي يتولى تقدير المعونات وبدل الخدمات .. نأمر باستدعاء كبار الأساقفه، والأساقفه ، ورؤساء الأديرة والإيرلات وكبار البارونات في البلاد وغيرهم ممن هم تحت رئاستنا بعقد إجتماع يحدد له موعداً ثابتًا دوريًا كل أربعين يومًا على الأقل، ويحدد مكانه أيضًا.

مادة ١٥ : لن نسمح من الآن فصاعداً لكائن من كان أن يأخذ معونة من رجالنا الأحرار إلا إذا كان ذلك بسبب الفداء، أو تنصيب الإبن الأكبر فارسًا ، أو زواج إبنته الكبرى لأول مرة، ويشترط أن تكون المعونة في مثل هذه الحالات معونة مقبولة.

ولما كانت الشكاوى تعرض من قبل على محكمة الملك، ولما كانت محكمة الملك تتبعه أينما كان، فقد ورد في المادة السابعة عشر ما نصه: «لن تعرض الشكاوي العادية على محكمتنا ، بل ينظر فيها في مكان محدد».

وفي المادة السادسة والثلاثين، ورد مبدأ في غاية الأهمية ويعتبر ثورة على النظم السائدة، وهو يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة.

وفي التاسعة والثلاثين، تقرر الا يقبض على أي رجل حر أو يسجن أو تنزع ملكيته أو يخرج عن حماية القانون أو ينفى، أو يؤذى بأى نوع من الايذاء، إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه المساوين له في المدينة، أو بمقتضى قانون البلاد.

وتعرضت المادة الحادية والأربعون لحرية التجارة، فقد نصت على تمتع جميع التجار بحق الدخول إلى انجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً وبحراً سالمين مؤمنين للشراء والبيع، دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة.

وورد في المادة الستين، أن كل الحريات السالفة الذكر يجب أن يراعيها أهل إنجلترا كلهم سواء رجال الدين أم غيرهم.

وإذا إكتفينا في هذا الموضوع ببعض البنود الواردة في العهد الأعظم، إلا أنه يمكن القول أن هذا العهد كان أساس الحريات التي تمتعت بها انجلترا ولا زال كذلك، وواقع الأمر أن العهد الاعظم جدير بهذه الشهرة. والحقيقة أن هناك بعض القصور في نصوص العهد الأعظم، ولكن علينا أن ننظر إليه في عصره وما كان هناك من أنظمة ولا نقارنه بما نحن فيه الآن، وإذا كان العهد الاعظم بدا وكأنه إنتصاراً للاقطاع لا للديمقراطية، إلا أنه نص على الحقوق الأساسية وحماها وزاد عليها بعد ذلك ، وهو الذي بدل الملكية المستبدة، إلى ملكية دستورية مقيدة.

لقد وقع يوحنا العهد الأعظم وهو مرغم، دون أن يدرى إنه خلد إسمه في التاريخ بالنزول عن سلطاته الاستبدادية، وأنه الذي جعل من إنجلترا دولة تفخر بأنها أمًا للديمقراطية. وعز على يوحنا هذا التنازل وأنه يعتبر بالنسبة لعصره ضعيفًا لا قويًا، لذلك حاول إلغاء العهد الأعظم وسانده البابا في هذه المرحلة، فأعلن الملك والبابا ان العهد باطل، ورفض الامراء إطاعه أوامر الملك والبابا، فأصدر الاخير قرار الحرمان عليهم، ولكن ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربورى صانع هذا العهد رفض نشر قرار الحرمان.

تأزم الموقف بين البابا وستيفن لانجتون، وقام مبعوثو البابا في إنجلترا، بإذاعة قرار البابا ووقف ستيفن عن العمل، فاستنجد نبلاء انجلترا بالملك فيليب أوغسطس الذي كان على خلاف مع البابا في هذه المرحلة، وهب فيليب لمساعدة النبلاء خاصة أنه كان يرى أن ملك انجلترا ليس إلا تابعًا له.

أرسل فيليب إبنه لويس لمساعدة النبلاء وليتولى في حالة نجاحه عرش

إنجلترا، ولما كان البابا لا يوافق على مثل هذا العمل فقد حذر على لسان مبعوثيه الأمير لويس من الإبحار إلى انجلترا، وفي الوقت نفسه قام يوحنا بضرب النبلاء في كل مكان واشتد في معاقبتهم، ولكنه مرض فجأة على أثر تناول كمية كبيرة من الدراق (الخوخ) ومات على أثر هذا المرض في التاسع عشر من اكتوبر عام ١٢١٦م.

هنري الثالث ١٢١٦ - ١٢٧٢م

تغير الموقف تماماً بعد وفاة الملك يوحنا، فقد مال الأشراف إلى الملك المرتقب وإنفضوا من حول لويس وطالبوه بالعودة إلى فرنسا، وتوج هنرى الثالث ابن الملك المتوفى ملكًا على إنجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢م) ،ولما كان هنرى الثالث في السادسة من عمره فقد وضع تحت وصاية وليم لامارش إيرل بمبروك Pembroke ، وقد قام هذا الوصى بإعادة إصدار العهد الأعظم باسم الملك الجديد فهدأت النفوس كلها والتف الشعب الإنجليزي حول مليكه الجديد وسانده أيضًا مبعوثو البابا وغالبية رجال الدين، وكما يقال لقد فضل الإنجليز ملكًا إنجليزيًا طفلاً عن ملك فرنسى غريب.

مات وليم لامارش في عام ١٢١٩م بعد أن حكم إنجلترا حكمًا فعليًا منذ تولية هنرى الثالث وساعده في هذه الفترة المبعوث البابوي، وتولى الوصاية علي هنرى المبعوث البابوي حتى عام ١٢٢١م حيث عاد إلى روما، وتولى بعد ذلك أسقف ونشستر Winchester بطرس دي روشيه Peter De Roches أمر الوصاية، وساعده في أمر القضاء هيوبرت دي بورج Hubert de Burgh.

وفي عام ١٢٢٣م أعلن البابا هونوريس الثالث أن الملك هنرى بلغ سن الرشد وعليه أن يحكم بمفرده، ولكن هنرى لم يتخل عن مساعدة بطرس

حتى عام ١٢٢٧م عندما ذهب بطرس في الحملة الصليبية السادسة مع فريدريك الثاني.

وعلى أية حال فقد كان هنرى الثالث على شاكله أسلافه، ففرض الضرائب التي أرهقت النبلاء وكادوا يثورون عليه، وسمح لرجال الدين بجمع العشور لمساعدة البابا في حروبه ضد الامبراطور فريدريك الثاني.

ورغم هذا كله فإن أهم شيء حدث في عصر هنرى الثالث هو أن فترة قصور هنرى الثالث ، أشعرت الوزراء بالمسئولية الملقاة على عاتقهم، فتعاون الوزراء مع النبلاء ونجحوا في دفع الدولة إلى الأمام بطريقة أفضل بكثير من الأجيال السابقة عندما كانت السلطة في يد الملك، ومن تجاربهم في السلطة بدون تعرض الملك، وضعوا أساس الحكم الديمقراطي في انجلترا وقد ظهرت نتائج هذه الممارسة على مر الزمن .

إدوارد الأول ١٢٧٢ - ١٣٠٧م

ولى حكم إنجلترا وهو في السابعة والثلاثين من العمر، وكان ملكًا طموحًا قوى الإدارة، على درجة وافرة من العلم، خبيراً في الفنون العسكرية، راغبًا في العدالة والاصلاح، وكان لهذا كله أثراً بالغًا في تاريخ انجلترا، وقاد إدوارد حملة صليبية في عام ١٢٧١م وهو أمير ولكنه لم يوفق في حروبه ضد المسلمين في بلاد الشام، فحاول التحالف مع المغول لمحاربة الدولة المملوكية ولكنه لم يوفق أيضًا، فعاد إلى انجلترا ليتولى عرشها على أمل العودة مرة اخرى إلى بلاد الشام للتحالف مع المغول ومساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية وإمارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين، ولكن ظروف انجلترا الداخلية والخارجية لم تمكنه من ذلك.

وكان من سياسة إدوارد العمل على تحقيق الوحدة بين إنجلترا وويلز واسكتلندا ليقيم دولة قوية مترابطة، والواقع أن الصراع بين انجلترا وويلز يرجع إلى عهد الملك الإنجليزي وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧م)، فقد طالب وليم بخضوع ويلز لسلطانه بعد أن غزا إنجلترا بإعتبارها جزء من مملكة هارولد Harold المهزوم، ولكن مشاكل وليم الداخلية والخارجية لم تمكنه من تنفيذ ذلك سياسيًا أو عسكريًا، واستعاض عن ذلك بأن أقام على حدود ويلز الشرقية ثلاث مقاطعات، تولى كل منها حاكم بلقب إيرل Earl ،وطالب هولاء الحكم بالتوسع في أراضي ويلز. وإلى جانب هذه المشاكل الشرقية واجه أهل ويلز أيضًا غارات القراصنه النورمان البحرية.

ورغم هذا كله فقد نجح أهل ويلز في هزيمة الانجليز عند كورون Cor-wen عام ١١٦٥م ولما كان هنرى الثاني ملك انجلترا مشغولاً بالصراع مع توماس بكت، فقد اعترف باستقلال الجزء الجنوبي من ويلز تحت حكم رويس آب جروفيد Rhys ap Gruffydd البطل الثائر في جنوب ويلز ، وتمكن ليولن الأكبر LLyeuclyn The Great في بسط نفوذه على ويلز بفضل مقدرته العظيمة في الحرب والسياسة، ولكن أولاده تنازعوا فيما بينهم فعمت الفوضى أنحاء ويلز، ولكن حفيده ليولن آب جروفيد تمكن من السيطرة على الموقف داخل ويلز ورد إلى البلاد وحدتها وعقد الصلح مع هنرى الثاني ملك إنجلترا واتخذ لنفسه لقب أمير ويلز.

ولما كان ادوارد هنرى قد عقد العزم علي غزو ويلز فلم يكن ما حدث من صلح إلا كسبًا للوقت، فإستعد بقواته البرية في عام ١٢٨٢م وتقدم إلي ويلز حيث إلتقى ليولن الذي لم يكن لديه إلا قوات محدودة فقتل ليولن، كما تم القبض على أخيه داود، وثم فصل رأسيهما عن جسدهما وعلقت الرأسان في برج لندن، وفي عام ١٢٨٤م أصبحت ويلز جزء من

إنجلترا ، وفي عام ١٣٠١م خلع إدوارد لقب أمير ويلز على ولي عهد إنجلترا.

وأخذت تشريعات الملك الإنجليزي إدوارد الأول مكانة عظيمة في تاريخ إنلجترا والقارة الأوروبية كلها ، فقد وجد الملك أن الكنيسة تمتلك حوالي ثلث الأراضي في البلاد. وهي أراضي معفاة من الضرائب، ويدأ بإصدار مرسومًا في ١٢٧٩م يمنع بموجبه التنازل للكنيسة عن الأراضي سواء أكانت منحًا أم هدايا حتى لا تتضخم ثروات الكنيسة اكثر من ذلك. وإلى جانب ذلك فقد أجاز الملك إنتقال الأرض من مالك لآخر عن طريق البيع والشراء بعد أن كان الاقطاع هو السبيل الوحيد لحيازة الارض، هذا بالاضافة إلى تشريعات تتعلق بالأوقاف ومعاملة اليهود ، كما أنه درب جميع الانجليز على حمل السلاح، واعاد تنظيم قواته العسكرية.

والحقيقة أن ذلك كله لم يكن سببًا في تمجيد عهد إدوارد ، فإن نمو البرلمان الذي بدأ في عام ١٢٩٠م باجتماع رجال الدين والبارونات ثم تطور هذا البرلمان إلى البرلمان النموذجي الذي عقد في عام ١٢٩٥م بحضور البارونات والايرلات والفرسان ونواب عن رؤساء الاساقفة والاساقفه والعامة، وهو الذي خلد عهد الملك إدوارد.

فقد قرر هذا البرلمان عدم فرض ضرائب إلا بموافقته ، ووضع مبدأ في غاية الأهمية وهو أن ما يمس الناس جميعًا يجب أن يوافقوا عليه جميعًا ، كما قرر البرلمان أيضًا أن الاخطار التي تواجه الدولة يجب أن تعالج بطرق يتفق عليها الناس جميعًا ، وبالاضافة إلى ذلك تحسنت طرق الاجراءات القانونية والتحقيق القضائي، وحدد إختصاص مجالس القضاء الكنسي بقانون صدر في عام ١٢٨٥م، وفي نهاية عهده كان هناك ثلاث محاكم

أخرى، الأولى تختص بالشئون المالية، والثانية للدعاوى المدنية العامة، والثالثة وهي التي تفصل في جميع القضايا المدنية و الجنائية التي تخص الملك الانجليزي. هذا بالاضافة إلى بعض التشريعات التجارية وصدور قانون التجار في عام ١٢٨٣م، وعهد التجار في عام ١٣٠٢م، وعندما مات ادوارد في عام ١٣٠٧م كانت إنجلترا تتمتع بحكم برلماني سليم وقانون تجاري عادل .

إدوارد الثاني (١٣٠٧ - ١٣٢٧م)

خلف والده في حكم إنجلترا ولم يكن على مستوى أبيه في الحكم والإدارة، فقد كان ضعيفًا محبًا لرفقة رجال السوء حتى أصبح ألعوبة في يد ندمائه، وضاق أعضاء البرلمان بتصرفاته فقبضوا على صديقه ونديمه جاقستون Gaveston إيرل كورنول Cornwall وقتلوه في عام ١٣١٠م، وفي الوقت نفسه بدأ التعاون بين ايرلندا واسكتلندا في حوالي عام ١٣١٥م لطرد انجلترا من ايرلندا.

ويرجع هذا التعاون إلى أن روبرت بروس Robert Bruce الأسكتلندي وقد هزم الانجليز عام ١٣١٤م عند بانوكبرن Bannockbnrn، كما نجح أخوه إدوارد بروس في الرسوعلى أرض ايرلندا ومعه حوالي ستة آلاف مقاتل، ولم تنزعج إنجلترا وحدها لهذا الحدث بل انزعج البابا يوحنا الثاني والعشرين وأصدر قراراً يقضي بحرمان كل من يساعد إسكتلندا من رحمة الكنيسة، ولكن أهل ايرلندا لم يعبأوا بمثل هذا القرار وساندوا القوات الاسكتلندية وتوجوا إدوارد بروس ملكًا على ايرلندا في عام ١٣١٦م، ولكنه هزم وقتل في عام ١٣١٨م، وفشلت محاولة انفصال ايرلندا عن التاج الانجليزي، وهكذا فقدت ايرلندا حريتها ولكنها ظلت ايرلندية الطابع

إدوارد الثالث ١٣٢٧ - ١٣٧٧م

إختلف كثيراً عن والده وربما شابه جده إدوارد الأول، ولعل طول مدة حكمه قد ساعدته على إنجاز العديد من المشروعات سواء على المستوى الداخلي أم الخارجي، وعلى المستوى الداخلي فقد تم تحويل كثير من الأراضي الانجليزية إلى أراضي زراعية وذلك بفضل جماعة السسترشيان. هذا بالاضافة إلى الاهتمام بصناعة غزل الصوف التي إشتهرت بها إنجلترا وأصبحت من أهم مصادر الثروة في البلاد ، ورغم هذا فقد كان للوباء الأسود الذي إجتاح أوربا عام ١٣٤٩م أثره السيء على انجلترا حيث إرتفعت الأسعار إرتفاعًا كبيراً.

وعلى المستوى الخارجي فقد شهد عهد إدوارد الثالث بداية الحرب التي عرفت بإسم حرب المائه عام ١٣٣٧ - ١٤٥٣م وهي الحرب التي دارت بين انجلترا وفرنسا بسبب أملاك إنجلترا في القارة الأوربية، والمهم في هذا المقام أنه لم يتبق لإنجلترا عند نهاية حكم إدوارد سوى بعض الموانى مثل كاليه Calais وبرست Brest وبايون Bayonne وبوردو Bordeaux ، ومما لا شك فيه أن هذه الحروب قد أثرت كثيراً على الأحوال الداخلية للبلاد الانجليزية، فقد أدى طول الحرب إلى عدم إنتظام التجارة بين إنجلترا وأوربا خاصة مع إقليم فلاندرز الذي كان يستورد معظم الصوف الانجليزي لتصنيعه، وقد أدى ذلك إلي هجرة الكثير من الصناع من فلاندرز إلى إنجلترا واقامة مراكز لصناعة الصوف بالقرب من مراكز انتاج المواد الخام.

وعلى المستوى الخارجي أيضًا ساءت العلاقة بين إنجلترا والباباوية في روما بسبب إقامة الباباوية في افينون وهو ما يعرف باسم الأسر الباباوية، وترتب على ذلك أن البرلمان الانجليزي أنكر في عام ١٣٥١م

شرعية تعيين البابا لكبار رجال الكنيسة في إنجلترا. كما أصدر البرلمان أيضًا في عام ١٣٥٣م تشريعًا يقضى بعدم إستئناف القضايا أمام المحاكم الأجنبية، ومنها المحاكم البابوية، وبذلك حرمت البابوية من الموارد المالية التي تؤول إليها من هذا الجانب. كما رفض البرلمان دفع الجزية التي تعهد بدفعها الملك يوحنا بعدما إستسلم للبابوية في عام ١٢١٣م، وعلى المستوى الخارجي والداخلي، فقد ظهرت في إنجلترا حركة الإصلاح الديني التي نادى بها جون ويكلف John Wiclif (١٣٢٤ - ١٣٨٤م)، وقد نادى ويكلف بحق الدولة في مصادرة أملاك الفاسدين من رجال الدين، وعدم التقيد بالأوامر البابوية، واعتبار الانجيل هو المرجع الوحيد للمسحيين، ولما كانت مثل هذه الآراء تعتبر هرطقة في نظر معظم المعاصرين له، فقد أدت إلى الكثير من المشاكل في داخل انجلترا وخارجها.

وليس لنا في هذا المجال أن نتتبع تاريخ إنجلترا حتي نهاية العصور الوسطى أو حتى قيام أسرة ثيودور في عام ١٤٨٥م، ولكن نكتفى على الصفحات بالقول أنه رغم المشاكل الداخلية والخارجية التي عاشتها إنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلا أنها حازت الكثير من التقدم في المجال الحضاري، ومن ذلك التقدم في صناعة الصوف، وظهور الطباعة في عام ١٤٧٤م هذا بالاضافة إلى إنشاء المدارس وقيام الجامعات مثل جامعة كمبردج، والحركة الناشطة في بناء الكاتدرائيات وغيرها من المباني الدينية كالكنائس والاديرة وفقاً للنظام القوطي الذي حل محل النظام الرومانسكي. كما ظهرت اللغة الإنجليزية وحلت محل اللغة اللاتينية، وقد إستخدم جوفرى تشوسرGeoffrey Chucer (١٣٤٠ - ١٤٠٠م) اللغة الانجليزية في كتابه قصص كانتربوري ومهد لنهضة

أدبيـة في القـرن السـادس عـشـر حـيث ظهـر وليم شكسبـيـر ١٥٦٤ - ١٦١٦م الشاعر الانجليزي الذي يعتبر من أعظم شعراء انجلترا الذى وضع العديد من المسرحيات الشعرية الخالدة.

ثانيا : فرنسا :

وحيث أن محور هذا الكتاب هو أوربا والمغول، وقد بدأنا الكتابة عن إنجلترا بعهد الملك ريتشارد قلب الأسد لأن بداية حكمه تتزامن تقريبًا مع ظهور المغول في الشرق، وهنا في فرنسا يتزامن مع حكم الملك فيليب مع هذه المرحلة.

فيليب الثاني أوغسطس : (١١٨٠ - ١٢٢٣م)

كان ملكًا ذكيًا عمل على تشجيع العلوم، كما إتصف ايضا بالحزم والشجاعة والحذر والدهاء، ولم يتردد عن سلوك أي سبيل يوصله إلى غايته. ومن حذره أنه كان كريمًا مع الكنيسة ولكنه لم يسمح لرجال الدين أو البابوية بأن تتدخل في شئون دولته السياسية، ولعل في هذه الصفات ما جعله يحصل على ما يريد دون استعمال القوة العسكرية. وواقع الأمر، كانت فرنسا في أشد الحاجة إلى مثل هذه الشخصية لتقف أمام إنجلترا وفيها هنرى الثاني ، وريتشارد قلب الأسد، ويوحنا، وأمام ألمانيا حيث حكم فريدريك بارباروسا وهنرى السادس.

نجح فيليب في عام ١٢٠٤م في فتح اقليم نورماندیا واسترده من التاج الانجليزي ،وتقوى فيليب بهذا النصر واستطاع أن يضم بريتاني، وأنجو، ومين، وتورين، وبواتو إلى أملاك التاج الفرنسي، ومع قوة الملكية بالحصول على هذه الأراضي استطاعت السيطرة على الحكومة المحلية وتقلصت سلطة الأدواق والكونتات، وأشرفت الدولة على جميع الاقاليم.

لم تُسلم انجلترا بضياع نورمانديا، فتحالف يوحنا ملك انجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦م) مع أوتو الرابع أمبراطور المانيا ومع كونت فلاندرز للوقف في وجه التوسع الفرنسي، ووضعت الخطط العسكرية للقضاء على فيليب في ضربة واحدة، ووقف فيليب وحدة في الميدان ليواجه كل هذه القوى مجتمعه، ولم يوزع قواته على جبهات القتال بل نازل بها مجتمعه القوات الانجليزية في معركة بوفين Bouvines عام ١٢١٤م، وهزم فيليب يوحنا وترتب على هذه الهزيمة نتائج بالغة الأهمية كان لها أثرها السياسي على قارة أوروبا بأكملها، ومن هذه النتائج خلع أوتو من عرش الامبراطورية الألمانية وتولية فريدريك الثاني، وانهاء زعامة ألمانيا على القارة الأوروبية، كما خضع كونت فلاندرز لملك فرنسا، أما في انجلترا فقد كان من نتيجة هذه الهزيمة تمرد النبلاء الانجليز على الملك ومحاربته وهزيمته وإجباره على توقيع العهد الأعظم بعد عام من الهزيمة ١٢١٥م، ولا شك أن موقف الملكية في فرنسا قد زاد قوة على ما تبقى من نفوذ الاقطاعين.

وفي مجال السياسة الداخلية فقد حكم فيليب بلاده بمنتهى الاخلاص رغم صراعه لبعض الوقت مع الكنيسة بسبب زواجه من أجنس أف ميران Agens of Meran وطلاقه لزوجته الثانية انجبورج Ingeborg ،وتعرض فيليب لقرار الحرمان من الكنيسة ولكنه لم يعبأ بهذا القرار . وأعاد فيليب تنظيم دولته فاستبعد رجال الدين من البلاط وحل محلهم رجال القانون ، وشجع التجارة بمنح الامتيازات وحماية التجار ومنح عدداً من المدن عهداً بالحكم الذاتي، واستبدل بالخدمات الاقطاعية التي أصبح في غنى عنها البدلات العسكرية، وإهتم بالعمارة فتم في عهده بناء حصن اللوفر ليحمى نهر السين. وأتم واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame.

ولإرضاء البابوية والرأى العام الأوربي ولكي لا يظهر بمظهر المتخلف عن حماية الأراضي المقدسة خرج مع الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد وفريدريك باربروسا لمحاربة صلاح الدين، وعاد فيليب من الشام فاشلاً قبل أن تستكمل الحملة أعمالها - وعلى أية حال فقد مات فيليب عام ١٢٢٣م بعد أن أقام دولة فرنسا القوية.

لويس الثامن ١٢٢٣ - ١٢٢٦م :

تولى الحكم بعد أبيه، وقد شارك لويس في كثير من الاعمال في حياة أبيه، ومن ذلك انه قاد الجيش الفرنسي ضد إنجلترا عندما إستنجد بارونات إنجلترا بالملك فيليب أوغسطس بعد محاولة تنصل الملك الإنجليزي يوحنا من بنود العهد الاعظم، كما تولى لويس أيضًا قيادة القوات الفرنسية في الحملة الالبيجنسية ضد الهراطقة في جنوب فرنسا ، وهي المشكلة التي ورثها من أبيه، وأكد لويس سياسة أبيه في تقوية السلطة المركزية والقضاء على الهراطقة الذين سيطروا على جانب من جنوب فرنسا . وفي السنة الأخيرة من حكمه ١٢٢٦م توجهت القوات الفرنسية إلى جنوب فرنسا لضرب الهراطقة وسانده في عمله هذا الباب هونوريوس الثالث، ولم يستطع عمورى دي مونتفورت Amoury De Montfort ابن سيمون دى مونتفورت قائد الحركة الالبيجنسية مواجهة القوات الفرنسية فأقر سيادة لويس الثامن على أراضي الجنوب، وكان لويس قد تزوج من بلانش القشتالية Blanche of Castile وأنجب منها إبنا هو لويس المعروف بإسم القديس لويس أو لويس التاسع .

لويس التاسع ١٢٢٦ - ١٢٧٠م :

حكم لويس فترة طويلة، ويرجع ذلك إلى توليه الحكم قاصراً في الثانية عشر من عمره فتولت أمه الأرملة الشابه بلانش الوصاية عليه ورغم

جمالها وفتنتها لم تفكر في الزواج وصانت ما يجرى في عروقها من دم ملكي. فهى ابنه الملك الفونسو التاسع Alfons . IV ملك قشتاله ١١٥٨ - ١٢١٤م، وزوجة ملك هو لويس الثامن وأم ملك هو لويس التاسع . وحفيده ملك هو هنرى الثاني ملك انجلترا، ويبدو أن هذا الرصيد الهائل من الملكية دفعها إلى سلوك طيب حيال فرنسا وعوضت ما شاب جدتها اليانور زوجة هنرى من سلوك معيب.

وعلى أية حال تفرغت بلانش لتربية إبنها لويس تربية فاضلة حتى حكم لويس بنفسه منذ عام ١٢٣٥م، وخلال فترة حكمها نجحت في السياسة الداخلية والخارجية، ففي المجال الداخلي قامت بأعمال إجتماعية عظيمة، فقد أعتقت الكثير من أرقاء الأرض، وجهزت العديد من البنات الفقيرات للزواج، وتغلبت على البارونات الذين حاولوا إعادة حقوقهم القديمة. أما في المجال الخارجي فقد عملت على حقن الدماء عندما إشتد الصراع بين فرنسا وإنجلترا وفضلت الصلح بشروط مشرفه.

وعندما تسلم لويس التاسع مقاليد الحكم لم يبتعد عن السياسة التي رسمتها والدته، ففى مجال السياسة الداخلية عامل النبلاء معاملة طيبة مقابل وفائهم بما عليهم من الإلتزامات لرجالهم وللدولة، وشدد العقاب على المخالفين ، وأدخل العديد من القوانين التي تحرم الثأر وقتل العبيد والاتباع دون محاكمة، وأوجب المحاكمة بالأدلة والشهود محل المبارزة، وزاد من عدد المحاكم الملكية وتقلصت محاكم البارونات، ولكي يتأكد لويس من حسن سير القضاء قرر حق إستئناف أحكام محاكم البارونات أمام محكمة الملك المركزية، وبالاضافة إلى ذلك فقد كان لكل شاك الحق في مقابلة الملك ليعرض عليه مظلمته في القصر الملكي أو في أي مكان، وسجل المؤرخ الفرنسي جوانفيل Joinville المعاصر للملك

لويس، أن الملك كثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ويجلس تحت أحد الاشجار في غابة فنسن Vincenne وحوله رجاله، فيتقدم اليه كل مظلوم ويشرح له قضيته دون مراسم رسمية، وقد يفصل الملك في القضية في حينه، أو يحيلها إلى أحد رجاله الجالسين حوله إذا كان الأمر يحتاج إلى دراسة.

وخلاصة القول إن فرنسا نعمت برخاء لم تعرفه منذ قرون، وأمن طالما إشتاقت الناس إليه فأنتجوا وزادت ثروة فرنسا بدرجة كبيرة، وفيما يتعلق بالملك لويس وعلاقته برجال الدين، فقد عاملهم على أنهم بشر وعيوب البشر كثيرة، ولم يجد لويس من علاج سوى القدرة الحسنة، فكان لهم مثالاً، ولم يتورع عن معاقبة المخالفين، وحاكمهم أمام المحاكم الملكية بعد أن قيد سلطة المحاكم الكنيسة، وظل القانون بظله جميع المواطنين، ورغم علاقة لويس الطيبة مع البابا وية إلا أنه أصدر في عام ١٢٦٨ قانونًا قيد به حق البابا في تعيين رجال الدين في فرنسا.

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد سار لويس على المفهوم نفسه الذي سار عليه في علاقته بباروناته ورعيته، فقد كان يرى أنه بوسع الحكومة أن تسلك سلوكًا طيبًا مع جيرانها مع الحفاظ على كرامتها، فعمل على تجنب الحرب بقدر الإمكان رغم ما كان له من جيش منظم مدرب. ومن ذلك أن لويس رد إلى إنجلترا وإسبانيا أراضي إستولى عليها أسلافه دون وجه حق، حتى أن لويس لم يدخل في حرب منذ عام ١٢٤٣م حتى وفاته ١٢٧٠م بإستثناء الحروب الصليبية، وهي الحروب التي كانت عملاً مقدسًا من وجهة نظر الغرب الأوربي.

وكثيراً ما تدخل لويس بين دولتين للتوفيق بينهما، وهي سياسة مخالفة تمامًا للعصر الذي عاش فيه، فقد كان المألوف إثارة النزاع بين الأطراف، وأن تشتعل الحرب بينهم والمنتصر في الحرب ضعيف، واذا كان

لويس قد نجح داخل فرنسا فى الساحة الأوربية التي عرف فيها بإسم القديس لويس، وأصبح المحارب والسياسي البارع والتقي الورع الذي حكمه الملوك بينهم، فإنه قد فشل في حملاته الصليبية، فقد قام لويس بحملته الأولى المعروفه بالحملة السابعة عام ١٢٤٨م، واتجه إلى مصر ورسا عند مدينة دمياط وإستولى عليها، وحقق نجاحًا في أول الحملة حتى وصل إلى مدينة المنصورة، ولكن الدائرة دارت على قواته وهزم وأسر عام ١٢٥٠م. وعندما إفتدى نفسه بالمال أبحر إلى الشام ليقوم بحملة أخرى ليعوض فشله في مصر ولكنه فشل في الشام مثلما فشل في مصر، فعاد إلى بلاده مهزومًا ذليلاً، وحاول لويس أن يعوض فشله في الحملتين السابقتين، فإستعد في عام ١٢٧٠م بحملة أخرى كانت وجهتها تونس هذه المرة، ولما كان لويس مريضًا فقد مات بعد ما وصل إلى تونس، ولم يعد هذه المرة مهزومًا بل عاد جثمانًا ليكرمه الفرنسيون لما قدمه من أعمال عظيمه وأدخلوه في عداد القديسين، وظلت ذكراه عالقه بالأذهان بإعتبار أن عصره كان من العصور الذهبية التي عشاتها فرنسا . وكان للملك لويس جولات مع المغول فقد استقبل وأرسل السفارات اليهم وسوف نتناول هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

فيليب الثالث ١٢٧٠ - ١٢٨٥ م :

ورث فيليب الثالث دولة فرنسا القوية بفضل أعمال أسلافه، ولم يكن فيليب حاكمًا قويًا مثلهم ولكن الأنظمة التي ورثها ساعدته كثيراً، فلم تظهر عدم كفايته بقدر كبير. وقد لعب القدر دوراً كبيراً في حياة فيليب، فقد نجح في ضم بعض الأقاليم إلى فرنسا دون إراقة دماء، وترتب على ذلك القضاء على جانب كبير من نظام الملكية الإقطاعية في فرنسا وظهور الملكية المركزية.

ومن ذلك أن الفونسو أمير بواتيه أبحر وزوجته مع لويس التاسع إلى تونس في الحملة الصليبية، ولكنه مات هناك، وباعتبار فيليب ملكًا على فرنسا فقد آلت إليه أملاكهما الواسعة في إقليم تولوز وبروفانس وبواتيه .

فيليب الرابع ١٢٨٥ - ١٣١٤م :

عرف باسم «الجميل» لجمال وجهه، وقد سار على النهج نفسه الذي سار عليه أسلافه من تقويه السلطة المركيزة وإخضاع كافة الطبقات من رجال الدين والأشراف والعامة لحكم القانون. وفي المجال الاقتصادي شجع الصناعة والتجارة حتى لا يعتمد إقتصاد فرنسا على الزراعة فقط، ولتنفيذ هذه الأفكار إعتمد على رجال القانون الشبان فكانوا أعوانه ومستشاريه، ولعل ما دفع فيليب إلى ذلك، ما ورثه في فرنسا القوية بجهد أسلافه بفضل الحروب الصليبية التي لعبت فيها فرنسا دوراً كبيراً عاد عليها برفعه أدبية وروحية، هذا بالاضافة إلى عدم الاستقرار في إنجلترا بسبب الصراع بين الملوك والبارونات، وفي ألمانيا المفككه نتيجة الصراع بين الأباطرة والباباوات.

وسوف نتناول في هذا العهد - وهو عهد فيليب الرابع - أربع نقاط رئيسية الأولى وهي السياسة الخارجية للدولة مع دول أوربا خاصة إنجلترا، والثانية وهي علاقة فيليب بالباباوية والثالثة وهي الأحوال الداخلية لفرنسا في عهده، والرابعة والأخيرة وهي الجوانب الإدارية والتشريعية. وفيما يختص بالسياسة الخارجية فقد كانت سياسته ترمى إلى توحيد فرنسا الجغرافية لتكون فرنسا بحدودها السياسية، ومعنى ذلك طرد الانجليز من الأراضي التي يسيطرون عليها، ويلى هذه الخطوة تحقيق زعامة فرنسا على كل أنحاء أوربا، وقد ساعده في ذلك مجموعة من المستشارين الذين هيأوا له هذه الأفكار خاصة أن عهده عاصر نهاية الحروب الصليبية العسكرية في بلاد الشام، وبدأت أوربا تفكر في طريقة

أو أخرى لاستعادة الممتلكات الصليبية سواء بالطرق العسكرية أو غيرها.

ومن أجل تنفيذ ذلك أعلن فيليب عند توليه عرش فرنسا أن حدود بلاده السياسية هي نهر الراين في الشرق أي الحدود الألمانية، وأن حدودها في الجنوب هي جبال الألب، وحدودها الجنوبية هي جبال البرانس ، ومعنى ذلك أنه أغفل ذكر أي ممتلكات لإنجلترا في فرنسا، وهذا يعنى أن هناك صدامًا عسكريًا سوف يقع بين إنجلترا وفرنسا.

وبدأ فيليب تنفيذ خطته بزواج سياسي، فقد تزوج من حاكمه إقليم شامباني، وأخذ يخطط للسيطرة على جوين Guienne وجاسكوني Gac-sony وكلاهما يقع في أقصى الجنوب الغربي لفرنسا بالقرب من الحدود الأسبانية، وكانتا تابعتين لإنجلترا مع الاعتراف بالتبعية إلى الملك الفرنسي . كما تطلع فيليب أيضًا لإقليم الفلاندرز الذي يقع في أقصى شمال فرنسا وتفصل القناة الانجليزية بينه وبين إنجلترا . وترجع أهمية هذا الاقليم الى مراكز الصوف الصناعية وما يتبع ذلك من أعمال تجارية مع أوربا خاصة مع إنجلترا التي تصدر إليه الصوف الخام،حيث يتم صنعه وبيعه ولا يخضع للضريبة المقررة على الصادرات من الصوف، ومن هنا كان التنافس بين انجلترا وفرنسا على هذا الاقليم.

يضاف إلى ذلك التنافس بين إنجلترا وفرنسا على الثروة السمكية في بحر المانش وهو أمر أدى إلى الصدام بين الصيادين من الانجليز والفرنسيين، ثم إلى الصدام بين ملكي إنجلترا وفرنسا، وكانت الشرارة التي بدأ بها الصدام قيام بعض صيادى السمك بمقاطعة جاكسوني الانجليزية بالاعتداء على بعض صيادى السمك الفرنسيين، فأصدرت المحاكم الفرنسية أحكامًا ضد صيادي جاسكوني الذين لم ينصاعوا لهذه الاحكام.

وكان على فيليب الرابع أن يتدخل حفاظًا على كرامة أحكام محاكمة، وأستغل المتاعب التي تمر بها إنجلترا داخليًا. واستدعى ملك انجلترا لاستجوابه، باعتباره فصلاً من أفصاله، أي إقطاعيًا تابعًا له، وعليه الالتزام بالواجبات الاقطاعية، والواقع ان هذا الواجب الإقطاعي يعود إلى أن وليم الفاتح أول حاكم نورماني لإنجلترا كان أصلاً حاكمًا لمقاطعة نوماندیا الفرنسية، وبالتالى فهو تابع لملك فرنسا وتمسكت فرنسا بهذا الحق لفترات طويلة.

وعلى أية حال ورغم ما في الاستدعاء من شبه إهانة لملك إنجلترا إدوارد الأول ،إلا أنه وعد بالحضور في وقت لاحق نظراً لمشاكله مع أسكتلندا وايرلندا، وحتى يظهر حسن النوايا سلم بعض القلاع الانجليزية الموجودة في فرنسا إلى الملك الفرنسي كرهينة كوعد بالحضور، وحتى يهدأ الموقف، ولا يدفع ملك فرنسا للحصول على مساندة أسكتلندا أوايرلندا، أرسل إدوارد أخاه الأكبر أدموند إيرل لانكستر Edmund Earl of Lancaster إلى باريس. ولما كان الملك فيليب يرغب في غيرذلك وهو العمل على ضم الاراضي الانجليزية التي تقع في الاراضي الفرنسية، فقد رفض هذا التصرف وتمسك بالقلاع التي وضعتها انجلترا كرهينة لملك فرنسا، ومن هنا تصاعد الموقف وأعلن الملك الانجليزي إدوارد تحلله من التبعية الاقطاعية لملك فرنسا، وبدأ يعمل على التحالف مع بعض الأمراء في ألمانيا إستعداداً للحرب مع فرنسا.

لم يقف فيليب مكتوف الأيدى وبدأ العمل للتحالف مع إسكتلندا ومساندتها ضد ملك إنجلترا الذى يعمل على ضمها للتاج الانجليزي، وتصاعد الموقف وهاجم فيليب منطقة جوين، كما هاجم إقليم فلاندرز لتعاطف حاكمه مع ملك إنلجترا، وهنا تأثرت المصالح التجارية كثيراً من

جراء هذه الأحداث، كما تأثرت فرنسا كذلك. وعند هذه المرحلة إتفق الملكان في عام ١٢٩٨ على الصلح، وفضا كلاً منهما ما عقده من تحالف من أجل الحرب، بعد تدخل البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣م).

وثارت المتاعب ضد ملك فرنسا عندما رفض أهالي فلاندرز الخضوع للملك الفرنسي لأن في ذلك ضرر كبير على صناعة الصوف وعلى اقتصاد البلاد، وتصدى أهل الفلاندرز للقوات الفرنسية التي تقدمت لغزو بلادهم في عام ١٣٠٢م في معركة كورتراى Courtrai وهي أول معركة يتم فيها إنتصار لقوات المشاه على الفرسان منذ عرف الاقطاع في أوربا.

وعند هذه المرحلة إضطر الملك الفرنسي فيليب إلى عقد صلح نهائي في العام التالي (١٣٠٣م)، ومن شروط هذا الصلح بقاء جوين وجاسكوني في حوزة إنجلترا، وعودة كونت فلاندرز إلى بلاده حاكمًا عليها، ولم يكن ما فعله فيليب مع فلاندرز إلا هدنة مؤقته، فعندما مات البابا بونيفاس في نهاية العام وتحديداً في الحادي عشر من اكتوبر عام ١٣٠٣م عاد مرة أخرى لمحاولة إخضاع اقليم فلاندرز، وقد انتصرت القوات الفرنسية في بداية الأمر، ولكن قوات الفلاندرز نجحت في الصمود أمام القوات الفرنسية الأمر الذي دفع فيليب إلى مصالحة كونت فلاندرز في عام ١٣٠٥م.

وكانت علاقة فيليب الرابع عاصفة مع البابوية كذلك، وقد عاصر فيليب مجموعة من الباباوات هم البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧)، والبابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م)، والبابا كلستين الخامس (١٢٩٢ - ١٢٩٤م) والبابا بونيفاس الثامن، والبابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤م)، وأخيراً البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥

- ١٣١٤م)، وكان البابا بونيفاس من أهم وأقوى الشخصيات التي عاصرها فيليب الرابع. وفلسفة هذه العلاقة تدور حول السياسة التي كان يتبعها الملك الفرنسي وهي العمل على تقوية السلطة المركزية للملك وعدم تدخل رجال الدين في الشئون الدنيوية للبلاد. ومن جانب آخر كان البابا بونيفاس يعمل على تقوية السلطة البابوية داخل البلاد الأوربية، لذلك بدأ الصراع بين فيليب وبونيفاس عندما فرض الملك على رجال الدين في عام ١٢٩٤م دفع الضرائب .

ولكن رجال الدين رفضوا أوامر الملك ورفعوا شكواهم إلى البابا، والواقع أن مشكلة المال وحاجة ملوك أوربا إليه إما للحرب أو للاصلاح سادت جميع الممالك الاوربية في تلك المرحلة ، وخاف بونيفاس على السلطة البابوية داخل هذه الممالك وتصدى للملك الفرنسي ولغيره من الملوك وأصدر في عام ١٢٩٤م قراراً بعدم أحقية الملوك في فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة دون الرجوع إلى البابا، ومن الطبيعي أن يهدد البابا بقرار الحرمان من رحمه الكنيسة لكل من يخالف ذلك .

وإستاء ملك إنلجترا كذلك من قرار البابا، وبدأ الصراع بين إدوارد الأول وبين رئيس أساقفه كانتربوري ، وهو ما يذكرنا بالصراع الذي دار بين هنرى الثاني وتوماس بكت، وفي فرنسا كان الصدام بين فيليب الرابع وبين البابا نفسه، وبدأ فيليب بإتخاذ بعض الاجراءات التي تضر بمصالح البابا المادية والأدبية، وعن الجانب المادي حرم فيليب تصدير الذهب والفضة إلى خارج فرنسا، وفي هذا التحريم عدم إرسال الأموال إلى البابا التي كانت ترسل اليه من فرنسا.

وعن الجانب الأدبي أصدر فيليب قراراً بتحريم دخول الأجانب إلى فرنسا أيًا كانوا هؤلاء الأجانب، وفي هذا القرار تحريم بدخول المبعوثين البابويين إلى فرنسا. إستعد فيليب ولأول مرة في التاريخ لدعوة مجلس

الطبقات لإتخاذ موقف محدد تجاه هذه المشكلة، وصعد فيليب الرابع المشكلة عندما قبض على المبعوث البابوي وسجنه، كما تم إحراق الرسالة التي أرسلها البابا إلى فيليب على مرأى من الجميع في باريس في الحادى عشر من فبراير عام ١٣٠٢م. وتبدل الموقف لصالح الملك عندما ساند رجال الدين الفرنسيون ملكهم وكتبوا إلى البابا يفندون إدعائه وانهم يساندون ملكهم مهما كانت الظروف.

وفي تلك المرحلة كان يعيش في فرنسا أحد رجال القانون البارزين وهو وليم إف نوجارت William of Nogaret، الذي أتهم أجداده بالهرطقة في جنوب فرنسا في عهد البابا أنوسنت الثالث، وكان وليم هذا شديد العداء للباباوية، وفي جلسة مجلس الطبقات التي عقدت بقصر اللوفر في باريس عام ١٣٠٣م هاجم وليم البابا وطالب بمحاكمته وذكر أن البابا عديم الأهلية، وإتهمه بالهرطقة، كما إتهمه أيضًا بالرشوة وأنه عديم الشرف وبعض الجرائم الأخرى. ورغم أن كل هذه الإدعاءات كانت غير حقيقية إلا أن النبلاء ورجال الدين الفرنسيين، وكذلك بعض النبلاء الايطاليين قد أيدوها.

وترك البابا مدينة روما واتجه جنوبًا إلى مدينة أنياني Anagni هروبًا من حرارة الصيف، وفي مدينة انياني بلغه ما دار في فرنسا، فاستدعى الكرادلة لعقد مجلس يعلن فيه قرار الحرمان من رحمة الكنيسة ضد الملك الفرنسي، ويعلن أن الشعب الفرنسي في حل من الولاء الذي قدمه للملك، وتحدد الثامن من سبتمبر عام ١٣٠٣م لإعلان ذلك . وصمم فيليب على منع البابا من أصدار هذا القرار ، فتقابل مع وليم أف نوجارت وسكيارا كولوناSciarra Colonna وطلب منهما التوجه إلى مدينة انياني لإثارة المواطنين هناك ضد البابا، وقد وصلا إلى المدنية

ومعهما جماعة مسلحة وهم يصيحون «الموت للبابا» وطول الحياة لملك فرنسا .

واتجه كولونا ومعه حوالى ثلاثمائة من الفرسان إلى مقر البابا وطالبوه بالاستسلام، وعند هذه المرحلة طالب البابا بمهلة لمدة تسع ساعات وقد وافق كولونا على طلبه. ولم يكن بوسع البابا خلال هذه المدة أن يطلب من أهالي المدينة الدفاع عنه أو نجدته، فقد هرب خدمة، وحتى ما كان عنده من أقارب من حوله، وفي النهاية إقتحم الفرنسيون القصر وأشعلوا فيه النار وتم القبض على البابا ونقله إلى روما ثم ما لبث أن مات بعد أسابيع قليلة في الحادى عشر من أكتوبر ١٣٠٣م حزينًا.

وهكذا جاهد البابا بونيفاس قدر إستطاعته ولكنه فشل، بعدما أضناه الكفاح، واذا كان فيليب قد تدخل من قبل في شئون الكنيسة وأرضها التي بلغت حوالي ربع الأراضي الفرنسية، فإنه تدخل هذه المرة في تعيين البابا نفسه، وعين البابا كلمنت الخامس ونقل مقر الباباوية من روما إلى أفنيون في عام ١٣٠٩م ،وظلت هذه المدينة مقراً باباويًا حتى عام ١٣٧٧م، وهي الفترة التي تعرف في التاريخ باسم الأسر البابوي، حكم خلالها ثمانية باباوات. وهكذا إنتصرت فرنسا على الباباوية بصورة لم ينتصر بها ملكًا أو امبراطوراً من قبل، وانقلب الوضع في هذه المرحلة وأصبح رجال القانون هم الحاكمون بعد أن استعان بهم فيليب في إدارة شئون الدولة، على العكس من العهود السابقة في أوربا حيث كان يستعان برجال الدين لضرب الاقطاع وإضعافه.

والجانب الثالث في هذا الموضوع هو الاحوال الداخلية لفرنسا في عهد فيليب الجميل، ومن الاحوال الداخلية الجوانب الإقتصادية، وقد كان الملك محتاجًا بصفة دائمة للمال لتنفيذ مشروعاته الداخلية والخارجية، ومن هنا إتخذ الملك بعض الإجراءات الصارمة في بعض الأوقات، وابتدع انواعًا

جديدة من الضرائب، ومما فعله الملك محاولته في عدم سيطرة الاجانب أو اليهود على الاحوال الاقتصادية في فرنسا، لذلك قام بطرد رجال المال الأجانب وكان معظمهم من اللمبارديين الايطاليين وذلك في عام ١٢٩١م، وفرض على اليهود تقديم نصف أرباحهم إلى التاج الفرنسي في بداية الأمر، ثم عاد وصادر أملاكهم وأموالهم وطردهم من فرنسا في عام ١٣٠٦م، ولكن فيليب أدرك خطأ تصرفه هذا فأدهم ثم عاد وطردهم، وتكرر ذلك أكثر من مرة، والواضح أن ذلك يرجع إلى حاجة فيليب للأموال التي يصادرها منهم عند طردهم .

كما وقف فيليب موقفًا متشدداً من جماعة فرسان الداوية Templars وهي جماعة عسكرية تأسست في بيت المقدس عام ١١١٨م ولعبت دوراً بارزاً في الحركة الصليبية داخل وخارج بلاد الشام مثلها مثل جماعة الاسبتارية وجماعة التيوتون. والحقيقة أن جماعة الداوية.

لعبت إلى جانب نشاطها العسكري دوراً كبيراً في الانشطة المالية مما عاد عليه بالثراء الوفير حتى بعد سقوط الممتلكات الصليبية في بلاد الشام في أيدى المماليك. وتمتع أفرداها بثراء فاحش بعد إنصرافهم عن الجوانب العسكرية، وفي سبتمبر عام ١٣٠٧م أصدر فيليب أوامره سراً بالقبض على جميع أفراد جماعة الداوية داخل فرنسا، ومصادرة أموالهم وأراضيهم . ومن أجل مصادرة أموالهم شرعًا دعا البابا كلمنت وفيليب الرابع إلى مجلس عام عقد في مدينة فين Vienne التى تقع إلى الجنوب من مدينة ليون في اكتوبر عام ١٣١١م، وقد حضر هذا المجلس عدد كبير من رجال الدين، وكان الهدف من عقد هذا المجلس هو الدعوة لإرسال حملة صليبية الى بلاد الشام بالتحالف مع المغول، ومن أجل أيضًا إعادة تنظيم الكنيسة والنظر في شئون أملاك جماعة الداوية وتأييد تصرفات الملك فيليب الرابع ضد البابا الراحل بونيفاس الثامن .

وما يعنينا من هذا الأمر قضيتان هما : الحملة الصليبية التي ترسل إلى بلاد الشام والتحالف مع المغول لمحاربة المماليك، وهذا أمر لم ينفذ ،وسوف نناقش هذا الموضوع فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . والقضية الثانية هي أن المجلس قرر إدماج جماعة فرسان الداوية مع جماعة الاسبتارية وهو ما لم توافق عليه جماعة الداوية، لذلك إتخذ البابا بعض الاجراءات للتحقيق معهم.

وبذلك تشجع الملك فيليب وأصدر قراراً في عام ١٣١٢م بحل تنظيم جماعة الداوية ومصادرة أملاكهم وعين موظفين بدلاً منهم للعمل تحت إشراف هيئة ديوان النفقات، ولم يكتف الملك الفرنسي بذلك بل قبض على جميع فرسان الداوية في فرنسا بما فيهم مقدم الجماعةجيمس أف مولاى James of Molay الذي أعدم حرقًا، واتهم فيليب أفراد الجماعة بالعمل ضد المسيحية وحاكمهم وانتزع منهم إعترافًا بإدانتهم.

أما ما قام به فيليب في الجانب الإداري والتشريعي، فقد قام فيليب باستبعاد جميع الاقطاعيين من الهيئة القضائية ، وهي برلمان باريس ،وحل محلهم مجموعة من رجال القانون يدينون بالولاء للملكية الفرنسية. كما أنشأ الملك محكمة مالية للنظر في جميع المشاكل والقضايا المالية. ولعل أفضل ما قدمه فيليب إلى بلاده دعوة مجلس طبقات الامة للانعقاد في عام ١٣٠٢م، وكان هذا المجلس الذي دعى لأول مرة يضم ممثلين عن رجال الدين والنبلاء ورجال الأعمال، وسيلعب هذا المجلس دوراً كبيراً في تاريخ فرنسا في المراحل المقبلة.

ورغم هذه الاصلاحات إلا أن أثرها كان سيئًا للغاية بعد وفاته، فرغم حب الشعب الفرنسي للملك فيليب وإعجابه بشجاعته إلا أنه صب اللعنات على ذكراه فقد رأوا فيه ملكًا مستبداً حطم كيان فرنسا ، وأن اصلاحاته المالية عادت بالضرر على الدولة، فمن المعروف إقتصاديًا أن

رسل المال جبان وأنه يهرب من الحكم المطلق، لذلك فر رجال المال من اليهود واللمبارديين أمام تعسفاته في جميع المال ، فتعطلت التجارة وشلت حركتها . وخلاصة القول أن الرخاء الذي ورثه فيليب عن أجداده كان يسير بالقصور الذاتي في عهد فيليب ثم إضمحل بعد وفاته. وإذا ما إستثنينا هذا الجانب نجد أن فرنسا تقدمت تقدمًا رائعًا في بعض النواحي الإقتصادية والتشريعية والأدبية والفنية، فقد جذبت الصناعات رقيق الأرض، وظهرت طبقتا رجال الأعمال ورجال القانون وطغتا على طبقة رجال الدين، وأصبح للطبقتين الجديدتين صوت في مجلس الطبقات وهو المجلس الذي ناصر الملك ضد البابوية.

وظهر في عهد فيليب شعراء الفروسية الذين كتبوا للحب العذرى في اقليم بروفانس جنوب فرنسا ، وظهرت أيضًا قصص الملاحم في شمال فرنسا ، وفي عصر فيليب أيضا ظهر إثنان من المؤرخين هما جوانفيل الذي أرخ للملك لويس التاسع وفلهاردوين Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة التي هاجمت القسطنطينية عام ١٢٠٤ وأقصت الحكم البيزنطي حتى عام ١٢٦١م.

وفي عهد فيليب أيضًا ارتقت جامعتا باريس وأورليان وأعيد تنظيمهما ، وظهرت الكنائس الكبيرة في سانت دنيس ونوتردام في تحفه معمارية رائعة في فنها القوطي. والأهم من ذلك كله أن الوحدة الوطنية سادت هذه المرحلة لتعمل على وحدة البلاد بدلاً من النزعة الإقليمية الإقطاعية.

وفي ختام الحديث عن عهد فيليب نقول أن الفضل في هذا كله يرجع إلى طبقة رجال القانون - الذين سيطروا على مقاليد الإدارة - بعقولهم المفتوحة بدلا من رجال الدين ذوى العقول الجامدة التي مثلت تلك العصور.

وفي الرسائل التي تركها بطرس دوبوا Pierre Bubois وهو من رجال القانون تتضح الفجوة الواسعة بين العقليتين. ومما قاله أن أموال الكنيسة يجب أن تكون في خدمة الدولة، ويجب فصل كنيسة فرنسا عن روما والا يكون للباباوية سلطة زمنية على الاطلاق ، وشطح بطرس عندما قال : يجب أن يكون فيليب إمبراطوراً على أوربا بأسرها ويتخذ من القسطنطينية مقراً له، ولكنه تجاوز ىكر عصره بقرون عندما طالب بتكوين محكمة دولية للفصل في النزاع القائم بين الدول، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أي دولة مسيحية ترفع سلاحها ضد دولة مسيحية أخرى، وإن يمنح النساء جميع الحقوق السياسية كالرجال، وطالب بإنشاء معهد للدراسات الشرقية في روما. ولا شك أن مثل هذه الأفكار لم نسمع عنها إلا في القرن العشرين، وهذا يدل على عبقرية بطرس وسعة أفق وطموح تجاوز الحد .

وتعاقب على عرش فرنسا بعد فيليب ثلاثة من أولاده كان آخرهم شارل الرابع ١٣٢٢ - ١٣٢٨م، ومات الأخير دون ولد يرث العرش، وكان أقرب وريث من الذكور هو فيليب دي فالوا Philpe de Falois ابن أخي فيليب، فاعتلى عرش فرنسا ١٣٢٨ - ١٣٥٠، ومع تولى آل فالوا العرش بدأت أسرة جديدة على عرش فرنسا وانتهى حكم آل كابيه.

ثالثا : ألمانيا :

ويعاصر الحروب الصليبية في الشرق وظهور المغول في آسيا كقوة عسكرية أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen في ألمانيا، وواقع الحال أن الأسرةالسالية إنتهت بوفاة آخر حكامها لوثير الثاني Lothaire II (١١٢٥ - ١١٣٨م) ولم يكن لوثير بالرجال القدير ليرفع ألمانيا من عثرتها بعد الصراع الطويل مع الباباوية، كما أن لوثير نفسه لم يكن مقبولاً من أمراء سوابيا Swabia وهم آل الهوهنشتاوفن .

لقد برز في ألمانيا رجلان قويان بعد موت لوثير، الأول هو هنرى المتكبر (ت ١١٣٩م) دوق سكسونيا ثم بافاريا أيضًا. وهنرى هذا هو حفيد ولف الرابع Welf IV (ت ١١٠١م) ،ولذلك كان هنرى عميد البيت الولفي وعرف أتباعه بالولفيين، والثاني يدعى كوزاد هوهنشتاوفن دوق سوابيا، وكونراد هذا حفيف هنرى الرابع من الأم. ويطلق على الهوهنشتاوفن أيضا الجبليون Ghibelline نسبة إلى قريةWaiblingen في اقليم سوابيا . وعلى ذلك أصبح أمامنا هنرى المتكبر زعيم الولفيين، وكونراد رغيم الجبليين، ولما كان هنرى رجلاً قوياً فقد خشى النبلاء قوته وسيطرته عليهم، وهو ما كانت تراه الكنيسة أيضا، لذلك إختار النبلاء كونراد ملكًا عليهم. ومن هنا ظهر التنافس بين الحزبين الولفيين والجبليين، وإنتقل صدى هذا التنافس إلى إيطاليا حتى أصبح مفهومًا لديها مع مطلع القرن الثالث عشر أن كلمة الجولف تعنى المعارضة للجبليين أو الهوهنشتاوفن. أما في إنجلترا فقد أصبح مفهوم هذا التنافس يعنى إن الجبليين أو الهوهنشتاوفن هم أنصار الإمبراطورية، أما الجولفيون هم أنصار البابوية في صراعها مع الامبراطورية، ولعل الأحداث التي وقعت في عهد أسرة الهوهنشتاوفن في صراعها مع البابوية تفسر هذا المفهوم.

كونراد الثالث ١١٣٨ - ١١٥٢م :

قام الصراع بين الجبليين والولفيين مع إعتلاء كونراد عرش ألمانيا، وإذا كان كونراد قد ملك السلطة وكان بوسعه القضاء على هنرى، فإن ولاء الولفيين لزعيمهم هنرى كان أشد من بطش كونراد . وعلى أية حال فقد إتبع كونراد كافة السبل للقضاء على خصمه هنرى ، وسادت البلاد حربا أهلية مع بدايات عهد كونراد . ، وكان لهذه الحرب أثرها الكبير على ألمانيا فى الداخل والخارج . ونجح كونراد فى أول الأمر فانتزع بافاريا من

هنرى ، وخطط لضم سكسونيا . ومات هنرى المتكبر فجأة فى عام ١١٣٩م أى بعد عام واحد من تولية الملك كونراد ، وإرتاح كونراد لموته ، ولكنه إصطدم بعناد أهل سكسونياالذين ناصروا أسرة هنري وساندوا أبنة هنرى الاسد الذى كان فى العاشرة من عمره ونصبوه دوقاً على سكسونيا ، وظل العداء مشتعلاً حتى عام ١١٤٢م حين لجأ كونراد إلى الصلح وأعاد الى الولفيين بافاريا وسكسونيا لينقذ بلاده من الحرب الأهليه .

وإذا كان كونراد إصطدم بالحرب الأهليه مع بداية حكمه فى عام ١١٣٨م فإنه إصطدم فى العام الثانى ١١٣٩ بقرارات البابا أنوسنت الثانى Innocent II(١١٣٠ - ١١٤٣م) التى تعطى البابوية السلطة العليا على رجال الدين فى كل أنحاء اوربا ، فإهتز عرش كونراد فى الداخل والخارج ،ولعل هذا مادفعه الى عقد الصلح مع الولفيين ليتفرغ للباباويه . ولكن كونراد كان أضعف من مواجهة البابا . وحاول كونراد أن يعوض فشله مع الأمراء والبابوية، فخرج فى عام ١١٤٨م ومعه سبعون ألف محارب وإنضم إلى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ومعه لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧ - ١١٨٠م) ،ولكن الحملة فشلت فشلاً زريعًا وعاد كونراد إلى ألمانيا دون نصر يقوى به على الأمراء والبابابويه . ويبدو أن هذا الفشل قد شجع بعض الامراء داخل ألمانيا على تعزيز مركزهم وتقوية نفوذهم، ورغم خضوع كونراد للباباوية بهدف الحصول على اللقب الإمبراطوري، فإنه لم يحصل عليه، فقد مات عام ١١٥٢م وهو في طريقه إلى روما للحصول على اللقب .

فريدريك الأول باربا روسا Barbarosa (١١٥٢ - ١١٩٠م)

توفي كونراد والتنافس على أشده بين الجبليين والولفيين ، ولم يكن

من وريث للملك كونراد سوى فريدريك المعروف بالاول فهدأت النفوس، ولأن فريديك هذا كان إبن فريدريك دوق سوابيا أخ كونراد ، وأمه هى جودث Judth أخت هنري المتكبر وعمة هنرى الاسد. وهكذا أصبح تعيين فريدريك ملكاًعلى المانيا مرضياً للطرفين المتصارعين .

عرف فريدريك باسم بارباروسيا نسبه الى لحيتة الحمراء ، وكان ذا عقليه ناضجه وعزيمه ماضيه ، ومن حسناته أنه عمل لخير المانيا وآخى بين الجبليين والجلوفيين وجنب البلاد فوضى الحرب الأهليه ، وأعاد الى اسرة هنرى الاسد دوقتى بافارياوسكسونيا .وتطلع فريدريك إلى اللقب الامبراطورى منذ إعتلائه العرش ، ولكنه كان مضطراً لانهاء الحرب الأهليه التى ورثها من أبيه ، وما أن إنتهى من تسوية أحوال المانيا حتى وافته الفرصة بدعوة البابا يوجين الثالث Eugeius III (١١٤٥ - ١١٥٣ م) لمساعدته ضد أهل روما والنورمان نظير حصول فريدريك على التاج الامبراطورى. واتجه فريدريك الى روما عام ١١٥٤م حيث كان يوجين قد مات وتولى عرش البابوية هادريان الرابع Hadrian IV (١١٥٤ - ١١٥٩ م) . وعند إجراء مراسيم التتويج تغاضى فريدريك من إمساك زمام جواد البابا ومساعدته على النزول إلى الارض .

تعقد الموقف ونزل البابا عن على فرسه بمفرده ،ورفض منح اللقب الامبراطورى للملك فريدريك . وظل الحال يومين دار خلالها نقاش بين رجال الملك والبابا وفى نهاية الامر رضخ الملك لطلبات البابا ، وأعيدت مراسيم التتويج من جديد وأمسك فريدريك بزمام جواد البابا طبقا للتقاليد المتبعه في مثل هذه الحالات وتمت مراسيم التتويج فى يونيه عام ١١٥٥م .

بعد تتويج فريدريك إمبراطوراً أصبح أقليم لمبارديا تابعاً له ، لذلك أرسل الامبراطور حكاما من قبله ليصرفوا شؤون البلاد اللمباردية .

ورضخت بعض المدن للأمر واعترض بعضها وعلى رأسها مدينة ميلانو ، ولم يكن أمام فريدريك إلا أن يفرض سيادته بحد السيف ، فخرج فى عام ١١٥٨م ليخضع البلاد الرافضه لسيادته ، ويرى البعض أن فريدريك كان يقصد من وراء ذلك أيضاً السيطرة على المدن البحرية الإيطالية لتكون فى خدمة التجارة الالمانيه فى حوض البحر المتوسط .

وجاءت المشكله عندما فرض فريدريك سيطرته على الاراضى البابَاوية فاعترض البابا على هذا الأجراء الذى أعتبره مقدمة لفرض نفوذ فريدريك على حقوق البابا ، ولم يعبأ الامبراطور باعتراض البابا ، فرد الاخير بإنزال قرار الحرمان على الإمبراطور . وجلت القلوب لهذه الاحداث ولكن فريدريك لم يتراجع وبدأ بالزحف الى ميلانو باعتبارها زعيمة للقوى المعارضه ، وحاصرت القوات الالمانيه مدينة ميلانو وظل الحصار حوالى ثلاث سنوات ، واخيراً إستولى عليها فريدريك بعدما أهلكتها المجاعه ، ولم يكتف الامبراطور بسقوط المدينة بل أضرم فيها النار .

خشيت وغضبت بقية المدن الايطاليه من هذا التصرف الذى ربما لحق بها فى القريب العاجل ، فكونت هذه المدن حلفاً فى أواخر عام ١١٦٨م وعرف هذا الحلف بأسم العصبة اللمبارديه Lombard League.وتصدت هذه العصبه لقوات الامبراطورية وإنتصرت عليها فى عده مواقع منها معركة لينانو Legnano عام ١١٧٦ م ، وفى العام التالي عقد صلحاً بين البابا وفريدريك عرف باسم صلح البندقيه ١١٧٧ م . وعلى أثر ذلك أصبح للمدن الايطاليه الحكم الذاتي وتفككت العصبة اللمباردية ، واحتفظ الامبراطور فريدريك بالسيادة الأسميه على هذه المدن .

ومن ذلك يتضح أن فريدريك لم يوفق تماماً فى ايطاليا ، ولكنه عوض ذلك فى بعض الجوانب الاخري فى أوربا ، فقد نجح فى تدعيم سلطانه فى

هنغاريا وبوهيميا وبولندا ، وكما أنه نجح فى ان يكون له الحق فى تعيين بعض رجال الدين ، وتطلعتِ أمال فريدريك الى أبعد من أوربا لعله كان يرغب فى بعث للامبراطورية الرومانيه بمساحتها القديمه ، فخرج فى عام ١١٨٩م على رأس القوات الالمانية التى قدرها البعض بحوالي مائه ألف ،واتجه ليصل الي الاراضي المقدسه براً عبر أسيا الصغري لينضم الى هذه الحمله الصليبيه المعروفة بالثالثة وعلى رأسها ريتشاد الاول قلب الاسد ملك انجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ،ولكن أحلام فريدريك لم تتحق ،فلم يكون الامبراطوريه التى حلم بها ، ولم ينضم لقوات الحمله الثالثه ، فقد مات غريقا فى نهر سالف Seleph فى إقليم قيليقيه بأسيا الصغرى عام ١١٩٠م

هنرى السادس ١١٩٠ - ١١٩٧م

خلف هنري والده فريدريك على العرش وفكرة الامبراطورية الرومانية العالمية لا تبرح عقله ، ونجح فى ذلك نجاحاً ملموساً، فقد تمكن من اخضاع ايطاليا عدا المكتلكات البابا وية حتى لا يجر على نفسه المتاعب، وليجد فى البابا وية سندا له، ثم وسع ممتلكاته جنوباً وضم جنوب ايطاليا وصقليه وانهى الحكم النورمانى بهما . وبقضائه على الحكم النورمانى يكون هنرى قد قضى على أقوى حلفاء البابا وية. واذا كان ما نجح فيه هنرى السادس بالحرب، فإنه نجح فى مجالات اخري دون حرب ، فقد طلبت إمارة انطاكية الصليبية الخضوع للامبراطورية باعتبار أن الامارة نورمانية الاصل، وأن زوجته كونتسانس هى الوريثه لعرش النورمان فى صقليه وايطاليا. كما طلبت مملكة قبرص الشئ نفسه وكذلك أمارة قليقيه الأرمينيه. وعندما وقع ريتشاد أسيراً فى ايدى ليوبولد Leopold دوق النمسا أثناء عودته من الحملة سلمه إلى هنري

السادس الذى إحتفظ به مده عامين، وجال بخاطر هنرى السيطره عسكريا على الامبراطوريه البيزنطية ، كما تطلع الى فرنسا وأسبانيا ، وتصور نفسة حاكما على الامبراطورية الرومانيه بعد بعثها . وأعد قواته للخروج بحمله صليبيه الى الاراضى المقدسه ، وقد وصلت الحمله الي الشام ولكن هنرى لم يلحق بها فقد مرض ومات فى صقليه عام ١١٩٧م ، بعد أن حكم الامبراطوريه الرومانيه المصغره لمده سبع سنوات ، وعن عمر بلغ الثلاثه والثلاثين فقط .

فريدريك الثانى ١٢١٢ - ١٢٥٠م

كان فريدريك الوارث الوحيد للامبراطور هنرى السادس ، وكان فريدريك فى الثالثه من عمرة آنذاك ، لذلك دبت الفوضى فى أنحاء المانيا قرابة عشرين عاماً تنازع السلطه خلالها الحزبان القديمان الولف والهوهنشتاوفن ، ورشح الولفيون أوتوأف برونزيك Otto of Brunswick(١١٩٧ - ١٢١٢م) ويعرف ايضا باوتو الرابع . كما رشح الهوهنشتاوفن فيليب دوق سوابيا (١١٩٧ - ١٢٠٨م) ويعرف ايضا باسم فيليب الرابع . وادعى كل منهما الحق لنفسه فى حكم الامبراطوريه .وقامت الحرب الاهليه بين الحزبين ، ولعبت السياسه البابا ويه والفرنسيه والانجليزيه دوراً كبيراً فى هذا الصراع حتى عام ١٢٠٨م حيث مات فيليب الرابع .وهدأت الاحوال نسبياً حتى عام ١٢١٢م ، عندما حكم أوتو الرابع بدعم من البابا أنوسنت الثالث ولما بلغ فريدريك سن الرشد إشتعلت الحرب مره اخرى وأنتهت بانتصار فريدريك بعد ما تخلى البابا عن أوتو، وساعد فريدريك الذى ظل تحت وصاية البابا منذ موت ابيه .

واذا جاز لنا ان نصف الامبراطور فريدريك فى أسطر قليله ، وفى ذلك ظلم له ، فيمكن القول أن فريدريك كان محارباً وسياسياً مثقفاً لدرجة

عـاليـه ، مشـجـعـاً للعلوم بدرجـة تفـوق ثقافـتـه وجنديتـه . فـقـد تحـدث فـريـدريك بلغـات مـتـعـدده ، ونظم الشـعـر ، وشـجع العلوم والـفنون ، وله افـكاره فـى الفلسـفه والطب والـهندسـه وعـامل رعـايـاه مـعـاملة بعـيـدة عن التعصب فكان منهم المسلم والمسيحى واليـهودى وتكلم اللغه العربيه وبدا وكأنه شرقى العادات ، هذا بالاضافه الى حماسه للتجديد والثوره على القديم ، ولا عـجب أن وصفه المؤرخ متى الباريسى Matthew Paris بأنه العجيب الذى بدل الدنيا وأثار إعجابها Mundi et immutater mirabi-lis أو اعجوبة العالم . ومن العجيب أن نجد مثل هذا الامبراطور قد فشل فى مجال السياسه فى نظر معاصريه، ويرجـع ذلـك الـى آرائـه المتقدمة لعصره التـى أدت إلى اصطدامـه بالكنيسه وعلى رأسها البابا أنوسنت الثـالث وهونـوريوس الثـالث HonoriusIII (١٢١٦ - ١٢٢٧م) وجريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١م) .

والاسـبـاب المبـاشـرة لهـذا الصـدام ترجع الى عـدة عـوامل منهـا ، أن الامبراطور فريدريك عمـل على ضم ايطاليا وصقليه للتاج الامبراطورى، ولكن البابا وية وبعض المدن الايطاليه وجدت غير ذلك ، ونجحت البابا وية ومن يـؤيدها فى النهاية .

ومن أسباب الصدام أيضاً موقف الامبراطور من الحملات الصليبية فهو الرجل الذي حكم العقل قبل السيف ، وكان لا يرى استخدام العنف طالما وجد سبيلا" لغير ذلك . والمهم أن فريدريك تخلف عن قيادة الحملة الصليبـيـة الخامسة كما سبق أن وعد بذلك ، ثم خرج على رأس قواته بالحمله الصليبـيـة السادسة بطريقة لم ترض عنها البابا وية، وكان لذلك كله عواقب وخيمه على الامبراطور .

ومـوجـز هذه الاحـداث أن الحـمله الخـامـسـه (١٢١٨ - ١٢٢١ م) استـعدت للرحيل بعد أن اقسم فريدريك فى حماسه الشباب - لارضاء

البابوية - بقيادتها ، ولكن إعتذر ووعد باللحاق بها . ووعد اكثر من مرة بالسفر ولكن إعتذر كذلك وطلب التأجيل ، وظل هكذا ثلاث سنوات واكثر حتى منيت الحمله بالفشل فى خريف عام ١٢٢١م، وحّمل البابا والغرب الاروبى مسئولية هذا الفشل للامبراطور ، وصدر ضده قرار الحرمان .

ووعد فريدريك بحملة أخرى ثم أجلها ، وأخيراً خرج بالحملة ولكن البابوية إعتبرته محروماً من الكنيسة ولا يصح له قيادة حملة صليبية. ورغم ذلك خرج فريدريك بالحملة المعروفة بالسادسة ونجح فى ضم بعض الأراضى المقدسة بالوسائل السليمة الى الاراضى الصليبية ، وصادفت حملته هذه نجاحا لم تحصل أية حملة صليبية أخرى عدا الحملة الاولى ، ورغم ذلك عاد الى أوربا ليواجه غضب الكنيسة .

وإصطدم فريدريك مرة اخري بالبابوية عندما أعاد تنظيم دولته وأقام المجالس العامة التى جمعت نواباً من النبلاء ورجال الدين وأهل المدن ، لان هذه النظم البرلمانية المتطورة فى حقل هذه العصور لم تجد هوى نفس البابوية والايطالية، وظنت الكنيسة أن فريدريك يسعى الى هدمها .ولم يجد فريدريك فى الرد على الكنيسة غير مهاجماتها بالحجه والبرهان، وكتب فى عام ١٢٢٧م أن المسيحية الاولى قامت على الفقر والبساطة وليس لاحد أن يشرع للناس قواعد غير التى شرعها السيد المسيح ، ولكن مثل هذه الكلمات لم يفهمها سوى طائفة الفرنشسكان التى أسسها القديس فرانسيس أف اسيس ST . Francis Of Assisi، وهى الطائفة التى نادت بمثل هذه المبادى فى هذه المرحلة . وظل الصدام بين البابوية والامبراطور حتى مات عام ١٢٥٠م ، بعد أن خلف وراءة إسماً لازال الناس يختلفون فى تقديره بين العظمة والعبقرية والإلحاد .

رودلف الاول ١٢٧٢ - ١٢٩١ م (هابسبورج)

واذا كان قد سبق عهد فريدريك الاول عشرون عاماً من الفوضى ، فقد لحقه ايضاً اكثر من عشرين عاماً من الاضطراب ، وهى الفتره الممتدة من ١٢٥٠م وحتى ١٢٧٢م ، فبعد وفاة فريدريك تولى عرش المانيا ابنه كوانراد الرابع ConradTV ١٢٥٠ - ١٢٥٤ م ، ولكنه وجد معارضة من وليم كونت هولندا William count of Holland،وقد ساد هذه المرحله فتره من الحروب الاهلية داخل الامبراطورية الرومانية . وبعد وفاة كوانراد تم انتخاب ابنه كونرادين Conradinولكنه مات فى عام ١٢٥٦ م، ثم مات ايضا وليم كونت هولندا . وانقسم الألمان إلى قسمين ، فقد رشح القسم الاول الايرل الانجليزى ريتشارد أف كورنول Richard of Corn-wall ، ورشح الجانب الثاني الفونسو العاشر Alfonso X ملك قشتاله (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) . وهنا سادت الفوضى ألمانيا وأصبح من الصعب السيطرة على الموقف . وعرفت الفتره هذه وحتى عام ١٢٧٢ م باسم عصر الفوضى الكبرى . وإستغل الاقطاع هذه الاوضاع وقوى من نفوذه ، وسيكون لذلك أثراً كبيراً على المرحله التاليه فى ألمانيا .

وفى عام ١٢٧٢م تم إنتخاب رودولف أف هابسبورج Rudolph of Habsburg ليبدأ عصر أسرة الهابسبورج التى ظلت سلالتها تحكم ألمانيا حتى الحرب العالميه الاولى .ويرجع أصل هذا الاسره الى مدينة هابس Habsالتى تقع فى دوقية سوابيا Swabia، وقد أصبح لهذه الاسرة شأن كبير منذ عهد الامبراطور فريدريك بارباروسا .وكان للباباوية دخلا كبيراً فى تولى رودلف عرش الامبراطورية لانه كان يخشى من تفكك ألمانيا مما يؤدى الى توسع فرنسا فى ألمانيا وكذلك توسع شارل الاول أف أنجو Charles of Anjouحاكم صقليه (١٢٦٦ - ١٢٨٥م) .

تولى رودولف عرش المانيا وهو فى الخامسه والخمسين من عمره وحكم من (١٢٧٢ - ١٢٩١ م) ، والواقع أن رودولف حكم ألمانيا فى فترة صعبه في تاريخ البلاد . وكان عليه أن يعيد النظام داخل المانيا بعد فترة الاضطراب والحروب الاهلية الى سادتها لاكثر من عشرين عاماً . ويمكن التعرف على هذه الصفحات على بعض المشاكل الداخلية والخارجة التى عالجها رودولف . والمشلكة الاولى كانت تحديد موقفه من البابا وية حتى يمكن معالجة بقية المشاكل ومنها الفونسو العاشر الذي رفض ان يتنازل عن لقب إمبراطور الامبراطورية الرومانية، ومواجهة التمرد الذى أعلنه أوتوكارOttokar ملك بوهيميا . وفي البداية سعى رودولف إلى كسب رضاء البابا وية باعتبارها قد ساندته فى تعينه أمبراطوراً على ألمانيا ، وثانياً أن مساندة البابا الروحية سيكون لها أثرها على المشاكل الاخري . وقد تم ترتيب مقابله بين البابا جريجورى العاشر Gregory X (١٢٧١ - ١٢٧٦م) خاصة أن هذا البابا قد رفض استقبال رسل الفونسو العاشر المطالب بعرش المانيا ، وعقد اللقاء فى مدينة لوزان Lausanne عام ١٢٧٥م ، وفى هذا اللقاء تم الاتفاق على ذهاب رودولف إلى روما لتقبل التاج الامبراطورى . كما قبل رودولف أن يتولى قيادة حملة صليبية للتوجه الى الشام ، كما تنازل رودولف عن حق الامبراطورية فى ايطاليا وإعترف بشارل أف أنجو ملكاً على نابلي وصقلية .

وبعد أن إطمأن رودولف وحصل على رضاء البابا وية أستدار إلى التمرد الذى يقوم به أوتوكار ملك بوهميا . و ترجع مشلكة أوتوكار إلى أنه طلب أن يكون له دوراً فى إنتخاب حاكم المانيا الذى تم فى عام ١٢٧٢م ، وفيه تم إنتخاب رودولف ولكن الجميع تجاهلو طلبه، وعلى ذلك رفض الاعتراف بنتائج الانتخابات التى أسفرت عن تولى رودولف عرش المانيا . ومن مركز القوه الذي تمتع به رودولف بعد مساندة البابا وية أقدم رودولف على خطوة عملية ودعا أوتوكار إلى اجتماع فى عام

١٢٧٤م ولكن الأخير لم يحضره فحدد إجتماعاً آخر فى العام التالى ، ولم يحضرة أوتوكار أيضاً . وعند هذه المرحله لم يقف رودولف مكتوف الايدى خاصة أن ملك بوهميا إحتل إقليم النمساوستيريا Styria وبعض اقاليم اخرى .لم يعد هناك أمام رودولف إلا إستخدام القوه العسكريه لحسم هذه المشكلة ،ولعبت العرقية دوراً فى هذه الحرب، فقد التفت حول رودولف جميع العناصر الألمانية لمقاومة تمرد أوتوكار ملك بوهميا السلافى العرق . وخرج رودولف يقود الجيش الامبراطوري فى عام ١٢٧٦ م .وعند هذه المرحلة أدرك أوتوكار أنه سيخسر الحرب خاصة بعد ما إستسلمت مدينة فيينا ، فبدأ بعرض الصلح على الملك الألمانى ، وقد وافق الأخير على صلح عقده فى نهاية العام .وبموجب هذا الصلح إحتفظ أوتوكار ببوهمياومورافيا وتنازل عن بقية الارأضي التي استولى عليها. وكلل هذا الصلح بأن زوج أوتوكار أبنته إلى ابن رودولف ، كما تزوج أبن أوتوكارمن إحدى بنات رودولف .

لم يستمر هذا الصلح سوى عامين فقط ، فقد تجددت الحرب بين الطرفين مرة أخرى ، ولم تكن الحرب فى بداية الامر فى صالح رودولف ولكنه نجح فى كسب هنغاريا إلى جانبه وبعض العناصر الاخرى ، وتمكن فى النهاية من كسب المعركه لصالحة ، وفى موقعة مارخفيلد Marchfild التى وقعت فى أغسطس عام ١٢٧٨م إضطر أتوكار للاستسلام وأجبر على تسليم كل الأراضى التى إستولى عليها ، على أن يحتفظ بإقليم بوهميا كاقطاع من رودولف .وبعد أشهر قليله نقض أوتوكار الصلح وتقدم بقواته وغزا اراضى النمسا وتقدم رودولف اليه وقتله فى ساحة القتال . وهنا بدأت الاوضاع تأخذ طريقها إلى حد ما فى الاستقرار داخل المانيا .

ومن أجل أستقرار حكم الامبراطورية الرومانيه فى النمسا قام رودولف بتوزيع أراضيها بين ولديه ، ثم زوج أبنه البرت إلى وريثة دوقية النمسا ، ويعتبر ضم النمسا إلى أراضى الامبراطوريه من أهم الأعمال التى قام بها

رودولف . ومن أعمـاله أيضا أنه قـام ببـعض المحـاولات من أجل تقـوية السلطه المركـزيه ونشـر السـلام داخل ألمانـيـا ، ومـات رودولف فى عـام ١٢٩١م بعـدمـا أقـام حكمـاً لاسـرة ها بسـبورج على رأس الامـبـراطورية الالمانية .

أدولف أف ناسو (١٢٩١ - ١٢٩٨م)

والحـقـيـقـه أن بيت هابسـبورج كـان قـويـاً للغـايه عند وفـاة رودولف . وعندمـا رشح البرت بن رودولف لعـرش الامـبـراطوريه ، خـاف النبـلاء من سطوة البـرت وإخـتـارو أدولف أف ناسـو Adolph of Nasasu باعـتـباره رجـلاً ضعـيـفـاً لا يخـشـى منه . ويلاحظ هنا أن ولاية العـرش فـى الامبراطورية كـانت انتـخابـية وليست وراثـيـه ، ورغـم هذا لم يقف البرت مكـتـوف الايدى ،ولم يسـتـسلم لنتـائج الإنتـخـاب وأعلن الـثـوره علي ادولف، وظل الصـراع مـتـقطعـاً لمدة سـبع سنوات ظل خـلالـهـا أدولف متمسكاً بحقه فى تاج الامبراطورية الرومانية .

والمهم هنا أن أدولف ، وبـعـد أن تـوج في مـديـنة أكـس لاشـابل (آخن) ،حتى ظهرت تطلعاته وتنكر للوعود التى قدمـها لكبار الامراء ورجال الديـن . وبدأ عـهده بقيـادة حـملة ضد البـرت وأجبرة على تقـديم الولاء وتسليم شعار الإمبراطورية . كما بدأ فى جمع صغار الملاك حولة لمسـاندته أمام كـبارالاقطاعـيين . وتطلع أدولف لأبعـد من ذلك وأراد أن يجعل من نفسـه نصيراً للوحدة الالمانية وإعادة أراضـيها السليبـة خاصـة مـقاطعـة برجـانديا التى تعرضت لاطمـاع فرنسـا وإصـبـحت تـابعـة فـقط لالمانيا من الناحية الاسمية .

وعلى ذلك استغل أدولف الحرب التى كـانت دائرة بين انجلترا وفرنسـا

وتقرب إلى الملك الانجليزي إدوارد وعقد معه معاهدة في عام ١٢٩٤م تعهد الطرفان بموجبها مواصلة الحرب ضد فرنسا . والواضح أن هذا التصرف كان تصرفاً ذكياً من أدولف لأن فرنسا كانت تسعى جاهده للسيطرة على الممتلكات الانجليزية فى الاراضى الفرنسية ، ولذلك تقابلت المصالح الالمانية الانجليزية ضد فرنسا .

والواقع أن الامراء الالمان لك يكن يعنيهم فى هذه المرحلة سوى تأكيد نفوذهم الاقطاعية وعدم مساس الحكم الالماني بحقوقهم داخل اقطاعياتهم ، ولذلك لم يساندو أدولف في اطماعه . وكان فيليب الرابع ملك فرنسا يدرك ذلك دائماً ، كما أنه ادارك الصراع الدائر بين أدولف ومعه صغار الاقطاعيين ضد كبار الامراء ، وبدأ فيليب فى إثارة الخلاف وعوامل الانشقاق داخل المانيا ، ولكن البابا بونيفاس الثامن الذى كان يعنيه واحده أوربا لاستغلالها فى حروب صليبية والتحالف مع المغول لإستعادة الأراضي المقدسة في بلاد الشام، تدخل بين أدولف وفيليب ونجح في عقد الصلح بينهما دون أن تحصل ألمانيا على برجانديا .

أحس كبار الأمراء أن ما يقوم به أدولف ليس في صالحهم، وهنا ثارت مخافوهم وإلتفوا حول ألبرت بن رودولف حاكم دوقية النمسا وساندوه ضد أدولف ، وتشجع ألبرت بموقف كبار الأمراء وإتصل بملك فرنسا عدو أدولف، كما تحالف ألبرت مع ونسسلاس Wenceslas ملك بوهميا، وتطورت الأمور حتى دعا رئيس أساقفه مدينة مينز إلى اجتماع في مدينة فرانكفورت حضره كبار الأمراء، وفي هذا المؤتمر تم عزل أدولف عام ١٢٩٨م وإنتخب مكانه إلبرت بن رودلف. لم يستلم أدولف لهذه النهاية وتقدم بقواته لمقاتله ألبرت، ودارت معركة قتل فيها أدولف وأصبح ألبرت ملكا دون منازع .

ألبرت الأول (١٢٩٨ - ١٣٠٨م)

كان رجلاً عسكريًا قديراً وحاكمًا ممتازاً، وعرف في التاريخ بقسوته وصرامته، ولعبت تصرفات البابا بونيفاس دوراً كبيراً في توجيه سياسة ألمانيا في تلك المرحلة ، فقد رفض البابا الاعتراف بألبرت حاكمًا على ألمانيا ، لذلك لجأ إلى التحالف مع فيليب الرابع ملك فرنسا عدو البابا ، وبهذا التحالف يكون ألبرت قد تنازل عن حقه في إقليم برجانديا. وأيد هـذا التنازل قوة التقارب بين ألبرت وفيليب عندما إلتقيا في أواخر عام ١٢٩٩م، حيث تم الاتفاق على زواج رودولف بن البرت إلى الاميرة الفرنسية بلانش Balnche .

وفي السياسة الداخلية سار ألبرت على مناصرة المدن لضرب الاقطاع الذي يمثله كبار الأمراء. ولما كان مصدر قوة هؤلاء الأمراء يكمن فيما فرضوه من ضرائب جديدة في عصر الفوضى الذي أعقب وفاة الامبراطور فريدريك ، لذلك أصدر ألبرت مرسومًا ألغي به جميع الضرائب التي صدرت بعد عام ١٢٥٠م، وعند هذه المرحلة شعر الامراء بالخطر الذي يحيط بهم فتكتلوا ضد البرت وساندهم في ذلك بعض كبار الأساقفة، ولكن ألبرت وجه ضربات متلاحقه لهؤلاء وأجبرهم على إلغاء الضرائب التي فرضوها على الأهالي والاعتراف بحق حكام المدن في منح إمتيازاتها وولايتها على المواطنين الذين يسكنون حول المدينة، ومن المشاكل التي تصدى لها ألبرت مشكلة وراثة العرش في كل من بوهميا وهنغاريا، وهي المشكلة التي كانت سببًا في مقتله في عام ١٣٠٨م على يد ابن أخيه يوحنا.

آل لكسمبورج : هنري السابع (١٣٠٨ - ١٣١٤)

بعد أن لقي ألبرت مصرعه إستبعد الامراء آل هابسبورج وتم إختيار

هنرى السابع أمير مقاطعه لكسمبورج ملكاً على ألمانيا ،وبذلك دخل تاريخ المانيا حاكماً جديد من لكسمبورج . ولم يكن فى وسع آل ها بسبورج أن يفعلوا شيئاً بعد الصدمة التى تلقوها بموت ألبرت المفاجئ سوى الاعتراف بالملك الجديد مقابل الاعتراف بما تحت سلطانهم من أراضى وممتلكات .

والمهم هنا أن ألمانيا سوف تشهد مرحلة جديدة من الصراع الداخلى بين آل هابسبورج وآل لكسمبورج وما سيكون لذلك من نتائج على السياسه الألمانيه الداخلية والخارجية .

وفى السياسه الداخلية فقد تقرب هنرى إلى كبار الامراء ،وذلك بالغاء الامتيازات التي كان ألبرت قد منحها للمدن ، ومعنى ذلك أن صغار الملاك وحكام المدن قد أصبحوا فى جانب ، وأن هنرى وكبار الملاك قد أصبحو فى جانب أخر. كما أراد هنرى أن يقوي من مركز أسرته فى الحكم ، فاستغل فرصة الثورة التى قامت فى بوهميا ، وانتهت بطرد ملكها هنرى أف كارنثيا Henry Of Carinthia فى عام ١٣١٠م ، وزوج إبنه يوحنا من اليزابيث إبنة حاكم بوهميا الاسبق ونسسلاس .

أما فى السياسة الخارجية فقد ارتبط بإيطاليا كثيراً ، وكانت البداية عندما أراد أن يحصل على التاج الإمبراطوري ، ولذلك أنشغل ثلاثة أعوام ١٣١٠ - ١٣١٣م حتى حصل على أملاك التاج فى مدينة بافيا ، وأقام نائباً له فى مقاطعة لمباردى ، ثم تحالف مع حاكم مدينة ميلان ،واتجه بعد ذلك إلى روما حيث توج فى كنيسة القديس بطرس فى التاسع والعشرين من يونية عام ١٣١٢م . وبعد ذلك إتجه إلى الشمال وحاصر مدينة فلورنسا دورج نجاح ، والنتيجة العامة لذلك كلـه فى ايطاليا كانت ضياع أمل الجبليين خارج إيطاليا ،ومن فلورنسا إستعد هنرى لشن

الحرب على مدينة نابلى ولكنه مات قبل أن يكمل حملته . والمهم هنا أن حملات هنرى على ايطاليا كانت فاشله ولم تعد بالنفع على ألمانيا ،وبوفاته عاد الصراع داخل المانيا على عرش البلاد وأنتهز فيليب الرابع ملك فرنسا هذه الاوضاع وأمن وجوده داخل مدينة ليون التى أستولى عليها من ألمانيا فى عام ١٣١٠م .

لويس الرابع ١٣١٤ - ١٣٤٧م

ظل الصراع على العرش داخل المانيا أكثر من سبع سنوات ، ويرجع هذا الصراع إلى عاملين رئسيين ، أولهما : عدم وجود ملكيه مركزيه قويه تسيطر على طموح كبار الامراء ، والثانيه عدم وجود قواعد ثابته يتم بموجبها إنتخاب أو إختيار الملك . وقد ترتب على العامل الثانى أنه عند وفاة هنرى السابع إجتمع الأمراء لإنتخاب الحاكم الجديد ، وكان هناك مرشحان رئيسيان . الاول هو الابن الأصغر للملك الراحل هنري وهو يوحنا ملك بوهميا (١٣١٣- ١٣٤٦م) من آل لوكسمبورج ، والثانى فريدريك حاكم النمسا ،وهو إبن ألبرت الاول من آل هابسبورج .ثم ظهر على الساحه مرشح ثالث وهو لويس دوق بافاريا الذى هزم فريدريك فى نوفمبر من عام ١٣١٣م . وبدأ آل لكسمبورج فى مساندة لويس باعتبارة رجلاً قوياً يستطيع أن يقف أمام مرشح آل لكسمبورج .وقد أسفر الانتخاب عن حصول لويس على خمسة أصوات ، بينما حصل فريدريك على اربعة أصوات وأصبح الصدام العسكري ضروريا لحل هذه المشكله .وظل الصراع حتى سبتمبر من عام ١٣٢٢ م، وانتهى بأنتصار لويس فى معركة مولدورف Muhldorf الذى عرف فى تاريخ المانيا باسم لويس الرابع . وكان من أهم مظاهر حكم لويس الرابع هو الصراع بينه وبين البابا وية، فقد استغل البابا فترة الصراع فى المانيا وتدخل فى الشئون

الاداريه الألمانيـه فـى ممتلكاتهـا فى أيطاليـا ، وعين روبرت الاول مـلك نابلى (١٣٠٩ - ١٣٤٣م) نائباً للامبراطور الالماني فى ايطاليا . وظل الحال كـذلك حتى عـهد البابا حنا الثاني والعشرين ، وعند هذه المرحلة التي انتـهت بأنتـصـار لويس على فـريدريك رأي البـابا أن يقـوم لويس بعرض القضية بالممتلكات الالمانية فى ايطاليا على المحكمة البابـاوية فى روما ، فرفض لويس وتطور الامر وأصد البابا قرار الحرمان ضد لويس .

وقـد ظهـرت بعض العـوامل التي أدت إلى إضـعـاف البـابوية وتقـوية موقف لويس ملك ألمانيـا ، ومن العوامل التي أدت إلى إضعـاف البابـاوية كثرة الخلافات الدينية وحركات الهرطقه داخل الكنيسة الغربية ، وأنتهاء الحرب الصليبيـة التى أستغلها البابويه لتقـوية مركزها ، وأنتهاء بعض الجماعـات العسكريـة مثل جماعـة الداوية ، والأسر البابوى فى أفـينون ، ومواقف ملوك وحكام أوربا من البابـاوية .

أمـا العوامل التي أدت إلى تقـوية مركز لويس ، فـهو الشـعور القـومي الالماني ، ومن هذه المدخل إجتـمع الناخبون الالمان فى مـدينة رينز Rense فى عام ١٣٣٨م ، وقرروا مبدأ فى غاية الاهمية فى تاريخ المانيا بخاصة وما سيكون له من نتائج على تاريخ أوربا العصـور الوسطى ، فقد قرروا أن السلطة الزمنيـة مستمدة من الله مباشرة وأن الحاكم الذى يتم أختياره في المانيـا ملكاً أو إمبراطوراً يصبح الحـاكم الشرعى للبلاد ، بدون موافـقة البـابا أو أى سلطة دينيـة أخرى. وقـد عـقـد إجتـمـاع أخـر فى مـدينة فـرانكفورت ، وقـد أيـد المؤتمر الاخيـر قـرارات المؤتمر الاول ، وأصـدر عـدة قـرارات أخـرى من شـأنهـا تهـدئة الاحوال داخل المانيـا وتقـوية السـلطه المركزية ، ثم تحالف لويس مع إدوارد الثالث ملك انجلترا حتى يتمكن من الوقوف فى وجه البابـاوية .

ورغم هذا كله فإن لويس تراجع فجأة عن موقـفه المتشدد مع البابويه

وألغى تحالفه مع ملك إنجلترا ، وتصالح مع فيليب السادس ملك فرنسا (١٣٢٨ - ١٣٥٠م)،لعله يستطيع أن يصلح أحواله مع البابويه، ولكن هذا التصرف قد أضعف من مركز لويس داخل المانيا ، وظل الحال كذلك في الوقت الذي ظهر فيه التنافس من جديد بين آل لكسمبورج وآل ها بسبورج ، وفى عام ١٣٤٦م أصدر البابا كلمنت الرابع (١٣٤٢ - ١٣٥٢م) قراراً جديداً يقضى بحرمان لويس من رحمة الكنيسة . وفى الوقت نفسه نصح البابا بإجراء إنتخابات جديدة فى المانيا لاختيار حاكم جديد ، وتم إنتخاب شارل حاكم مورافيا Moravia حفيد هنرى السابع وهو من آل لكسمبورج ليتولي الحكم فى المانيا . وعلي أثر هذه التطورات وقعت معركة كرسى Crecy فى أغسطس عام ١٣٤٦م، هزم فيها شارل حاكم مورافيا ، وفر من أرض المعركه . وقد أضعف هذا التصرف من مركز شارل وقوي من مركز لويس ولكن الاخير مات في اكتوبر عام ١٣٤٧م

شارل الرابع ١٣٤٧ - ١٣٧٨م : -

عند موت لويس أصبح عرش المانيا مهيأ لان يتولاه شارل الرابع، والحقيقه أن ذلك يرجع إلى موقف البابوية بالاضافه الي مساندة بعض الامراء . ويرى البعض أن شارل الرابع يعتبر من أعظم الحكام الذين تولوا حكم بوهميا ، ولكنه لم يحكم الامبراطورية بالنجاح الذى حكم به بوهميا. ولعل ذلك مرجعه إلى مرض الوباء الاسود الذي هدد العالم فى الفتره من ١٣٤٨ - ١٣٤٩م وما كان لهذا المرض من تأثير على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بعد أن مات بسببه أكثر من ثلث السكان في أوربا .

والواقع أن عهد شارل تميز بحدث هام وقع فى عهده ، وهذا الحدث هو

صدور المرسوم الذهبى Golden Bull فى عـام ١٣٥٦م . وقـد وضع هذا المرسوم القواعـد المنظمـه لانتخـاب أباطره المانيـا دون تدخل البـاباوية أو الرجوع اليـهـا ،وقـد حـدد المرسوم سبع شخصـيـات فـقط فى انتـخـاب الامبراطور وهم روساء أساقفة مدينة كولونيـا ، ومينز ،وتزيف ، وملك بوهميـا ، ودوق بافـاريا ، ودوق سكسونيـا وأمير براندنبرج Branden-burg، وقـضى المرسوم أن يتم الانتـخـاب فى اجتـمـاع يعـقد فى مدينة فرانكفورت ، وأن يتم التتويج فى مدينة أكس لاشابل . وقضي المرسوم أيضاً على أنه في حـالة إختـيـار أى ملك أو أمير من الولايات أو المدن السبع فإن أرضه تؤول إلى أبنه الاكبر فقط دون منازع حتى تظل وحده الملكيه ثابته ولا تتعرض للانقسام .

ومن الطبيعى أن يعلن البابا أنوسنت السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢م) عدم رضاه عن هذا المرسوم ، ولكن شارل الرابع لم يبال بموقف البابـاوية ، وبذلك أنقطعت الصلة بين الامبراطورية الرومانيـة والبابـاوية التى كانت من قبل هى صـاحبت الحق الوحيـد فى منح اللقب الامبـراطورى لحـاكم ألمانيـا ، وهى الدولة الوحـيـدة في أوربا التى تمسك بهـذا اللقب بعـد شارلمان.

وتغلبت عـاطفـه الابوه على شـارل الرابع ، فـرغم أن المرسوم الذهبى ينص على وراثة الابن الاكبر لابيه خشـية تفتيت الملكيـة ، إلا أن شارل قام بتقسيم أملاكة بين أولاده . وقد أدى هذا فى النهاية إلى إضعاف آل لكسمبورج وسيكون لذلك أسوء الأثر على الأسرة بعد ذلك .

ونسسلاس (١٣٧٨ - ١٤٠٠م) ونهاية آل لكسمبورج : -

لقد عهد شارل لابنه ونسسلاس قبل وفاته ، فـفى عام ١٣٧٦م قامت هيئة الانتخاب بانتخابه ثم توج في العام نفسه إلى جانب والدة ، ولكن

ونسسلاس كان لاهياً مستهتراً فعزل فى عام ١٤٠٠م ، وأعقبت ذلك فترة من الاضطرابات دامت حوالى عشر أعوام إنتهت بتولى أخيه سيجيسموند Sigismund حاكم هنغاريا حكم الامبراطورية منذ ١٤٠١م ثم مع بوهميا منذ عام ١٤١٩م وحتي عام ١٤٣٧م . وقد مات دون وريث ذكر فخلفه البرت الثانى من بيت هابسبورج الذى حكم لمدة قصيرة ١٤٣٨ - ١٤٣٩م ، وتولى بعد أبنه فريدريك الثالث (١٤٣٩ - ١٤٩٣م) . وقد ساعدت الفتره الطوليه التى حكمها فريدريك الثالث فى التمكين لآل هابسبورج بالسيطرة على البلاد وظل اللقب الامبراطوري مقصوراً على آل ها بسبورج حى عام ١٨٠٥م عندما وضع نابليون نهاية الامبراطورية الرومانية .

رابعاً : البابا ويه فى القرن الثالث عشر

البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م)

فى الوقت الذى ظهر فيه المغول فى اسيا ، كان البابا إنوسنت الثالث يجلس على عرش البابوية فى روما . وكان هذا البابا على درجة واسعة من العلم والمعرفة . إذ درس اللاهوت فى باريس كما درس القانون فى بولونيا ، ولم يكن للملوك أوربا وأباطرتها المعاصرين له قوته وبصيرته ، فقد برهن على أنه سياسى ماهر سريع البديهه متطور لمقتضيات الظروف والاحوال ، وكانت آمال أنوسنت الثالث تنحصر فى العمل على تسوية كافة مشاكل الممالك ليسودها السلام حتى يتمكن من تسخير كافة القوى الأوربية فى غزو مدينة بيت المقدس التى استردها صلاح الدين فى السابع والعشرين من رجب ٨٥٣ هـ(٢ اكتوبر ١١٧٨م)، خاصة بعد أن نجح أخوه العادل فى جمع شمل البيت الايوبى ، وأن يتبوأ مكان الصدارة على عرش مصر التى كانت قوة المسلمين ومعقلهم المنيع ومركز تموينهم بالمال والمؤن والسلاح . وغير خاف أن البابا أنوسنت الثالث كان

يرمى من وراء ذلك إلى رفع شأن البابوية وأن يكون له السلطة الدينية والدنيوية .وكان فى الدعوة إلى الحملة الجديدة فرصة طيبة لتحقيق تلك الامال ، فضلاً عن الهدف البعيد المدى الذى ينحصر فى فرض سيطرة الغرب الأوربى على العالم الاسلامى .

لذلك بدأ البابا إنوسنت عهده بالكتابة إلى البنادقة يطلب منهم الا يبيعوا أو يتبادلوا مع المسلمين المواد الاستراتيجية كالسفن والسلاح والحديد وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال فى الحرب ، وإلا تعرضوا لغضب الكنيسة وتوقيع أشد العقاب عليهم . كذلك سارع بالكتابه في عام ١١٩٩م إلى بطريق بيت المقدس الاسمى إمرى الراهب Aiemry The Monk (١١٩٧ - ١٢٠٢م) يطلب منه تقريراً مفصلاً عن الحاله فى بلاد الشام مع تدعيم هذا التقرير بكافة البيانات التى تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم البعض ، كما طلب الشئ نفسه فى عام ١٢١٣م من الداوية والاسبتادية ، ويبدو أن هذة التقارير كانت ترسل اليه من أن لآخر . فقد أرسل اليه بطريق بيت المقدس الاسمى أيضاً تقريراً فى عام ١٢١٤م ، وقدإشتمل هذا التقرير على معلومات على جانب كبير من الاهمية تضمنت بعض النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية الخاصه بالمسلمين .فمن الناحية السياسية تضمكن الحديث عن البلاد التى يحكمها كل من العادل وأولاده الكامل والمعظم ، وإشتمل الجانب الاقتصادى الحديث عن النيل وموعد فيضانه وبعض المنتجات الزراعية في مصر ، وعن الناحية الاجتماعية تناول الحديث أحوال المسحيين والمسلمين واليهود وعلاقتهم الطيبية بالمسلمين ، والجانب الخطير فى هذا التقرير هو الجانب العسكري ، فتحدث عن بعض البلدان المصرية والمسافة بين بعضها البعض وكان ما تناوله بالتفصيل من المدن المصرية هى مدينة دمياط وعدد أبراجها وأسوارها وبرج السلسله وكيفية دخول السفن من دمياط التى كانت مفتاح مصر أنا ذاك .

والواضح من هذا أن البابا أنوسنت الثالث كان يضع مسألة الشرق اللاتينى وغزو بيت المقدس نصب عينيه لتحقيق الامال الكبير التى رسمها لنفسه والكنيسة . واذا كان البابا قد استهل عهده بالعمل على دعم الحركه الصليبية التى بدأ يشوبها الفتور ، فان الحوادث التي جرت فى أوربا اثناء توليه كرسى الباباوية ، مكنته من أن يبسط نفوذة على معظم ربوع أوربا تقريبا . واستطاع أن يعلى شأن الباباوية لما قام به من جهد طوال فتره بابويته حتى اصبح السيد الأوحد الذى لا منازع له مما هيأ الجو للدعوة للحملة الصليبية الخامسة بعد أن انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها وفشلت فى تحقيق أغراضها .

وكان ظهور حركة الهرطقة من الامور التى شغلت بال الباباوية خاصة بعد أن استفحل أمرها . وحاول أنوسنت فى أول الامر اقناع الهراطقة بالعوده إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما واتباع تعاليمها ، ولكن مبعوثيه فشلوا فى هذه المهمة .وتعاطف ريموند Raymond كونت تولوز مع الهراطقه وتقبل أراءهم ورفض أمداد الباباوية بالقوة الكافية للقضاء عليهم . وأخيراً أتجه البابا إلى فيليب ملك فرنسا فى عام ١٢٠٤، الا أن فيليب كان مشغولاً بصراعه ضد حنا ملك انجلترا . وكرر البابا نداءه لملك فرنسا ١٢٠٥م وأيضا فى عام ١٢٠٧م دون جدوي .

وتطورت الحوادث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ريموند كونت تولوز لرفضه إعاده الكنائس التى أستولى عليها ، فضلاً عن قيام أحد فرسانه باغتيال مندوب البابا . ولم يطق البابا صبراً على هذا التمرد الذى من شأنه القضاء على النفوذ البابوى فى الممالك الاوربية ، فدعى إلى حمله صليبيه ضد هؤلاء الهرطقة وهى المعروفه بالحمله الالبيجنسيه، وكان على رأس الداعين لها جاك دى فتري James of Vitryالذى عين فيما بعد اسقفاً لعكا (١٢١٦- ١٢١٨) ، وجاء مع الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط عام ١٢١٨م (٦١٥هـ) وأرخ لها ايضاً .

وقد لبى بعض الامراء دعوة البابا وعلى رأسهم سيمون أف مونتفرات Simon of Montfortالذى تولى قيادة الحمله،واستطاع هزيمة ريموند عام ١٢١٣م ،لذلك كافأة البابا بأن ولاه بعض الامارات الاقطاعية المجاورة له، وهذا يدل على مدى النفوذ البابوى وسيطرته على السلطة الزمنية . ولم يستطيع فيليب أن يقف مكتوف الايدى ويصم أذانه عما حدث حتى لا تضيع هيبته أمام البابوية وأوربا فارسل أبنه لويس للمشاركة فى هذه الحمله عام ١٢١٣م وقد اعترف سيمون بالتبعية لفيليب ، إلا أن سلوك سيمون بعد ذلك تجاهه جعل فيليب يساند ريموند كونت تولوز فى إسترداد أملاكه،ثم قتل سيمون فى عام ١٢١٨م .

ورغم هذا نجد أن الغرب الأوربى فى أواخر القرن الثاني عشر وبدايات القرن الثالث عشر للميلادمسرحاً للقلاقل والاضطرابات والمشاكل الداخلية والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية فعالة ضد المسلمين وكان على رأس البابوية فى ذلك الحين شخص من أقوى شخصيات العصور الوسطي هو البابا أنوسنت الثالث الذى كان يعتبر نفسه خليفة الله على الارض وأن الحكام والملوك أتباعه وعماله ، وليس أدل على ذلك من مواقفه من ملوك الغرب وحكامه . وقد بلغت البابوية أوج عظمتها وقوتها في عهده بعد أن أصبحت أوربا تحت رحمته وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء .

البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧م)

لعل أهم ألاحداث التي وقعت فى عهده جانباً من الصراع الذي دار بين الامبراطورية والبابويه التى تضيق هذه الصفحات بذكرها . ومرجع هذا الامر أن الامبراطور فريدريك الثانى قد وعد منذ توليه بعدم ضم

جزيرة صقلية إلى الامبراطورية الرومانية ، كما وعد بعد مجلس اللتيران الكنسي الذى عقد فى عام ١٢١٥ م بالتوجه إلى الاراضى على رأس حمله لتحرير مدينة القدس وإستعادتها من أيدى المسلمين بعد أن سقطت فى أيدى صلاح الدين ١١٨٧م ، ولكنه ماطل ثم توج إبنه هنرى فى ١٢٢٠م ليكون خليفته فى حكم الامبراطورية وصقلية معاً . ولم يكن فريدريك جاداً فى وعده ولم يلحق بالحملة الصليبية الخامسة التي قدمت إلى مصر وأستولت على مدينة دمياط فى عام ١٢١٩م . ورغم زواج الامبراطور فريدريك من وريثه عرش مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية، الا انه لم يتقدم بخطوة عملية لتنفيذ وعده بالذهاب إلى بلاد الشام واستعادة القدس .

وقد ازعجت هذه التصرفات البابا إلى حد كبير يضاف إلى ذلك أن فريدريك إتخذ بعض القرارات التى ترمي للحد من نفوز رجال الدين فى المانيا ، وهو الأمر الذى أزعج البابويه باعتبار أن رجال الدين يقعون تحت سلطان البابا ، كما أن فريدريك تمسك بكل حقوقه فى اقليم لمبارديا الامر الذى اثار مدن اقليم لمبارديا ، وبدأت تتحالف من جديد ضد الامبراطور ، وعلى أثر ذلك ضاق البابا ذراعاً بتصرفات فريدريك مما مهد لنزاع جديد بين البابوية والامبراطورية . وما لبث أن توفي البابا فى مارس ١٢٢٧ م.

البابا جرن يجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١م) : -

كان قد بلغ الثمانين من عمره عند إختياره ليجلس على عرش البابويه ، ورغم كبر سنه الا انه كان قوى الاراده حازماً ، وأصر على قيام الامبراطور فريدريك بحمله صليبيه إلى الشرق ، وقد أستعد الامبراطور

فريدريك بحملة صليبية ضد بلاد الشام ، وقد إستعد الامبراطور للسفر واتجه إلى مدينة برنديزى الايطالية بنية الابحار إلى عكا ، ولكنه مرض ولم يكمل رحلته .وهنا أعتبر البابا أن الامبراطور يتمارض وغير راغباً فى محاربة المسلمين فأصدرقراراً فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٧م بحرمان الامبراطور من رحمة الكنيسة . وكان رد الامبراطور على ذلك أن كتب إلى حكام أوربا يوضح موقفه وحقوق الامبراطور . ورد البابا على ذلك بانه أعاد إصدار قرار بالحرمان ضد الامبراطور فى عيد القيامه للعام التالى ١٢٢٨م ولم يبال فريدريك بذلك وأبحر بحملته الصليبية بعد دعوة الملك الكامل له لاستلام بيت المقدس ، ورغم أن الامبراطور قد حقق نصراً كبيراً فى حملته هذه ،الا أن البابا أرسل إلى الصليبين في بلاد الشام يحذرهم من التعامل مع فريدريك باعتبارة محروماً من رحمة الكنيسة ، ورد فريدريك على ذلك بأن توج نفسه ملكاً على بيت المقدس ، ومعنى ذلك أن فريدريك تلقى التاج من الله مباشرة دون وساطه رجال الدين وعلى رأسهم البابا .

وعاد فريدريك بسرعه إلى برنديزى فانزعج البابا وإعتقد أنه سوف يهاجم مدينة روما ، فاستعد للدفاع عن نفسه ، وأخيراً بدأت المفاوضات بين البابا والامبراطور ، التى أنتهت بما يعرف بصلح سان جرمانو St - Germano الذى وقع فى يوليو عام ١٢٣٠، وبموجب هذا الصلح تم رفع قرار الحرمان الذى وقع علي الامبراطور واعترف البابا بالمكاسب التي عادت على المسيحيه بعودة بيت المقدس ، وذلك مقابل اعتراف الامبراطور بحق البابوية فى السياده على صقلية ، وتعهده بحماية أملاك البابوية .

لم يكن ما يحدث سوى هدنه موقته ، لان البابا وية تختلف تماماً فى سياستها عن سياسة الامبراطور فريدريك التى ترمي إلى تقويه نفوذ الامبراطور فى ايطاليا ،الأمر الذى ازعج المدن اللمباردية وجعلها تتحالف ضد الامبراطور ، ولكنها هزمت قرب مدينة ميلان فى نوفمبر عام ١٢٣٧م عند مدينة كورتنوفا Cortenvova. وتدخل البابا للوساطه بين الطرفين ، ولكن فريدريك لم يقبل ذلك فوقف البابا إلى جانب المدن اللمباردية والبنادقه . وتطورت الاحداث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد الامبراطور فى يوم عيد السعف عام ١٢٣٩ ، ورد الامبراطور بغزو الاراضى البابا وية فى فبراير عام ١٢٤٠م ،وأحس البابا بضعف مركزه بعدما إبتعد عنه من ساندوه ، ولم يجد امامه سوى أن يعلن حملة صليبية ضد الامبراطور.

وفى عام ١٢٤١ م دعا البابا رجال الدين فى كافة الممالك المسيحية إلى مجلس ديني عام فى قصر الاتيران فى روما ، وظن فريدريك أن الغرض من إنعقاد هذا المجلس هو أصدار قرار بحرمانه من رحمة الكنيسة كما هو مألوف ،فعمل على منع هذا الاجتماع . ولما كان الترتيب يقضى باجتماع رجال الدين فى مدينة جنوة ، فقد عمل فريدريك بمعاونة حلفائه على ضرب السفن الجنوييه حتى لا يتم الاجتماع ، وقد نجح الامبراطور فى ذلك حتى أنه تم القبض على بعض رجال الدين ، ولكن فريدريك أفرج عنهم أمام تهديد لويس التاسع ملك فرنسا بشن الحرب على الامبراطور ، وما لبث أن مات البابا فى الحادي والعشرين من أغسطس . وتقلد كلستين الرابع منصب البابابوية حتي نوفمبر من العام نفسه .

أنوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤م)

ظل الكرسى البابوي خاليا لمدة تسعه عشرة شهراً .وقد ترك الكرادلة مدينة روما وإتجهو الى مدينة أنياني ، وكان الامبراطور فريدريك وراء هذا التأخير ، وعلى أثر ذلك تكونت عصبة للوقوف فى وجة الامبراطور .

وتعهدوا بالدفاع عن الكنيسة وراعيها ، وفى نهاية الامر تم انتخاب أحد الكرادله الجنويين ليصبح البابا أنوسنت الرابع . وقد أرسل الامبراطور من جانبه وفداً لتهنئة البابا ولعقد اتفاقيه سلام بين البابا والامبراطور ورفع قرار الحرمان . وقد تم عقد المعاهده بين الطرفين ، ونظراً لمماطلة البابا فى رفع قرار الحرمان لم تنفذالمعاهده. وفى يونيو عام ١٢٤٥م دعا البابا لمجلس عام فى مدينة ليون حضره أساقفه من فرنسا وإسبانيا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ، وإستكلندا وإيرلندا وقليل من المانيا ، وفى هذا المؤتمر جدد البابا قرار الحرمان على الامبراطور فريدريك وعزلة من منصب الامبراطور . وعند هذه المرحله أرسل الامبراطور الى كل أمراء أوربا يطلب مساعدتهم . وهنا تدخل الملك الفرنسى لويس التاسع بين الامبراطور والبابا حيث تقابلا فى احد أديرة مدينة كلونى Cluny ولكن البابا رفض بدعوى أن الامبراطور قد أخل بوعده .

وتصاعد الموقف عندما كتب البابا رسالة فى الحادى والعشرين من ابريل ١٢٤٦م يطلب منهم اختيار ملكاً أخر لالمانيا وحدد لهم شخصية هنرى حاكم ثورنجيا ، ولكن الامراء الالمان ظلوا أوفياء للامبراطور ، إلا أن بعض رجال الدين وعلى رأسهم أساقفة مدن كلوني ، وتريف ويرمن ومنيز وسبير وغيرهم وقفوا الى جانب هنرى فاشتعلت الحرب التى قتل فيها هنرى فى العام التالي (١٢٤٧م)، وبناء على توجيه من البابا تم إختيار وليم ايرل هولندا ملكا على ألمانيا . وظل الصراع بين البابا والامبراطور حتى موت الاخير فى ديسمبر ١٢٥٠م .

وعندما علم البابا بموت الامبراطور غادر مدينة ليون بعد أن قضى بها ست سنوات ، وعاد الى ايطاليا وظل لبعض الوقت فى مدينة بروجيا ،وفى المانيا تولى العرش كونراد الرابع إبن فريدريك ، ولكن البابا رفض

الاقرار بأى حقوق له فى صقليه وأبوليا وأعلن أن هذه الاراضى هى اقطاع من البابويه . ولكن كونرادلم يعبأ بذلك وتقدم الى إيطاليا وسيطر على الموقف في المدن المتمردة ووضع أخاه على الممتلكات الايطالية وعلى جزيرة صقلية .وقد رفض البابا الاعتراف بأنه يحكم صقلية أى فرد من عائلة فريدريك ،ورشح لها ريتشاد أف كورنويل أخ ملك انجلترا ،وشارل أف انجو أخ ملك فرنسا ،ولكن كلاهما رفض هذا العرض .

وفى مايو ١٢٥٤ م مات كونراد وخلف وراءة ابنه كونرادين وكان عمره سنتان وتولى الوصاية عليه مانفرد الذى ارسل الي البابا يطلب منه وضع كونرادين تحت حمايته ،وأنه سوف يسلم مملكة صقلية للباباوية. وبذلك عقد السلام بين الباباوية والمانياولكنه كان سلاماً قصيراً فسرعان ما تمرد مانفرد على البابوية وكسب معركة عسكريه ضد حلفاء البابا. وعندما علم البابا بأنباء هذه الكارثة سقط صريع المرض ثم مات فى مدينة نابلى في ديسمبر ١٢٥٤م . ومما يذكر للبابا إنوسنت الرابع السفارات التي ارسلها الى المغول ، وسيرد ذكرها بالتفصيل فى الفصل الرابع .

الكسندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١م)

وفى مسلسل الصراع بين البابوية والامبراطور أصدر البابا الكسندر فى شهر مارس فى عام ١٢٥٥ قرار الحرمان ضد مانفرد ، ثم اعقب ذلك بمعاهدة عقدها مع هنرى الثالث ملك انجلترا منح بموجبها جزيرة صقلية إلى إدموند Edmund أبن هنرى .ولم ينته الامر عند هذا الحد فقد قامت ثورة فى مدينة روما يقودها بعض النبلاء ضد السناتور برانكاليون Brancaleone وطالبوا بعزله عن وظيفته وسجنه، وقد تم عزله ثم أعيد الى وظيفته بعد سنتين .ولكن البابا أصدر ضده قرار الحرمان لتحالفه مع

مانفرد ضد البابا ، وقد هدد برانكاليون بالانتقام من مدينة أنياني مسقط رأس البابا بإزالتها من الوجود ، فاضطر البابا للرضوخ إنقاذاً للمدينه . وتشجع مانفرد بذلك وأعلن سيادته على صقلية وأبوليا وكلابريا واجبر حلفاء البابا على الفرار من أمامه . وهدد البابا بإنزال قرار الحرمان على مانفرد إذا لم يحضر اليه أويخضع لشروط البابا .ولكن الاخير توفي بعد قليل ، والمنافسه على عرش المانيا وصقليه مشتعلة .

أوربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤م)

وبعد ثلاثة اشهر من موت البابا الكسندر تم إختيار أوربان الرابع، ومع اختياره كانت الحرب دائره بين المتنافسين على عرش ألمانيا وهما ريتشادرد أف كونويل والفونسو ملك قشتالة . وقد حاول البابا التوسط في الصراع ،ولكن ريتشارد رفض عرض البابا. وهنا تدخل الامراء الالمان وأختاروا كونرادين الابن الاصغر للامبراطور كوانراد . ولكن البابا عارض هذا الاختيار بكل قوة وهدد بقرار الحرمان لكل من يحاول انتخاب أي عضو من سلالة فريدريك باعتبارها أسرة معادية للكنيسة .

وكانت سياسة البابا ترمي لا ابعاد مانفرد عن عرش صقليه وأخضاعها للسيادة البابوية . ولذلك طلب البابا من هنرى الثالث ملك انجلترا اعلان الحرب على مانفرد لأن إرموند ابن هنري قد رشح لعرش الجزيرة ، واعتبارهذه الحرب حربا صليبية . ولكن حرب الامراء الانجليز ضد ملكهم هنرى جعلوه يرفض طلب البابا . وعند هذه المرحله عرض البابا عرش صقليه على شارل كونت أنجو مره أخرى ، وقد قبل شارل عرض البابا . وخلال هذه المرحله زوج مانفرد ابنته الى جيمس الثاني ملك أرغون ، وكان ذلك سبباً دفع البابا الى إنزال عقوبه الحرمان على مانفرد .وقد اندفع الاخير وسمح للفرق العربية التى كانت تدافع عنه كما

كانت تدافعت عن فريدريك من قبل بأن تتوغل فى اراضى البابوية ، ولكن الجلفيين دافعوا عن البابوية وعن مدينة روما .ولما أحس البابا أنه غير آمن فى المدينه غادرها الى مدينه بروجيا لكنه مات فى اكتوبر ١٢٦٤م، فى الوقت الذى كان مندوبه جيدو Guido قد اتجة انجلترا ليصدر قرار الحرمان ضد النبلاء الانجليز الثائرين ،ولكن الملك الانجليزي منعه من دخول انجلترا فإضطر إلى إصدار قرار الحرمان من مدينة بولونيا أمام جمع كبير من رجال الدين الانجليز . وما لبث أن وصل اليه خبر وفاة البابا وتعينه خلفاً له.

كلمنت الرابع (١٢٦٥ - ١٢٦٨)

وكان أول ما فعله كلمنت هو الكتابه الى شارل كونت أنجو يطلب منه الحضور لتولى عرش صقليه الذى اسنده اليه البابا الراحل . وتم استقبال شارل فى روما بكل ترحاب بعدما وصل من مارسيليا التى غادرها فى ابريل عام ١٢٦٥ م .وقد تعهد شارل فى البدايه بأنه سوف لا يتطلع ولا يتطلع خلفاؤه من بعده لضم عرش صقليه لعرش المانيا أو لمبارديا أو تسكانيا ، كما وافق على دفع ألفين أوقيه من الذهب الى البابا وحصاناً أبيض أصيلاً كل عام . وهكذا أصبح شارل سيداً على صقليه بمساندة من البابويه ، ولكنه عامل أهالى الجزيره معامله سيئه ،وسيكون لذلك اسوأ الأثر فى نفوس المواطنين حتى كتبوا فى النهايه رساله الى كونرادين فى بافاريا الذى لم يبلغ السادسة عشر من عمره للقدوم لتولى عرش صقليه ،وقد قبل كونرادين العرش ،وتوجه الى ايطاليا حيث سانده الجبليون فى مدن الشمال .

وانزعج البابا لمثل هذه الاحداث وأصدر قرار الحرمان ضد كونرادين ولكن الاخير لم يعبأ بذلك ، وتقدم حتى وصل مدينه روما حيث تم الترحيب به ،وقد نجح كوانرادين بما معه من قوات فى هزيمة قوات شارل

من الفرنسين في بداية الامر ، ولكنه هزم فى التاسع والعشرون من أكتوبر ١٢٦٨م وأسر وأعد م ومعه صديقه دوق النمسا . وما لبث أن مات البابا كلمنت الرابع فى نوفمبر من العام نفسه .

جريجوري العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦)

ظل العرش البابورى خاليا بعد موت كلمنت حوالى ثلاث سنوات، وفى النهاية تم اختيار ثيوبالد الذى عرف باسم جريجورى العاشر . وفى السنه التالية لحكمه مات ريتشارد أف كورنويل المطالبة بعرش ألمانيا ، كما أغتيل أبنه هنرى من قبل .وأثناء عودة الامير الانجليزى إدوارد من حملته على يلاد الشام زار البابا فى روما وطلب منه إصدار قرار الحرمان على المتورطين فى اغتيال هنرى . والمهم هنا أن العرش الالماني أصبح خاليا أمام الفونسو ملك قشتالة ، ولكن البابا رفض مساندته وأيد تعيين رودولف أف هابسبورج الذى إختاره الامراء الألمان ليكون ملك عليهم ، وقد توج فى سبتمبر عام ١٢٧٣م فى مدينة أكس لاشابل .

والحقيقة أن الهدف الرئيسى للبابا جريجورى العاشر كان توحيد كافة الممالك المسيحية بهدف إرسال حملة صليبية الى بلاد الشام تتحالف مع المغول بعد أن تدهورت أحوال الصليبين فى عكا وطرابلس وأنطاكية ، ولذلك دعا البابا الى مجلس عام عقده فى مدينة ليون فى عام ١٢٧٤م. ومن أجل توحيد الممالك المسيحية اتجه البابا الى شمال إيطاليا لانهاء الخلاف بين الجولفيين أنصار البابوية والجبليين أنصار الامبراطور ، وقد فشل البابا فى مهمته وأنتهى الامر باصدار البابا قرار القطع من رحمة الكنيسه على مدينتى فلورنسا وميلان .

وفى أول مايو عقد المجلس فى مدينة ليون وإستمر حتي السابع عشر من يوليو عام ١٢٧٤م ، وقد حضر هذا المجلس خمسمائه من الاساقفه

وسبعون من رؤساء الاديرة وألف من الرتب الدينيه الصغيرة، كما حضر جيمس الاول ملك أراغون (١٢١٣ - ١٢٧٦م) رغم كبر سنه ، بالاضافه الى البطريك الاتينى فى القسطنطينيه وبطريك أنطاكيه وسفراء عن ملوك المانيا وفرنسا وانجلترا وصقليه وقبرص . وقد وافق الحاضرون على الاعداد لحمله صليبيه تتحالف مع المغول وأن يتم جمع عشر الدخل من أجل بيت استعادة بيت المقدس . وخلال انعقاد المجلس وصل رسول الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج ليعلن عن رغبة الامبراطور فى خضوع كنسية القسطنطينيه الأرثوذكيه لتعاليم كنسيةروما الكاثوليكيه وسيطرتها عليها ، وكان ذلك يعتبر خطوة ايجابية فى سبيل توحيد الكنستين الشرقية والغربية،ولكن ذلك لم ينفذ. وقد وافق المجمع على اختيار رودولف ملكاً على أالمانيا ، ونبذ فكرة تعيين الفونسو ملك قشتالة ، وهناك نقطه هامه اقرها المجلس ووضع فيها قواعد إنتخاب البابوات دون تأخير كما حدث من قبل ، وقد تم الاتفاق علي أن يتم اجتماع الكرادلة لانتخاب البابا بعد عشرة أيام فى المدينه التى مات فيها البابا ، وذلك فى مكان منعزل ولا يسمح لأحد بالدخول عليهم واذ لم يتوصل الكرادله الى اختيار البابا بعد ثلاثة أيام ، فيقدم اليهم الطعام المسموح به من خلال فتحه صغيرة تزداد فى النقصان حتى يتم اختيار البابا . ومالبث البابا أن مات فى يناير عام ١٢٧٦م .

البابا أنوسنت الرابع (١٢٧٦ م)

تولى عرش البابوريه لعدة شهور بدأت من يناير حتى يونيو ، شغل البابا فيها نفسه ، باتباع سياسة سلفة وهى مواصلة السعى للاصلاح بين الولف والجبليين ، فأرسل سفراء لهذا الغرض ، كما حاول التوفيق بين الملك الالمانى رودلف وبين شارل أف انجو ، وسعى أيضا لتأكيد السياده

الباباوية على أراضيها فى ايطاليا . ومات البابا وخلفه هادريان الرابع الذى توفى فى أغسطس من العام نفسه ، ثم أعقبه البابا يوحنا الحادى والعشرين الذى تولى عرش البابويه من سبتمبر ١٢٧٦ حتى مايو ١٢٧٧م . وخلال هذه المرحلة لم تتغير السياسه البابوريه داخل أوربا أو موقفها من الحروب الصليبيه والتحالف مع المغول .

نيقولا الثالث ١٢٧٧ - ١٢٨٠م : -

ومع تولى البابا نيقولا عرش الباباوية، كان رودلف ملك المانيا لا يستطيع الحضور الى روما لتقلده التاج الامبراطورى بسبب بعض الأوضاع فى بلاده . وفى يونيه عام ١٢٧٨ م قدم رودلف تأكيداً بحقوق الباباويه على الامبراطوريه ،ووعد باعادة الاراضى التى تخص الباباويه الى البابا ، ولذلك كافأة البابا بأن عينه نائباً فى مقاطعة تسكانيا ،وهو المنصب الذي تولاه من قبل شارل أف أنجو . كما كان على البابا أن يواجه شارل أف أنجو ملك صقليه الذى عارض انتخابة كبابا للعالم الغربى ، ولكن الموقف عولج بعد قليل عندما تزوج أحد أقارب البابا من إحدى قريبات شارل .

وما يذكر للبابا نيقولا أنه زاد من مساحة منطقة مبنى الفاتيكان وأضاف اليها نافورة وحديقه ، وانه أصر على وحده الكنيسه الشرقيه والغربيه وهو الامر الذي عرضه مندوب الامبراطور البيزنطى فى مجلس ليون ، ولكن هذا الاصرار كان نظرياً ولم يوضع موضع التنفيذ. ومات البابا فجأة فى أغسطس عام ١٢٨٠م فى منزلة الريفى الذى يقع بالقرب من مدينة فيتربو Viterbo ثم دفن فى روما .

مارتين الرابع ١٢٨١ - ١٢٨٥م

اجتمع الكرادله فى مدينة فيتربو بعد وفاة البابا نيقولا الثالث ولكنهم

عجزوا عن اختيار البابا الجديد ، وفى هذه المرحلة إستخدم شارل أف أنجو نفوذة لتأمين عملية إنتخاب بابا تتفق اهواؤه مع أهداف ومصالح شارل ، وتم القبض على أثنين من الكرادله كانوا من اقرباء البابا الراحل وأودعا فى السجن بتهمة تعطيل الانتخاب ، وفى فبراير عام ١٢٨١م تم اختيار البابا الذى عرف باسم مارتين الرابع وكان أول ما فعله البابا هو وضع مدينة فيتربو تحت قرار القطع من رحمة الكنيسة بسبب الاحداث التى وقعت بعد وفاة البابا سلفه .

وإنشغل البابا بقضية توحيد الكنيسة الشرقية والغربية ، وأنزل قرار الحرمان على الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج بسبب عدم التزامة بمعاهدة وحده الكنيسة التى اقرها مجلس ليون . وجدير بالذكر هنا أن الامبراطور البيزنطى لا يعنيه من قريب أو بعيد قرار الحرمان لانه تابع للكنيسة الشرقية ويدين بالمذهب الارثوذكى وليس الكاثوليكى . وانما تأثير هذا القرار ترجع قوته الى أنه يحرم على حكام وشعب أوربا التعامل مع الامبراطور . ويرى البعض أن شارل أف أنجو كان له مصلحة كبيرة فى صدورمثل هذا القرار ، لأنه كان يخطط لحمله عسكرية ضد الامبراطورية البيزنطية، وأن البابا لبى طلب شارل كرد للجميل أوالدور الذى لعبه فى عميله إنتخابه فى مدينة فيتربو .

وفي عهد البابا مارتين وقعت أحداث كبيرة كان لها أكبر الاثر على البابوية وعلى كافة حكام أوربا بما فيها مملكة أراغون فى الاندلس والامبراطورية البيزنطية وعلى الحروب الصليبيه فى الشرق وخانية فارس المغوليه . وتعرف هذه الحادثة باسم المذبحة الصقلية The Sicilian Vespers ، رغم أن كلمة vesper تعنى صلاة الغروب .وموجز أحداث هذه المذبحة أن البابوية كان لها دوراً كبيراً فى تعيين شارل أف أنجو ملكا على جزيرة صقلية حتى تفصلها عن الامبراطورية الرومانية فى ألمانيا .

وأن شارل عامل أهل الجزيرة معاملة سيئة حتى ضاقوا به ذرعاً ، حتى انهم كتبوا إلى كونرادين للقدوم اليهم وتولى أمر الجزيرة ولكنه فشل وقتل.ومع تطور الاحداث زوج مانفرد الذى كان مرشحاً لعرش صقلية ابنته كونستانس الى بطرس بن جيمس الثانى ملك أراغون ، وبذلك يكون بطرس صاحب الحق فى عرش صقليه بعد وفاة مانفرد . وعلى هذا النحو أصبح شارل والبابا فى جانب ، وشعب صقليه وملك أراغون والامبراطور البيزنطى المحروم من رحمة الكنيسة فى جانب ، وعلى ذلك يقال أن هذه الحادثه هى مؤامرة نسجت خيوطها فى اراغون والقسطنطنية ثم نفذت على أرض مدينة بالرمو فى صقلية . وقد تولى أمر هذه الثورة يوحنا حاكم بروسيدا Procida وهو طبيب ، وقد أبعده شارل من أراضيه ، وقد خطط يوحنا لعزل شارل وتعيين بطرس الاراغونى على عرش صقلية .وقد تم تحديد يوم عيد القيامة الذى وقع فى أخر مارس عام ١٢٨٢م موعداً لتنفيذ المؤامرة .

وعندما دقعت اجراس الكنائس لتعلن وقت صلاة الغروب نهض أهل صقليه جميعاً وذبحوا كل الفرنسيين الذى كانوا على أرض الجزيرة ، وقد رتبت هذه العملية بتخطيط جديد ، ولم تفرق بين السن أو الجنس ، وعند هذه المرحلة تقدم بطرس ملك أراغون الى الجزيرة بإسطوله وتوج ملكاً على الجزيرة ، وتشير هذه الاحداث الى أن بطرس يعتبر ضالعاً فى المؤامره والتخطيط لهذه المذبحة .

وفوجىء البابا بهذه الاحداث فانزل قرار الحرمان على الملك بطرس ووضع الجزيرة باكملها تحت قرار القطع من رحمة الكنيسه ، ولكن أهل الجزيره ساندو بطرس وأصروا على عدم عودة شارل البغيض ، كما تحرك شارل وحصل على مساعدة بعض الفرق الفرنسيه وأبحر الى نابلى ومنها الى صقليه والقى الحصار على مضيق مسينا ، وهنا تدخلت الوساطة

للصلح بين الطرفين .

وإقترح شارل أقامة مبارزة فردية بينه وبين بطرس لحسم القضية ، واقترح أن تكون مدينة بوردو مكاناً لهذه المبارزة . ولما كانت هذه المدينه تقع ضمن الاملاك الانجليزيه فى الاراضى الفرنسية فقد رفض الملك الانجليزى إدوارد إقامة المبارزة ، كما أن البابا حرم إقامة مثل هذه المبارزات ، لذلك لم تتم المبارزة وتصاعد الموقف وأصدر البابا فى مارس عام ١٢٨٣م قراراً بحرمان بطرس من رحمة الكنسية ، وأحل اتباعه من قسم الولاء الذى قدموه إليه . ورغم هذا القرار فقد ظل اتباع بطرس فى أراغون وصقليه مخلصين له . وأمام هذه الاحداث منح البابا مملكة أراغون الى شارل أف فالوا valois أصغر أبناء الملك الفرنسى فيليب الثالث .

وتحرك شارل أف أنجو وذهب الى مقاطعة بروفانس لجمع بعض القوات الفرنسيه ، وأثناء هذه المرحلة نجح الأسطول الأراغونى فى الانقضاض على أسطول شارل وحطمه فى ميناء نابلى ، وقد تم أسر إبنه ويدعى أيضاً شارل أمير سالرنو . وقد حزن شارل أف أنجو لذلك حزنا شديداً وبدأ اليأس يتسرب الى نفسه ، ورغم هذا فقد اسرع لنجده إبنه ولكنه ما لبث أن مرض ومات فى مدينة فوجيا foggia فى السابع من يناير عام ١٢٨٥م ثم ما لبس أن مات البابا مارتين فى التاسع والعشرين من مارس فى العام نفسه .

هونوريوس الرابع ١٢٨٥ - ١٢٨٧م

تولى السدة البابوية والمشكلة الصقلية على أشدها ، وفى نوفمبر من عام ١٢٨٥ مات بطرس ملك أراغون وصقلية ، فتولى حكم أراغون ابنه الاكبر الفونسو ، كما تولى حكم صقليه أبنه الثاني جيمس الذي توج فى مدينة صقلية . ومن أجل حل هذه المشكلة اتفق شارل الثاني أمير سالرنو

وملك نابلى الاسير فى تلك المرحله مع جيمس ملك صقلية، وتم توقيع معاهده بين الطرفين ،تم التسليم بموجبها بحق جيمس فى عرش صقلية مقابل تحرير شارل الثانى من الاسر. وإعترض البابا علي هذه المعاهدة وأصدر قرار الحرمان على الملك جيمس ، ورد عليه الملك بأنه ينكر حق البابابوية فى التدخل فى شئون صقليه ،وعوض البابا فشله فى قضية صقلية بأن تقرب الى رودولف ملك ألمانيا وتم الاتفاق على قيام البابا بمنح الملك لقب الامبراطور،ولكن وفاة البابا فى ابريل عام١٢٨٧م ، منعت الملك من الحضور الى روما ولم يتم التتويج .

نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م)

تولى عرش البابابوية ولازالت مشكلة صقلية باقية ، وبدأعهده بمساندة شارل الثانى ملك نابلى ضد حكام أراغون وتدخل إدواردالاول ملك إنجلترا وتمكن من فك أسر شارل الثانى ، وعلى ذلك تمت معاهده ثانيه بين جمس وشارل الذى تنازل عن دعواه فى عرش صقليه . واعترض البابا نيقولا كما أعترض سلفه على المعاهده بدعوى أن مملكة صقليه تعتبر إقطاعية باباوية ، وليس من حق شارل أن يسلمها لأحد .

ويقى البابا طول العام الاول من عهده مقيما فى روما ، وفى ربيع عام ١٢٨٩ م حدث اضطراب فى المدينه فاضطر الى الانسحاب الى مدينة ريتى Rietiحيث قام بتتويج شارل الثاني في التاسع والعشرين من مايو ، ملكاً على صقليه وأبوليا ، وأعلن شارل نفسه تابعاً للبابا رغم أن صقليه كانت تحت حكم جيمس الاراغونى .

وحاول الفونسو ملك أراغون أن يحل بلاده من قرار القطع الذى أصدرة البابا مارتين فى عام ١٢٨٣م ، فدخل مع البابا نيقولا فى مفاوضات تعهد بموجبها الفونسو ألا يساند دعوى أخيه جيمس فى

الأحقيه بعرش صقلية ، ولكن الفونسو ما لبث أن مات بعد قليل ١٢٩١م دون أن يترك وريثاً يخلفه علي العرش ، فتولى عرش اراغون جيمس ملك صقلية وترك صقلية لاخيه الاصغر فريدريك . وطالب البابا جيمس بأن يقر الاتفاق الذى عقده الراحل الفونسو مع البابا وية وهو التخلى عن عرش صقلية ، وهنا رفض جيمس عرض البابا ، فاشتعلت الحرب من جديد بين جيمس وبين شارل الثاني أمير نابلى .

واهتم البابا هونوريوس الرابع بقضية الحروب الصليبية ، وإستعد أن يمول على نفقته الخاصة جيشاً من ألفين من المشاه وخمسمائة من الفرسان، وأن يستأجر السفن من البنادقة لنقل هذه القوات الى الاراضى المقدسه والتحالف مع المغول ، ولكن الاخبار وصلت اليه بتداعى بقية الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام ، وقد ملأت هذه الأخبارقلب البابا بالاسى وأحس بالعار الذي لحق به ، وكان لهذه الأحداث أكبر الاثر على أوربا جميعاً ثم ما لبث أن مات البابا فى ابريل عام ١٢٩٢م .

كلستين الخامس ١٢٩٤م

ظل كرسى البابابوية شاغراً لمدة أكثر من عام وذلك لاختلاف وجهات النظر حول انتخاب البابا الجديد الذي عرف باسم كلستين الخامس وهو من مدينة أبوليا ابن فلاح فقير له أحدى عشرطفلاً . وقد أصبح كلستين راهبا منذ حياته المبكره على الطريقة البندكتية ، وأحب حياة العزلة وعاش فى كهف بالقرب من مدينة سولمونا Sulmona. وعندما علم شارل الثانى ملك نابلى بأن البابا الذى يتم اختياره يرجع إلى مدينة أبوليا ، اعتبره من أتباعه أو من رجاله ، فأسرع إليه ومعه ابنه شارل مارتل ملك هنغاريا إلى كلستين واصطحباه إلى مدينة أبوليا ، وقد دخل كلستين المدينه راكباً حماراً دليلاً على تواضعه، وقد أمسكا بلجام الحمار شارل الثانى

وابنه شارل مارتل وسارا أحدهما على يساره والآخر على يمينه ، وقد إصطف الآلآف من المواطنين لمشاهدة الموكب ، وتم تتويجه فى مدينة أبوليا فى اغسطس عام ١٢٩٤م، ثم تقدم كلستين بعد ذلك الى مدينه نابلى واتخذ من القصر الملكى مقراً له حيث أصبح أداه ضعيفه فى أيدى الملك شارل الثانى ، وقد رفض كلستين الذهاب الى بروجيا أو الى روما. وعند هذه المرحله شعر الكرادله بالخطأ لاختيار هذه الشخصية لتصبح على رأس الكنيسة الكاثوليكية ، وبدأوا فى التخطيط للتخلص منه. ويقال أن بونيفاس الثامن الذى خلف البابا كلستين لعب دوراً كبيراً ليجعله يتخلى عن منصبه ، ويقال أيضاً أن البابا نفسه كان مريضاً وأنه لا يريد شيئاً سوى أن يعود لعزلته كراهب .

وفى ديسمبر عام ١٢٩٤م جمع البابا الكرادله وأعلن إعتزاله ، وقد إصطحب بونيفاس كلستين فى الطريق إلى روما حيث نجح الاخير فى الهروب وعاد إلى مدينة سولمونا حيث يوجد بالقرب منها الكهف الذى عاش فيه . وقد إستقبله الرهبان بكل ترحاب ، ولكن بونيفاس الذى خلفه على عرش البابوية أرسل رجاله للقبض عليه. وعندما علم كلستين بذلك إستقل سفينه بهدف الهرب إلى ساحل دلماشيا ، ولكن عاصفة قوية أجبرته على العودة حيث تم القبض عليه حيث أودع فى قلعة فومون Fumon بالقرب من مدينة أنياني حيث مات بها .

بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣م)

تم إختياره بابا فى ديسمبر عام ١٢٩٤م ،ولم يعترض شارل ملك نابلى على هذا الاختيار .ورغب جيمس ملك أراغون فى العام التالى فى عقد سلام مع البابوية ، وتنازل عن دعواه فى حكم صقليه ، ولكن شقيقه فريدريك الثالث رفض هذه الفكرة وتمسك بحقه فى حكم الجزيرة ، وقد سانده أهل صقليه فى دعواه وتوجوه ملكاً على صقليه فى مدينة

بالرمو فى مارس ١٢٩٦م .ورد البابا بونيفاس على ذلك بإصدار قرار الحرمان ضد الملك فريدريك .ولما كان أخوة جيمس قد وعد بمساندة البابوية فى حقوقها ،لذلك أصبح مضطراً لحمل السلاح فى وجه أخيه فريدريك .

وفى عام ١٣٠٢م قام شارل أف فالوا الذى سبق أن منحه البابا مملكة أراغون كاقطاعية باباوية له ، قام بحملة على صقلية ، ولكن فريدريك هزمه ، ورغم هذا تحول عن موقفه وتصالح هو وأخوه جيمس مع البابا . وقد منح البابا جيمس جزيرتى سردينيا وكورسيكا كمكافأة له على مساندته .

وقد أقحم البابا نفسه فى العداء السائد بين عائلتى أورسينى orsini وكولونا ، وقد لعب كل منهما دوراً كبيراً فى التاريخ السياسى والبابوى، وانحاز البابا الى عائلة أورسينى ، وكان هناك أثنان من الكرادله من عائلة كولونا وكانا قد عارضا انتخاب البابا بونيفاس ولكنهما أيدا الانتخاب بعد ذلك .

وكانا لهما نفوذ كبير كمستشارين فى عهد البابا نيقولاس الرابع ، وقد خافا على نفوذهما من البابا بونيفاس لانهما يساندان أهل صقلية أعداء الباباوية . وتطورت الاحداث وإستعان البابا بقواته عائلة أورسينى لتدمير القلاع الخاصة بعائلة كولونا والاستيلاء على أراضيها. وأمام هذه الاحداث فرت عائلة كولونا إلى صقلية وفرنسا وساندت الملك فليب الرابع فى صراعه مع البابا بونيفاس الذي طلب بدوره حماية ألمانيا . وخلال عهد البابا بونيفاس دار صراع فى مدينة فلورنسا وانقسم الاهالى إلى حزبين أحدهما يساند الجبليين والاخر يساند الجلفيين ،وقد أرسل البابا مندوباً إلى المدينه لاصلاح أوضاعها ولكنه فشل فى مهمته لذلك

وضع البابا المدينة تحت قرار القطع .

كما طالب أهالى أهل اسكتلندا من البابا حمايتهم من إدعاء ملك إنجلترا إدوارد الاول فى حكم أراضيهم وممارسة النظم الاقطاعيه عليهم ، وفى بدايه الامر ساند البابا إسكتلندا ، وكتب فى يونيه من عام ١٢٩٩م يبلغ الملك إدوارد أن اسكتلندا تحت حماية البابوية ويطالب الملك بالافراج عن رجال الدين الذين سجنهم . ولكن البابا غير موقفه بعد ذلك عندما احتاج الى مساندة إدوارد ضد ملك فرنسا .أما الصراع بين فيليب الرابع والباباوية فقد ذكرنا جانباً طيباً عنه فى الحديث عن فرنسا فى عصر فيليب الرابع .أما موقف البابا من قضية التحالف مع المغول فسوف نتناولة فى صفحات تالية فى الفصل الرابع .



الفصل الثالث

روسيا والغزو المغولي

مقدمة

الأمة الروسية قبل المغول

١ - روسيا الكيفية
٢- نمو القوة فى كييف
٣ - تحول روسيا الى المسيحية
٤ - الحرب الأهلية
٥ - السنوات المجيدة
٦ - السنوات المظلمة
٧- نشأة مدينة موسكوفى

الغزو المغولى وأمراء روسيا

١ - طبيعة الحكم المغولى
٢ - ايفان الأول وخلفاؤه

تطور الأمة الروسية

١- اقامة حكومة المملكة المستبدة
٢ - نشأة رقيق الأرض
٣ - الأزمة القيصرية
٤- زمن القلاقل

روسيا تحت حكم رومانوف الأول

١ - استعادة الاستقرار والسلطة
٢ - ثورة فلاحى الفولجا
٣ - ضم أوكرانيا الشرقية
٤ - الأنقسام الدينى
٥ - عوامل الضعف المهدد للعرش



مقدمة :

مع بداية عصر المسيحية كان السلافَ أجداد الروس يعيشون فى المنطقة التى تعرف الآن باسم شرق بولندا وغرب أوكرانيا ، وغرب روسيا البيضاء ، وكانوا شعباً بدائياً قبلياً يتحدث اللغة السلافية ، وهى لغه من مجموعة اللغات الهندواوربيه . وخلال الخمسة قرون الأولى للميلاد ، وهى الفترة التى تميزت بالهجرات الى أوربا وآسيا ، فإن السلاف أخذ وا طريقهم فى الهجرة وكانت هجرتهم بطيئة ولكنها مستمرة ،وبذلك أصبح من الصعب تحديد تحركاتهم بتاريخ دقيق .

وعلى أيه حال فمن المعروف انه فى القرن السادس الميلادى إنقسم السلاف الى ثلاث مجموعات تحركت فى ثلاثة إتجاهات مختلفة ، الى الغرب ، والى الجنوب ، والى الشرق ، وهاجر السلاف الغربيون وهم أجداد البولنديين poleS والتشيك Czichs والسلوفاك Slovake الى نهر الألب Elbe والأودر Oder ونهر الفستولا الأدنى Lower vistola ، وهؤلاء وقعوا تحت تأثير الثقافة الغربية واعتنقوا الديانه المسيحية على المذهب الكاثوليكى وتعاملوا مع الأبجدية الاتينية .

أما السلاف الجنوبيون وهم أجداد الصرب والبلغار فقد ها جروا إلى جبال الكربات وإلى البلقان ، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة البيزنطية وإعتنقوا الديانه المسيحية على المذهب الأرثوذوكسى وتعاملوا مع الأبجدية السيريلية Cyrillic . وهى أبجدية سلافية قديمة يقال أن مخترعها القديس سيريل Cyril الذى توفى فى روما عام ٨٦٩ م , وترجم الإنجيل الى هذه اللغة ولاتزال أشكالها الحديثة تستعمل فى صربيا وبلغاريا والاتحاد السوفيتى .

أما السلاف الشرقيون وهم اسلاف الروس فقد إتخذوا طريقهم إلى بحيرة

ريبوس Reupus وبحيرة إلمن Elmen ، إلى نهر الدنيبر ونهر أوكا Oka وأعالى نهر الفولجا ، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة البيزنطية ، وبالتدريج إتخذت ثقافتهم نحواً يحاكى ثقافة السلاف الجنوبيين ، ولكنهم كانو مختلفين عن السلاف الغربيين وفى القرن السادس الميلادى كان السلاف الشرقيون بعيدون عن جيرانهم الذين يعيشون فى منطقة الأستبس خاصة من هم تحت النفوذ البيزنطي والغربى ، وكانت حياتهم الإجتماعية والاقتصادية هى القبيله ، وكانوا يعيشون جماعات فى منازل بسيطة لاتعدو أن تكون أكشاك خشبية أو فى تجويف جذوع الشجر. وقامت حياتهم على الزراعة بمحاريث خشبية تجرها الخيول أو الثيران ، وعلى الصيد فى الأنهار وعلى صيد الحيوانات . وكانت القبيلة تتحرك كلها للبحث عن أرض جديدة ، حيث تكون الطبيعة رحيمة بهم ، لذلك كانوا دائماً عرضة لهجوم القبائل الأخرى .

لقد عكست الديانة التى إعتنقها هؤلاء السلاف المستوى الثقافى لهم ، وكان العالم بالنسبة لهم غامض ملآن بالشر ، وأن الأرواح الطيبة يمكن أن توجد فى بعض الأماكن أو ربما فى الصخر أو الجداول المائية أو الأشجار أو حتى فى الحيوانات أو الإنسان ، وفوق كل هذه الأرواح تسيطر الآلهة على القوى الطبيعية مثل الاله برون Perun إله الرعد والبرق واستريبوج Stribog اله الرياح والإله سفاروج savarog إله السماء.

ومن أجل الحصول على رضاء هذه الآله كان على الأنسان أن يقدم الأضحيات والصلوات أمام الآله المصنوعة من الذهب أوالفضة ، ولم يكن هناك قساوسة للقيام بالخدمات الدينية ، بل كان هناك السحرة ، وهم الذين يقومون بمثل هذا العمل ، كما انهم كانوا أيضاً يتنبئون بالمستقبل .

وانعكس المستوى الثقافى على تنظيمهم السياسى ، وهو مايشبه التنظيم الاجتماعى والاقتصادى الذى يعتمد على القبيلة التى كانت تحت قيادة كبيرهم وهو الحارس على القيم القانونية ، وهو مصدر التشريع ، وفوق ذلك فإن القبيلة لم يكن لها تنظيم آخر ، وأن الغرض من كل ذلك هو وحدة القبيلة عندما كان الأمر يحتاج الى الدفاع أو الهجوم .

وكان ثقافة وسياسة السلاف الشرقيين تتقدم منذ ظهورهم فى سهول روسيا فى القرن السادس الميلادى حتى الوقت الذى بدأت فيه دولتهم فى الظهور فى القرن التاسع الميلادى ، وقد تأثر ذلك كله بالطبيعة والبيئة المحيطة وهى الطبيعة التى تميزت الحياة فيها بالمخاطر والمكافأة ، لقد هددتهم قوة الأعداء بالانقراض ، بينما بشرتهم الطرق التجارية الغنية والأرض الخصبة والرصيد الهائل من الغابات وخيراتها والأنهار ، بمستقبل أفضل ، خاصة إذا ماعاشوا فى جماعات . وحتى يصبحوا سادة هذه البيئة فقد وجدوا إلزاماً عليهم أن يغيروا من نظام حياتهم ، لذلك بدأوا فى إقامة منازل ثابته ودائمة حتى يتمكنوا من تقوية وسائل الدفاع عنهم ، وحتى يخططوا لإقتصاد حقيقى ، ويوحدوا أو يضموا وحداتهم السياسية الصغيرة وهى القبيلة فى نظام أكبر وأشمل .

وخلال القرنين الثامن والتاسع الميلادى فقدت القبيلة أهميتها ، وبدأت المدن فى الظهور عندما إستقر فيها هؤلاء السلاف ، وقد ساعد على نمو هذه المدن وجود الطرق التجارية بين شرق وغرب أوربا ، ونتيجة لذلك إمتدت التجارة بين أوربا وآسيا ، وكان أهم هذه الطرق التجارية طريق نهر الرود Road الذى يمتد من البحر البلطى الى البحر الأسود ، وطريق آخر يصل بين بحر قزوين ونهر دفينا Dvina أو بحيرة لادوجا Ladoga ونهر الفولجا . وكانت أعظم المدن الروسية هى مدينة كييف Kiev،

وتشرينجوف Chernigor ونوفجورد Novgorod التى نمت على الطرق النهرية ، وقد ربحت هذه المدن وغيرها من نمو التجارة بتصدير الفراء ، والعسل ، والشمع والدقيق التى كانت ترسل الى القسطنطينية وهى المركز الرئيسى للتجارة البيزنطية والى البلاد العربية . وكان يتم تبادل البضائع مثل الحرير ، والعطور ، والتوابل ، والرماح ، والسيوف،والمعادن الثمينة ، وهى التى يعاد بيعها فى عودة الرحلة الى البحر البلطى .

وكان لنمو المدن آثراً كبيراً على الحياة السياسية والاجتماعية والإقتصادية . وقد غير هذا كله من أحوال السلاف الشرقيين فقد ظهرت فى كل مدينة نواة للسلطة وهى المجلس العام ، وهو يتكون من جميع الرجال البالغين . ومن وقت لآخر يعين هذا المجلس أميراً على المدينة ومعه بعض المحاربين الذين يتولون أمر حماية المدينة .ومع زيادة الأمان زادت المشروعات وظهرت طبقة من التجار المغامرين ، وبدأت الثروات فى الازدياد والظهور وقد تعاون ذو الثروة والمركز الإجتماعى تماماً مع أمير المدينة من أجل الحفاظ على مصالحهم .

وقد إستطاع العديد من هؤلاء الأمراء تقوية مدنهم بإخضاع المدن الضعيفة ، أو بإتحاد مدنهم الضعيفة مع مدن أقوى من أجل الحماية العامة ، وعلى سبيل المثال ، فإن مدينة مثل كييف أو نوفجورد أو تشيرنجوف ، وسمولنك Smolensk وبلوزيرو Beloozero وإزبورسك Iz-borsk أصبحت مركزاً لوحدات سياسية واسعة .

وكان نمو المدن هاما جداً لتقدم هؤلاء السلاف ، ولم يتم ذلك فى وقت قصير ، ولكنه غير من أنماط الحياة التقليدية . وفى القرن التاسع فإن قوة التجار الفارانجيين Varangians من أهل إسكندنافيا قد ظهرت على طول الطرق النهرية ، وقد قام الفارنجيون بأعمال النهب عندما لا يكون

لديهم تجارة ، وقاموا بأعمال التجارة إن لم يكن لديهم قدرة على النهب، وكانو قادرين على أن يكسبوا الجانب الإقتصادى والسياسى فى المدن السلافية وانهم إستخدموا هذه القوة فى تقدم المدن فى النشاط التجارى المدنى . وكانت سيطرتهم قد ساعدتهم على النمو السريع للتنظيم السياسى بعيداً عن النمو الروسى .

تطور الأمة الروسية

مع أن شعوباً عديدة قد عاشت على سهول روسيا قبل قدوم السلاف الشرقيين ، الا أن أيا منها لم يوفق في خلق سياسة مستديمة أو فى إستحداث ثقافة قومية ، وقد نجح سلاف الشرق فى ذلك ولكن بعد التغلب على مصاعب جمة .فلقدعاق تقدمهم عوامل كثيرة منها :

١ - تخلفهم الثقافى عند هجرتهم .
٢ - ضعفهم النسبى كأسبق المتنافسين على أفضل أقاليم السهل .
٣ - القتال المستمر والصمود للغارات التى كانت تشنها الجماعات البدوية العديدة .
٤ - الضرورة التى فرضت عليهم التسليم لسيادة الشعوب التى تفوقهم قوة . والتى تسعى وراء القوة والمكسب فى الأرض التى إختاروها .
٥ - الأنشقاقات الداخلية التى نشبت بتطوير وتقدم نظامهم السياسى .

وكأن الثمن الذى دفعوه للبقاء والتقدم فى ظل هذه الظروف هو

١ - الاستبداد المطلق للحكومة
٢ - إستعباد الأغلبية للأقلية
٣ - التخلف الثقافى المستمر

روسيا الكييفية :

إقامة الدولة الروسية : - ليس من السهل الكتابة عن تسلسل

الأحداث أثناء الفترة التى قامت فيها علاقة وثيقة بين السلافيين والفارنجيين ، وهى الفترة التى شهدت بداية الدولة الروسية ، وذلك بسبب نقص المصادر الموثوق بها . وعلى أيه حال فإن "Chronicle of Contemporary years" وهى من أقدم الحوليات التاريخية الروسية التى تورد أحداث عن تلك الفترة تعتبر هامة وثقه كتراث للروس ، ولو أن أجزاء منها غير قابلة للتصديق ، ولكن ملخصاً بسيطاً لها يصلح على الأقل كمقدمة لسرد التاريخ الروسى .

ووفقاً للحوليات ، بدأ الفارنجيون القادمون من إسكندناوه الواثقون من تفوقهم فى الحصول على ضرائب من السلاف فى منتصف القرن التاسع ، وقد أدى هذا الى إثارة السخط ، ودفع السلاف إلى الثورة ضدهم وطردهم مرة أخرى إلى إسكندناوة . ولكن سرعان ماسادت الفوضى وعم الأضطراب من محاولة السلافيين حكم أنفسهم إلى درجة انهم توسلوا للفارنجيين أن يعودوا ويحكموهم .

وقد لبى الدعوى ثلاثة إخوة فارنجيين وهم روريك Rurik وسنيوس Sineus وتروفور Truvor ، وأقبلوا مع أتباعهم المسلحين ، وقد نصب روريك نفسه آميراً فى مدينة نوفجورد ، وسينيوس فى بلوزيروBeloozero وتروفور فى إزبورسك Izborsk . وفى خلال عامين توفى سينيوس وتروفور تاركين روريك يسيطر على منطقتيهما ، وبينما كان روريك يهتم بشئون إمارته الواسعة فإن أتباعه من السلافيين والفارنجيين عبروا حدود الإمارة وإستقروا فى كييف وأقاموا علاقات تجارية واسعة ، وبعد وفاة روريك فى ٨٧٩م إعترف بإبنه إيجور Igor ، وكان طفلاً صغيراً ووريثاً له فى أرضه وسلطته ، ولكن لما كان إيجور طفلاً صغيراً فقد حكم بالنيابة عنه قريبه أولج oleg حتى بلغ الطفل سن الرشد ، وقد آثبت أولج أنه

أوسع طموحاً من روريك فى توسيع وتقوية إمارته . فإستولى على مدينة كييف وأقام بها سلطة مركزية على كثير من المدن الأخرى التى أخضعها لحكمه ، بما فى ذلك المراكز التجارية الهامة مثل سمولنسك ونوفجورود ، وبعد هذا كسب أتباعه من سلافيين وفارانجيين ، وأطلق عليهم جميعاً إسم الروس من الكلمة الفارنجية (Rus) ، نتيجة حمايتهم وتنظيم مستوطناتهم وتأمينهم فى ترويج تجارتهم مع بيزنطة .وهكذا وضع أولج آساس دولة روسيا الكييفية ، وهى دولة حكمها الأمراء المتعاقبون من سلاله روريك .

إن أجزاء من تلك الرواية ثبتت صحتها بالمصادر الموثوقه بها . فقد يكون من المؤكد أن الفارنجيين كانو قد وطدوا فى النصف الثانى من القرن التاسع سيطرتهم الحربية والسياسية على المستوطنات السلافية الشرقية ، وأنهم كانوا قد نجحوا فى تكوين نواة دولة مركزها كييف ، وأنهم تولوا سلطة الحكم فى تلك الدولة وانه خلال القرن العاشر كان اسم الروس يطلق على الدولة الوليدة وشعبها كما تدل الشواهد . على أن أحد الفارنجيين وإسمه روريك كذلك كان قد إكتسب وضعاً بارزاً بالنسبة لبعض المدن السلافية فى الفترة التى تعنيها الحوليات . وأنه كان أول من أسس عائلة حاكمة روسية توفى آخر أفرادها وهو فيودور عام ١٥٩٨ م . وهناك نقط فى الرواية لازالت موضع جدل خصوصاً بالنسبة لكلمة Rus (روس) وردها إلى أصل فارانجى لأن الكثير يعتقد أن أصلها سلافى شرقى .

ومع أن السلافيين فى تلك الفترة المبكرة قبلوا قيادة الفارانجيين فى الشئون السياسية والاقتصادية إلا أنهم لم يقبلوا ثقافتهم . وعلى العكس فإن الفارنجيين هم الذين تطبعوا بخصائص الثقافة السلافية ، وإستمرت الدولة النامية سلافية فى الأساس .

٢ - نمو القوة فى كييف :

فى بداية القرن العاشر كان الروس قد وطدوا مركزهم فى كييف الى حد استخدامها كمعقل لحماية تجارتهم فى نهر الدنيبر الأسفل ، لأن هذا النهر كان طريقاً خطراً الى القسطنطينية - وخلال المائة سنة التالية كان أمراء كييف قادرين على تقوية ذلك المركز ، وبسط سلطانهم على القبائل والمدن التى تقع على إمتداد الطريق النهرى ، وضم مساحات جديدة الى الدولة التى يسيطرون عليها ، ولكن تقدمهم لم يكن سريعاً أو سهلاً ، وكانوا يعهدون بإدارة الأراضى الخارجية (أى الإمارات) إلى الأقارب الذين لم يكن لهم إهتمام سوى عزل قريبهم فى كييف من كرسى الإمارة وليس توطيد سلطانه . وظلت الدولة أقرب الى كيان مفكك . فضلاً عن المضايقة المستمرة من الأعداء الخارجيين خاصة الخزر Khazars والبجناكية(البشناق) Bechenegs الذين كانوا يتنافسون معها على الطرق التجارية الجنوبية ، ومع ذلك إستمر أمراء كييف فى تعزيز إمتيازاتهم . فقد نجحوا أن يبقوا أعداءهم على مسافة آمنه لعدة أعوام وفى كبح مطامح الأمراء الصغار . وفى نفس الوقت حافظوا على العلاقات التجارية مع الإمبراطورية البيزنطية ، وإستطاعوا بالتدريج ان يأمنوا شرها بتكرار إستعراض القوة العسكرية الكييفية ، والتى وصلت فى بعض الأحيان الى مهاجمة القسطنطينية مثلما حدث فى عام ٨٦٠ م . والواقع أن الهجوم الروسى لم يستهدف الغزو بل كان من أجل السلب والنهب ، لذلك عادت القوة الروسية بعد أن حققت أهدافها ، وقد ساعد على ذلك أن الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث Micheal III (٨٤٢ - ٨٦٧م) كان قد خرج بجيشة لمحارية المسلمين ويمدنا فوتيوس photius بطريك القسطنطينية بجانب من المادة التاريخية حول هذه الأحدث .

وهاجم الروس الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى عندما هاجموها بقيادة أميرهم أولج Oleg ووصلوا حتى اسوار العاصمة فى عام ٩٠٧ م . وقد نجح الروس فى إنزال بعض الخسائر ببعض المواقع البيزنطية ، وإضطر الإمبراطور ليو إلى التفاوض ، وانتهى الأمر بعقد اتفاق بين الطرفين ، وجدد هذا الإتفاق مرة أخرى عام ٩١١م ، ونصت بنوده على منح الروس تسهيلات وإمتيازات بحرية فى الأراضى البيزنطية - وإستمر السلام بين الطرفين حوالى ثلاثين عاماً إنتعشت خلالها التجارة بين الطرفين ، وإستمر البيزنطيون فى سياستهم التى ترمى الى كسب الروس إلى جانبهم عن طريق الهدايا . وفى عام ٩٤١م تعكر صفو السلام بين الطرفين ، فقد قام الأمير الروسى إيجور بحملة فجائية على العاصمة البيزنطية ، ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور، ورست القوات الروسية على الشاطئ الآسيوى للبسفور فى إقليم بثينا Bithynia ونهبوا وسلبوا . وفى ذلك الوقت كانت القوات البيزنطية تحارب فى الشرق عند مدينة ملطية ، فإستدارت القوات وعلى رأسها حنا كوركواس John Curcuas وتوجهت الى ميدان القتال وهزمت الروس شر هزيمة فى إقليم بثينا . وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحرى ثيوفانيس Theophanes قاد حملة بحرية ضدهم - وهم يعدون العدة للإنسحاب ، مستخدماً النار الأغريقية ونجح فى تدمير معظم سفنهم التى قدموا عليها.

وعاود الروس الإغارة على الأراضى البيزنطية فى خريف عام ٩٤٤ م ، وإستعدوا إستعداداً ضخماً هذه المرة وتحالفوا من البجناكية لضرب الإمبراطورية ، وحددوا ميدان المعركة فى هذه المرحلة لكى تكون على نهر الدانوب بدلاً من الشاطئ الأسيوى ، ليكونوا على مقربة من البجناكية

المتحالفين معهم ، والواضح أن الإمبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة الروس والبجناكية لإنشغالها بحروبها فى الشرق خلال هذا العام ، وماتلى ذلك من الصراع على العرش بين ولدى رومانوس وقسطنطين السابع ، لذلك وجدت الدولة أن من الحكمة أن تريح نفسها من هذا الصراع فى الوقت الذى تعلم فيه ان الأموال والهدايا لها مفعول أقوى من مفعول السيوف مع مثل هذه الأقوام ، لذلك إنتهى الأمر بالصلح فى العام نفسه ، وكلل هذا الصلح بمعاهدة تجارية تتلاقى فى خطواتها الرئيسية مع صلح عام ٩١١ م ، ولكنها كانت لصالح الإمبراطورية البيزنطية أكثر منها لصالح روسيا .

ساد السلام بين بيزنطة والروس ، وتوطدت أركان الصداقة بينهما عندما زارت الأمبراطورة أولجا olga – أرملة إجور والوصية على العرش الروسى – القسطنطينية عام ٩٥٧ م حيث تم إستقبالها إستقبالا حاراً وعمدها بوليكتوس polyeuctes بطريق القسطنطينية (٩٥٦ – ٩٧٠ م)) وسميت باسم هيلينا ، وهو إسم زوجة الإمبراطور قسطنطين السابع ، وإن كان البعض يرى أنها إعتنقت المسيحية قبل ذلك بعدة سنوات ، والمهم أن هذا الحدث فتح عصراً جديداً فى العلاقات البيزنطية الروسية ، وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكية أرضاً صالحة للقيام بعملها التبشيرى فى روسيا .

وعندما أصبح سفياتوسلاف Svyatoslav أميراً لكييف عام ٩٦٤م ، وجد أن المدينة على درجة من القوة سياسياً وإقتصادياً وعسكرياً تبرر محاولة توسيع المملكة فى ظل سيطرتها . فإتجه أولاً الى الشرق وغزا بلاد الخزر وإستولى على أراضيهم الواقعة عند نهرى الفولجا السفلى والدون ، ثم استدار بقوته بناء على طلب الإمبراطور البيزنطى الى الغرب ضد البلغار على الدانوب ، وهناك ضم إلى إمارة كييف مزيداً من

الأراضى - ولكن طموحه تجاوز الحد وشتت حملاته العسكرية القوة العسكرية لكييف .

وكان البجناكية والإمبراطورية البيزنطية على استعداد لإنتهاز الفرصة ، واستطاع البجناكية أن يحرزوا إنتصارات كبيرة ضد الروس حتى أصبحوا يهددون مدينة كييف ذاتها ، كما أجبروا الإمبراطور البيزنطى على التخلى عن الأراضى الواقعة على الدانوب ، وحاول سفياتوسلاف أن يعزز دفعاته ، ولكن قبل أن يصلح مافقدة كان قد قتل فى عام ٩٧٢ م فى مواجهة مع البجناكية .

تحول روسيا الى المسيحية :

من أهم الأحداث خلال حكم فلاديمير تحول الروس الى ديانة كانت تشكل العنصر الرئيسى فى الثقافة البيزنطية - أى الديانة المسيحية - التى تؤديها الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - أو الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية . ولقد ولدت هذه الكنيسة نتيجة للإنشقاقات والإنقسامات العديدة التى دمرت الوحدة الأهلية للكنيسة المسيحية . وبسبب الإنقسام نشأ مركزان دينيان رئيسيان وهما روما. والقسطنطينية. ومع أن الإنقسام النهائى بين هذين المركزين لم يحدث إلا عام ١٠٥٤، . فقد ظهر تنظيميان دينيان مستقلان فى القرن التاسع وهما الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومركزها روما ، والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ومركزها القسطنطينة .

وخلال القرن العاشر كان عدد كبير من أفراد الطبقات العليا قد تأثروا بالثقافة والديانة البيزنطية الأكثر تقدماً ، وكان من الطبيعى أن يميل الأمراء والحكام نحو العقيدة البيزنطية ، وحوالى عام ٩٨٨ م إستقبل فلاديمير فى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بالقسطنطينية ، وبعد سنتين أعلن أن المسيحية هى عقيدة مملكته ، وأمر بتعميد كل رعاياه . وكانت

هذه الأعمال سبباً فى ضمه الى القديسين فيما بعد . وأعقب ذلك إقامة أسقفية مركزها كييف لتكون فرعاً للكنيسة البيزنطية ، وكان مطرانها يعين بمعرفة بطريك القسطنطينية . وحتى عام١٢٧٣م كان المطارنة والقسس من الأغريق أو البلغار .

وكان انتشار المسحيية فى الروسيا تدريجياً وقد بدأ بالطبقات العليا وانتشرت ببطء فى الطبقات السفلى وعلى نحو أبطأ فى سكان المناطق الريفية ، وإستمرت عبادة الآلهة الوثنية سراً لعدة قرون حتى وجدت بعض العناصر الوثنية طريقها للعقيدة الجديدة تدريجياً . ومع بناء دور العبادة وإقامة الأديرة وتدريب رجال الدين المحليين بدأ الروس فى النظر الى الكنيسة كمركز روحى لهم حتى أصبح القطر الروسى يعرف باسم « روسيا المقدسة » .

كانت لغة الكنيسة فى الروسيا هى السلافية وليس اليونانية ، لقد إعتادت الكنيسة الأرثوذكية الشرقية على إستخدام اللغات المحلية فى الصلاة ا للمناطق التى تدخلها المسيحية ، ولكن لما كانت الكنيسة السلافية قد نشأت وتطورت فى بلغاريا والتى كانت قريبة الصلة باللغة المتداولة فى الروسيا فقد استخدمت فى الأخيرة كلغة دينية . ولقد تطورت أبجدية اللغة السلافية الكنيسة المبنية على الأبجدية الأغريقية أساساً على يد المبشر سيريل , Cyril وذلك فى الجزء الأخير من القرن التاسع ، حتى يمكن ترجمة الأدب الدينى الى اللغة المحلية للسلاف الجنوبيين والغربيين ، وبذلك يمكن تحويلهم إلى المسيحية . وقام شقيق سيريل ويدعى مثوديوس MethodiuS بترجمة الكتاب المقدس(الإنجيل) للغة السلافية الكنسية وأعقب ذلك ترجمة النصوص الدينية الأخرى . كانت هذه الترجمات أول عمل أدبى مكتوب متاح للروس وأصبحت نموذجاً لأدبهم الدينى . كما أن أدبهم الدنيوى قد استخدم السلافية الكنيسة حتى القرن الثامن عشر تقريباً .

٤ - الحرب الأهلية ١٠١٥ - ١٠٣٦م

تمزقت روسيا الكييفية نتيجة الصراع على العرش بين أبناء فلاديمير الخمسة لمدة عشرة أعوام بعد وفاته عام (١٠١٥م) ،وقد بدأ أكبرهم سفياتوبولك Svyatopolk فى تبوأ العرش بعد قتل إثنين من إخوته ، ولكنه وجد منافساً له وهو أخ آخر يدعى ياروسلاف yaroslav أميرنوفجورد وقد هزم ياروسلاف الأمير سفياتوبولك عام ١٠١٩م واخضع كييف وسيطر عليها واعتبر نفسه الأمير الكبير ، وفى ذلك الوقت كان هذا هو اللقب المقبول للحكام الروس الكيفيين . ولكن أخاه الذى ظل على قيد الحياة ويدعى مستيلاف Mstilav نازعه هذا اللقب ، فاضطر الى أن يتقاسم معه المملكة حتى عام ١٠٣٦ وهو تاريخ وفاته ، وكان مستيلاف يحكم ذلك الجزء الواقع شرق الدنيبر بينما كان ياروسلاف يحكم باقى القطر .

٥ - السنوات المجيدة ١٠٣٦ - ١٠٥٤م

وبعد عام ١٠٣٦ م إستطاع ياروسلاف المعروف باسم الحكيم باعتباره الأمير العظيم أن يصل بروسيا الكييفية إلى ذروة التقدم عن طريق الاستمرار فى المشاريع والخطط التقدمية التى بدأها فى سنواته الأولى . وهكذا أخذ يشجع ويحمى العلاقات الاقتصادية الروسية مع الأقطار الأوربية والاسيوية حتى أصبحت كييف ملتقى التجار البيزنطيين والعرب والهولنديين والبولنديين والمجريين والأسكندناويين . كما أصبحت كييف مركزاً للتقدم الثقافى الروسى . وتم تشييد كاتدرائية أيا صوفيا هناك بمساعدة بيزنطة ، كما آقيمت بها مدرس ومكتبات ، وحظى الدارسون والفنانون بالتشجيع واتجه الشعب إلى الأنشطة السلمية . ورغم أن روسيا الكييفية كانت مرتبطة على نحو أوثق بالامبراطورية البيزنطية إقتصادياً

وثقافياً إلا آنها بدأت تعقد صلات أسرية مع العائلات الحاكمة في أجزاء أخرى من العالم وكانت مثل هذه الروابط هامة في تلك الأيام . لقد إرتبط ياروسلاف نفسة بروابط المصاهرة مع ملوك إنجلترا وفرنسا والنرويج وبولندا . وبتوجيهات من ياروسلاف تم تجميع أول مجموعة للقوانين في الروسيا وهي القانون الروسي . ومن حيث الشكل كان هذا القانون على نمط القانون البيزنطي ، وفي المضمون كان عبارة عن ملخص لما إعتبره ياروسلاف الأفضل بين الحقوق والإجراءات التي إستقرت بالعرف بين السلافيين والسكندنافيين والألمان ، لقد اعترفت أحكامه بالرق كنظام وبالتجارة كنشاط أساسي ، كما إعترفت هذه الأحكام في صورة معدلة بالممارسة العرفية في السماح بتسوية المسائل الجنائية بين أطراف الخصومة ، لقد سمح بالانتقام الشخصي في ظل بعض الظروف ، وفي أحوال أخرى كانت تدفع أموال تتدرج حسب المركز الإجتماعي للشخص المضار ، وكان تنفيذ القانون العرفي في ظل القانون الرسمي مشاركة بين الكنيسة والدولة .

٦ - السنوات المظلمة : ١٠٥٤ - ١٢٢٣ م :

عندما توفي ياروسلاف (١٠٥٤ م) إبتداء نور السنوات المشرقة في الأفوال . وعلى أمل تلافي الصراعات الداخلية في المستقبل والإحتفاظ بوحدة المملكة ترك ياروسلاف لكل واحد من ورثته الست إدارة جزء من المملكة ، وأوصى الخمسة الصغار من الورثة بطاعة أخيهم الأكبر الذي سيكون أميراً لكييف . وبعد ذلك إنقسم القطر الى إمارات تختلف من حيث الأهمية وتتزايد من حيث العدد مع كل جيل من نسل الإمارة . فعند موت أمير كييف فإن أكبر الأمراء يقوم بإخلاء الإمارة التي كان يحكمها ويتولى حكم كييف حاملاً لقب أميرها ، بينما ينتقل الأمراء الأحداث سناً في السلم الهرمي للإمارات .

وكان فى هذه الطريقة للخلافة بعض نقاط الضعف الرئسية منها : أنها تفرض فى بعض الأحيان على الرعايا فى الإمارة أميراً جديداً لايوافقون عليه ، وتستبعد أميراً كانوا يفضلونه لقد سمحت للإمراء بتولى السيادة والملك بترتيب عمرى منتظم بصرف النظر عن قدرتهم ، وكان نجاح العملية يتطلب درجة عالية من الوحدة السياسية والتماسك الثقافى تفوق تلك التى كانت متاحة لروسيا الكيفية . وكانت قوة الأمير العظيم فى كييف العامل الرئيسى فى تماسك القطر ووحدته .

وعندما يتولى السلطة فى كييف أمير ضعيف كان الأفراد الصغار فى العائلة المالكة ، يميلون الى تأكيد طموحاتهم فى السلطة والاستقلال . مكونين تحالفات عسكرية ضد الأمير الكبير أو شانين الحرب ضد المنافسين الآخرين . وقد تطرف البعض إلى حد التحالف مع الأجانب ، كالبولنديين والمجريين وقبائل القفجاق البدوية .

وأخيراً وفى عام ١١١٣ م ، حكم كييف أمير كان من القوة بحيث إستطاع إيقاف هذا التمزق لوقت قصير - وهو الأمير فلاديمير مونماخ monomakn حفيد ياروسلاف . لقد بذل جهداً لعقدالسلام بين الأمراء المتنافسين ، ونجح فى نشر السلام بينهما نسبياً لمدة اثنا عشر عامً ، ولو أنه أخفق فى إرساء نظام فعال لهم .وفى هذه الأثناء أمكنه أن يوقف غارات القبائل البدوية على حدود الروسيا ، وأتاح لكييف الفرصة فى استعادة بعض رخائها السابق . ولكنه لم ينجح فى تحويل قوى التحلل والتفكك إلى قوى بقاءه . وبعد وفاته أخذ الفساد ينخر فى بناء الدولة على نحو أسرع من ذى قبل ، وبدأت كييف تفقد القوة سواء كنقطة مركزية للسلطة السياسية أو كمدينة ، فالسلطة التى تركزت هناك أصبحت مقسمة بحيث أصبحت سيطرة كييف قاصرة على الجنوب فى

حين سيطرت نوفجورود على الشمال ، وغالسيا galicia على الغرب ،سوزدالSuzdal ، وفلاديميرVladmir على الشمال الشرقي ،

٧ - نشأة موسكوفي Muscovy

من بين تلك المدن التى كانت تتنافس على الظهور ، لم تكن هناك مدينة أحسن موقعا من موسكو، وهي مدينة أنشأت - حسب المصادر القديمة - فى عام ١١٤٧م، فموقعها الجغرافى بالقرب من قلب الأراضى الروسية بالاضافة إلى الأحداث التاريخية وشدة بأس حكامها الأمراء ، كل هذه العوامل وفرت لها مزايا غير عادية للنمو .

وبسبب موقعها على نهر موسكوفا (ويطلق على المدينة باللغة الروسية مدينة موسكوفا) فى نقطة مرور طريق التجارة الذى يصل ما بين نهرى أوكا Oka وفولجا العليا، أمكن لأمرائها أن يطوروها كمركز تجارى متين فيتحكمون منه على إمارة شاسعة تعرف باسم موسكوفى، وفى الوقت المناسب استطاع أمراء موسكو في أن يجعلوها مضفين عليها شعارات ورموزا وطنية سعينة وباسطين سلطتهم السياسية والعسكرية على المناطق المجاورة .

وبعد هذا التقسيم أخذت كييف تتدهور بسرعة ، وفى عام ١١٦٩ م إجتاحت المدينة قوات متحالفة لمجموعة من الأمراء ، وفى خلال ثلاث أيام كانت قد خربت أو نهبت الكثير . كما أخذت كييف تعانى على أيدى القبائل الرحل التى أخذت تهاجم شمال البحر الأسود مما أدى إلى تقليل حجم التجارة مع بيزنطة وهددت المدينة ذاتها - وبعد أن وقعت القسطنطينية فى يد الصلبيين عام ١٢٠٤ م وتدهورت بيزنطة نفسها إقتصادياً وسياسياً أصبحت الحياة الاقتصادية لكييف بلاسند أو نصير . وبعد أن أصبحت روسيا فقيرة وضعيفة لثالث مرة خلال مائتى عام صارت فريسة سهلة نسبياً للقوى الأجنبية النهاية ، وكان علي حدودها

الكثير من تلك القوى . وجاءت أولاً قبائل القفجاق البدوية التي أزعجت الإمارات في منطقة الأستبس حتى القرن الثالث عشر . عندما مايئست من النجاح بدأت تتحالف مع مختلف الأمراء الروس .

وفي خلال هذه الفترة جاء اللتز Letts والليتوانيون من منطقة البلطيق الذين طردهم الفرسان التيوتون من ديارهم بهدف الإقامة في الإمارات الروسية الشمالية ، كذلك السويديون الذين أرادوا السيطرة على مصب نهر نافا Neva وقطع تجارة نوفجورود ، ومن الجنوب الغربي جاء المجريون الذين كانو يندفعون نحو الشرق فاتحين ، خصوصاً في جاء المجريون الذين كانو يندفعون نحو الشرق فاتحين ، خصوصاً في إمارة غالسيا . وأخيراً جاء المغول من الجنوب الشرقي وهم محاربون متوحشون ومدربون على القتال فإكتسحوا الروسيا من منطقة القوقاز عام ١٢٢٣م .

الغزو المغولي وأمراء روسيا

١ - طبيعة الحكم المغولي :

نجح المغول في محاولاتهم الأولى عام ١٢٢٣م في هزيمة الأمراء الروس الذي تحالفوا ضدهم وألحقوا بهم الهزيمة بالقرب من بحر أزوف . وعلى أي حال فاتهم لم يندفعوا في الغزو في ذلك الوقت ، وبدلاً من ذلك عادوا إلي آسيا . وبعد ثلاثة عشرعاماً أي في عام ١٢٣٦م جددوا هجومهم ، وفي هذه المرة أتموا غزوهم للروسيا في غزوتين رئيسيتين. فقد هاجموا أولاً الإمارات الوسطى والشمالية حيث إحتلوا بالقوة أو قبلوا خضوع مدن ريازان ، وكولومنا ، وموسكو، وفلاديمير ،و سوزدال ، وتفرTevr ، وفي شتاء عام ١٢٣٨ كانوا على بعد ستين ميلاً من نوفجورد ،ولكنهم عادوا إلى جنوب روسيا هرباً من قسوة الشتاء في الشمال ، ومن قاعدتهم في

الجنوب جددوا غزوهم التالى الذى بدأ عام ١٢٣٩م. الذى أسفر عن سقوط كييف عام ١٢٤٠ م .

ومن كييف إستمروا فى الزحف غرباً إلى المجر وبولندا إلى أن اضطروا إلى إيقاف العمليات عام ١٢٤١ م بسبب حدوث تغيرات سياسية فى امبراطورية المغول . وخلال العام التالى أقاموا مراكز رئيسية لهم فى سارای sarai التى تقع على نهر الفولجا بالقرب من ستالنجراد الحالية ، ووطدوا حكمهم وأصبحت الامارات الروسية التى غزوها ، وتلك التى وافقت على الخضوع ،تعترف بسيادة المغول كما إعترفت بها نوفجورود - ولو أنها لم تتعرض للغزو - وذلك لضعفها . ولكن المغول لم يستطيعوا أن يحتفظوا بكل مكاسبهم . ففى النصف الأول من القرن الرابع عشر ضمت دوقية ليتوانيا الكبرى الصاعدة معظم غرب روسيا (المعروفة الآن بروسيا البيضاء)، وفيما بعد ضمت جزء من روسيا الصغيرة (المعروفة الآن بأوكرانيا) بما فيها مدينة كييف .

لقد خضعت روسيا فيما عدا مدينة نوفجورد والبلاد الشمالية الغربية للسيطرة المغولية، وقد مات خلال المعارك التي وقعت بين المغول والروس العديد من الأمراء كما فر الباقون، أما العامة فقد ماتوا بالآلاف خلال هذه الحروب، كما أن سيدات وأفراد الطبقات العليا قد أصابتهم المزلة ونزلوا إلى ميدان العمل بعد الحياة الرغدة التي عاشوها. وإذا بحثنا على الأسباب التي أدت إلى هزيمة الروس أمام المغول فنجدها كثيرة، ولعل أهمها النقاط التالية:

١ - أن المغول لم يكونوا أكثر تقدماً في الجانب العسكري عن الروس الذين تعلموا بعض فنون القتال من أوربا في تلك المرحلة، ولكن المغول كان لديهم التفوق العددي في كل المعارك التي خاضوها ضد الروس.

٢ - كان تحرك القوات المغولية بمثابة تحرك رجل واحد أمام القوات الروسية المتفرقة، لذلك نجحت في هزيمة قوات أمراء المدن.

٣ - لقد كانت القوات الروسية منقسمة وموزعة داخل روسيا، وإذا ما حاولت القوات الروسية الاتحاد لمواجهة المغول، كانت القوات المغولية تفاجئها قبل الاتحاد بقوات المغولية السريعة الحركة.

٤ - كانت جميع القوات المغولية موحدة عسكرياً تحت قيادة الأمير باطو وجميعها مسلحة، أما القوات الروسية فإن الأمراء ورجالهم هم الذين كانوا مسلحين فقط، وفيما يتعلق بالغالبية العظمى فقد كانت غير مسلحة، لذلك تعرضوا بسهولة للقتل أو الأسر.

وبعد سيطرة القوات المغولية على روسيا، شيد باطو مدينة أكتوبا Aktouboa التي أطلق عليها إسم ساراي Sarai أي القلعة، وهي التي أصبحت عاصمة لمغول القبيلة الذهبية التي إمتدت ممتلكاتها من جبال الأورال بحر قزوين شرقاً حتى مصب نهر الدانوب على البحر الأسود غرباً. ومن الملاحظ هنا أن القبيلة الذهبية قد ضمت إليها عناصر أخرى غير مغولية مثل البجاكية والكومان وقبائل تركية أخرى، وبدأت تتعلم معنى الاستقرار وظلت دولة باطو وخلفائه من بعده تحكم هذه المناطق حوالي قرنين من الزمان. ولقد بدأ إستقلال القبيلة الذهبية في عام ١٢٦٠م أي في العام الذي وقعت فيه معركة عين جالوت وهو العام الذي توفى فيه الخان الأعظم مونكو. وسوف تمر القبيلة الذهبية بمرحلة من الانقسام الداخلي حتى وحدها مرة أخرى الخان أوزبك في عام ١٣١٢م، وهو الذي أعاد إليها هيبتها ومجدها مرة أخرى.

لقد كان الأمير جورج الثاني يتولى أمر قيادة قوات مدينة سوزذال ولكنه فشل في مقاومة القوات المغولية ولقى مصرعه في إحدى المعارك،

ثم تولى أحد أبنائه قيادة قوات الإمارة ولكنه فشل في مقاومة الغزو المغولي وهزم في معركة أوكا Oka، كما أن الأمير ياروسلاف Yaroslafe أخ الأمير جورج الثاني قد هزم في معركة ليبوتسك Lipotsk، وتوجه بعد ذلك إلى مدينة سوزدال. والحقيقة أن الأمير ياروسلاف (١٢٣٨ - ١٢٤٦م) قد وجد إمارة أخيه في حالة سيئة للغاية، فقد وجد جثث الموتى تملأ المدن والقرى، أما الأحياء فقد فروا إلى الغابات، كما كانت الحرائق التي أشعلتها الحروب قد أتت على الأخضر واليابس. وكان على ياروسلاف إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فبدأ في تجميع فلول قوات الإمارة لإعادة بناء القوات المسلحة.

وكان على ياروسلاف أيضاً إن أراد البقاء في إمارته أن يذهب إلى الأمير باطو في عاصمته سراي ليقدم له فروض الولاء والطاعة، وقد أستقبل ياروسلاف في العاصمة بكل ترحاب، وأنعم عليه باطو بلقب أمير الأمراء، وطلب منه التوجه إلى العاصمة قراقورم ليقدم فروض الولاء للخان الأعظم أوكيتاي، وقد ذهب ياروسلاف إلى قراقورم وقدم يمين الولاء والطاعة للخان الأعظم، وبرأ نفسه من الإتهامات التي وجهت إليه، ولكن ياروسلاف مات أثناء عودته إلى بلاده، وقد حمل رفاقه جسده إلى مدينة فلاديمير. وكان لياروسلاف ولدين هما أندرو الذي كان يحكم إمارة سوزدال (١٢٤٦ - ١٢٥٢) والكسندر الذي كان يحكم إمارة نوفجورد.

وكان الكسندر هذا قائداً شجاعاً وذكياً ولقب ببطل الشمال، لأنه نجح في شبابه في صد جميع محاولات الغزو الخارجي خاصة العناصر الفلندية، وكافة العناصر الاسكندنافية والقوات التي حركها البابا في شكل حرب صليبية لنشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل

روسيا. وقد أدرك الكسندر الذي عرف باسم الكسندر نيفسكي Nevski أن مقاومة القوات المغولية يعتبر ضرباً من الجنون وأن ذلك يعني خراب كل روسيا، وكان عليه أن يتصرف بكل حكمة لمواجهة الموقف. كما أدرك أيضاً أن القوات المغولية بوسعها أن تتقدم حتى إمارته نوفجورد وإلى أبعد منها إذا لزم الأمر.

وقد بدأ خضوع الكسندر إلي المغول عندما أرسل إليه الخان باطو رسالة يقول فيها، إن الله قد أخضع لي الكثير من الشعوب، وإن كنت تريد أن تحافظ على إمارتك فعليك الحضور إلينا لترى عظمة ومجد المغول. ولم يكن أمام الكسندر إلا تنفيذ أوامر باطو، فاتجه إلى العاصمة سراي ومعه أخوه أندرو، ومنها إلى العاصمة قراقورم في عام ١٢٥٧م ليقدما فروض الولاء والطاعة مثلما فعل ياروسلاف من قبل. وفي العاصمة المغولية أنعم الخان الأعظم كيوك على الكسندر بولاية نوفجورد بالإضافة إلى روسيا الجنوبية حتى مدينة كييف، وأنعم على أخيه أندرو بولاية فلاديمير.

وفي عام ١٢٦٠م تغيرت الأوضاع الداخلية لدولة المغول وأصبح بركه بن جوجي خان القبيلة الذهبية مستقلاً عن بقية الدولة المغولية في منغوليا وفي فارس وفي تركستان الشرقية. وكان على الخان بركه أن يعيد تنظيم دولته. ومن ضمن هذه التنظيمات إجراء إحصاء في ولاية نوفجورد يتم بموجبه تحديد قيمة الضرائب المطلوبة. وعند هذه المرحلة اعترض البعض ورأى الآخرون أنه يجب الخضوع للمغول ودفع الضرائب باعتبار العناصر المغولية دولة قوية. وكان بازيل بن الكسندر من المعترضين على دفع الضرائب، وبدأ التمرد داخل الولاية. ومن أحداثه إعادة السفراء المغول، ولم يكن أمام المغول سوى الاستعداد لمعركة عسكرية ضد الكسندر. وعند هذه المرحلة أحس الكسندر أو عليه أن يواجه التمرد أو المغول، فواجه التمرد وقبض على

ابنه بازيل وأعدمه وأعدم من ساندوه. ورغم هذا كله فقد كانت الثورة كامنة في شعب ولاية نوفجورد، فقد تجمع الأهالي في ميدان كنيسة سانت صوفيا وأعلنوا أنهم يفضلون الموت وهم أحرار عن الحياة وهم عبيد. وعند هذه المرحلة أعلن الكسندر أنه سوف يغادر المدينة ومعه قواته، ويتركها لمصيرها في مواجهة المغول. وبذلك تخلى شعب نوفجورد عن الثورة إلى حين.

بعد هذه الأحداث استطاع عمال المغول من جامعي الضرائب أن يدخلوا المدينة آمنين يعاونهم أنصار الكسندر في التنقل من منزل إلى آخر لحصر السكان وتدوين ذلك في سجلاتهم، وتكرر ذلك المنظر في المدن الأخرى التابعة لولاية نوفجورد، ورغم الهدوء الذي ساد المدن الروسية، إلا أنه كان هدوء نسبياً لم يلبث أن انفجر في الوقت المناسب.

ففي عام ١٢٦٢م ثار سكان مدن فلاديمير، وسوزدال وروستوف -Ros tofe، ضد جامعي الضرائب من المغول، وتمادت مدينة ياروسلاف Yarosalv وقامت بذبح أحد جامعي الضرائب من المغول، وكان راهباً مسيحياً اعتنق الإسلام. وبذلك حل عقاب المغول على المدينة، ولكن الكسندر أنقذ الموقف عندما خاطر بحياته وأسرع إلى مدينة سراي العاصمة المغولية محملاً بالهدايا، وقدم شديد إعتذاره إلى القيادة المغولية عن الحادث وفسر حدوثه إلى التعصب الديني، وليس إلى التمرد على السلطات المغولية. وقد استقبل بركه خان القبيلة الذهبية الأمير الكسندر وتقبل العذر الذي قدمه وأعفاه من دفع الغرامات المطلوبة، وبذلك نجح الكسندر في إنقاذ ولايته من انتقام المغول، واستعد للعودة إلى بلاده.

وأثناء وجود الكسندر في رحلة الوفاق هذه، هاجمت العناصر الشمالية أراضي الإمارة، فاتحدت قوات نوفجورد مع قوات سرزدال تحت قيادة ديمتري ابن الكسندر في صد القوات المغيرة، ومع عودة الكسندر إلى

عاصمته فلاديمير تدهورت صحته ومات في هذا الوقت العصيب الذي تتعرض فيه ولايته للسيطرة المغولية وأخطار العناصر الشمالية، فنعته الكنيسة وأنصاره ومحبيه واعتبر البعض أن الشمس التي كانت تضئ روسيا قد غربت.

والحقيقة أن الكسندر إستطاع بسياسته السليمة مع المغول أن يعيد الهدء إلى بلاده، وأن يمنع العناصر الشمالية من إجتياح أراضيه بقواته العسكرية، وبهذه السياسة المرنة نجح الكسندر في الحفاظ على مجد وهيبة ولاية نوفجورد في هذا الوقت العصيب الذي لم تتعرض له من قبل.

بعد أن سيطر المغول على روسيا لم يقوموا بأي تغيير في الأوضاع الداخلية للبلاد بصورة مباشرة، فلم يغيروا الدساتير أو القوانين أو الأعراف التي سادت المناطق الروسية، كما أنهم لم يغيروا حكام الولايات طالما قدموا للمغول فروض الولاء والطاعة. يضاف إلى ذلك أن أصحاب الأراضي ظلوا يمتلكونها لأن المغول كشعب بدوي فضلوا التمركز في السهول الشرقية والجنوبية الواسعة. ولعل ذلك يفسر لنا بقاء العناصر المغولية متماسكة لفترة طويلة قبل أن تذوب مع العناصر الروسية. أما عن العلاقة بين المنتصر وهم المغول والمغلوب وهم الروس فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أولاً : كان على الأمراء الروس الذهاب إلى العاصمة سراي لتقديم فروض الولاء والطاعة أو يتم استدعاء هؤلاء الأمراء لتلقي الأوامر، يضاف إلى ذلك أنه كان على الأمراء الروس الذهاب إلى الخان الأعظم في قراقورم إذا ما طلب منهم خان القبيلة الذهبية التي تحكم روسيا ذلك، وليس ذلك فحسب بل كان عليهم أن يقدموا الهدايا المناسبة متحملين مخاطر الطريق ذهاباً وإياباً، كما كان على هؤلاء الأمراء إتباع الطقوس التي يقوم بها

المغول مثل السجود أمام خيمة الخان قبل دخولها. وكان الأمير لا يتولى أمر إمارته إلا بعد صدور قرار من الخان بذلك.

ثانياً: كان على الروس تقديم ما يسمى بضريبة الرؤوس، وهي ضريبه يدفعها كل فرد، وكانت تمثل عبئاً على الفقراء والأغنياء أيضاً. وكانت الضريبة تسدد نقداً أو عيناً مثل الفراء، ومن يعجز عند سدادها ينضم إلى طائفة العبيد. وكان لتعسف جامعي هذه الضريبة دوراً هاماً في قيام العديد من الثورات مثلما حدث عام ١٢٦٢م كما أوضحنا وكما حدث عام ١٢٨٤م في مدينة كورسك Koursk وفي عام ١٣١٨ في مدينة كولومنا، عام ١٣٢٧ في مدينة نفر، وفي الحادثة الأخيرة ذبح الأهالي أحد جامعي الضرائب فتعرضوا للانتقام الشديد.

ثالثاً: وكان هناك أيضاً ضريبة تعرف باسم ضريبة الدم وهي الخدمة العسكرية مع القوات المغولية، وكان على الأمراء الروس تقديم جماعات من الجنود الأشداء وتكون مهمتهم السير أمام الجيش المغولي لتلقي الصدمة الأولى، ومن ذلك أنه في عام ١٢٧٦م قدم الأمراء الروس قوات كبيرة إلى خان القبيلة الذهبية منكوتميور (١٢٦٧ - ١٢٨٠م) لمحاربة شعوب القوقاز، وكان من عادة المغول تسليم هؤلاء الأمراء نصيبهم من الغنائم مثل ما حدث في مدينة ديدياكوف Dediakof.

رابعاً: كان الأمراء الروس مكلفين بالقبض على الثائرين والخارجين على القانون إلى السلطات المغولية، ومن ذلك ما حدث مع المغامر لاخاناس Lachanas، وهو راعي للخنازير قام بالثورة عند منطقة الدانوب.

خامساً: إتبع المغول سياسة فرق تسد. ومن ذلك أنه في عام ١٢٨١م تنازع أندرو بن السكندر مع أخيه ديمتري، وساند المغول أندرو وساعدوه على نهب مدينة فلاديمير، وسوزدال، وموسكو وغيرهما، ولم يفرق هذا

العمل بين المنازل أو الكنائس أو الأديرة. وفي عام ١٢٣٧م قام أمراء موسكو وسوزدال بحملة عسكرية ضد مدينة نفر بناء على تعليمات صادرة من خان القبيلة الذهبية. وعندما تصارع أولج مع سفياستوسلاف على حكم مدينة كورسك ساند الخان الأمير أولج ودفعه لقتل غريمه، ولعل هناك بعض الصواب من الوجهة السياسية لأن سيفاتوسلاف قد أثار غضب الخان بسبب تصرفاته غير الحكيمة.

سادساً : لم يكن من حق الأمراء الروس إعلان الحرب على بعضهم أو خارج روسيا إلا بعد موافقة الخان، ومن ذلك إن أمير نوفجورد حصل على موافقة الخان لإعلان الحرب على ريڤل Revel. وعندما اختلف بعض الأمراء في عام ١٣٠٣م، وصل مرسوم من الخان يطالبهم بوضع حد لخلافاتهم وأن يكتفي كل منهم بالأقطاعية المخصصة له.

سابعاً : عندما كان الأمراء الروس يستقبلون سفراء الخان كان عليهم السجود أمامهم، وأن يفرشوا لهم السجاجيد الفاخرة، وأن يقدموا لهم الكؤوس المملوءة بقطع الذهب، وعليهم الاستماع بكل اهتمام إلى أوامر الخان وتنفيذها بكل دقة.

ثامناً : لقد قدر المغول الروس خاصة الشجعان منهم، ولذلك نرى قيام مصاهرات بين المغول والأمراء الروس، ومن ذلك ما حدث عام ١٢٧٢م عندما تزوج الأمير الروسي جليب Glebe أمير بيلوزرسك Bielozersk من إحدى الأميرات المغوليات، وعندما تزوج فيودور Feodor أمير ريازان من عائلة القائد المغولي نوجاي، وقد خصص للأمير فيودور قصراً في مدينة سراي. كما تزوج في عام ١٣١٨م كبير الأمراء جورج من أخت خان القبيلة الذهبية أوزبك ١٣١٢ - ١٣٤١م، وكان عليها أن تعتنق المسيحية وأصبح أسمها أجات Agathe، ولعل ذلك يوضح لنا موقف المغول من الديانات الأخرى.

وتفاوتت درجة التأثير والتأثر بين المغول والروس، فواقع الحال أنه مع نهاية القرن الرابع عشر لم يعد المغول هم الرعاه الأشداء، فقد تأثر المغول بسكان المدن الأكثر تحضراً منهم، ولذلك شيد المغول بعض المدن مثل العاصمة سراي، وقازان، واسترخان. ومع إقامة هذه المدن عرف المغول حياة الدعة والرفاهية، وأقاموا الحفلات للشعراء الذين كانوا يمدحونهم ويفاخرون بفروسيتهم وشهامتهم. ولم يكن الدين حائلاً في وجه المغول فقد تعاملوا مع جميع الأديان بسماحة متوازنة.

وقد اختلف المؤرخون حول درجة تأثير المغول على الروس، فيرى البعض أن الروس اكتسبوا بعض العادات من المغول ظل أثرها حتى أيامنا هذه. بينما يرى أخرون أن الروس تأثروا بعناصر البجناكية أكثر من تأثرهم بالعناصر المغولية. وفي إتجاه آخر يرى البعض أن المغول الروس كانوا قوة عسكرية واحدة إختلفت عن التي كانت سائدة في غرب أوربا. وقد أصبح هذا النظام نموذجاً حتى عدة قرون. كما يلاحظ أن الزي العسكري للأمراء الروس في القرن الخامس عشر كان يتمثل في المعطف الطويل والقلنسوات العالية، مع وضع السيوف أو الخناجر في أحزمتهم.

ويرى بعض المؤرخين أن بعض العادات التي يعتقد أنها من أثر الحكم المغولي لروسيا ربما تكون من أصل سلافي أو بيزنطي، ويتجلى ذلك في النزعة الاستبدادية التي ترجع إلى النمو الطبيعي للأفكار الاستبدادية القادمة من الامبراطورية البيزنطية، فقد كان الامبراطور البيزنطي هو النموذج للحكم المطلق.

وقد إستخدم الروس عقوبة الموت أو التعذيب الجسدي، ويرى البعض إن ذلك يرجع إلى التأثر بالقوانين البيزنطية التي تسللت تدريجياً إلى

روسيا، ومن هذه القوانين الإعدام وبتر أحد أعضاء الجسم والجلد والحرق. أما عادة السجود أمام الحاكم فهي عادات شرقية ترجع إلى أصول بيزنطية.

وإذا كان الروس قد ظلوا لفترة طويلة بالملابس الطويلة والطرز الشرقية فعلينا أن نتذكر أن الفرنسيين والايطاليين ظلوا حتى القرن الخامس عشر يرتدون الأزياء نفسها، ولكن التغيير الذي حدث في أوربا لم يحدث في روسيا وظلت على حالها بسبب عزلتها عن أوربا.

وعن إمتزاج الدماء المغولية بالدماء الروسية فيرى البعض أنه كان ضعيفاً، وأن التقارب لم يحدث إلا بين الطبقة الارستقراطية في كلا الجانبين، وإن كلا الشعبين قد ظل غريباً عن الآخر. ولعل هذا الرأي يكون مقبولاً في أوائل الحكم المغولي لروسيا، أما مع مرور الزمن فقد إنصهر الجميع في بوتقة واحدة وضمت الأمة الروسية جميع العناصر التي عاشت على أرضها بغض النظر عن الأديان التي اعتنقتها تلك العناصر، فقد نما الإسلام خاصة في المناطق الجنوبية كما نمت المسيحية على المذهب الارثوذكسي في الشمال وهو مذهب الامبراطورية البيزنطية، ومنح الخانات الامتيازات العديدة للكنائس والأديرة والمساجد على السواء.

إيفان الأول وخلفاؤه :

إن الأمير ايفان الأول Ivan 1 (المعروف بكاليتا أو صندوق الأموال (Money page) الذى حكم موسكو (١٣٢٥ الى ١٣٤١م) زاد من نفوذه بإتخاذ خطوتين هامتين : الأولى أنه أغرى المطران بنقل مقر الكنيسة إلى موسكو ، وبذلك كسب لمدينته هيبه ونفوذاً باعتبارها المركز الروحى لروسيا ، والثانية انه برشوة زعماء المغول ، وإستخدام القوة ضد جيرانه حصل

على تأييد بمنحه لقب الأمير الكبير لإمارة فلاديمير وكل الروسيا ، وإحتفظ الأميران اللذان خلفاه وهما سيمون Simeon وإيفان الثانى (الأحمر) بمكاسبة .وجاء الأمير الأعظم ديمترى Dmitri بعدهم وعزز مركز موسكو أكثر عندما هزم المغول فى منطقة نهر الدون الأعلى عام ١٣٨٠ م ، ومع ان المغول فاقوا من الهزيمة ، فإن جهده ونجاحه الأول كانا سبباً فى إيقاظ المشاعر القومية للروس حول حكام موسكو كرموز لتحدى المعتدين الأجانب . وانهمك خلفاؤه باسيل الأول وباسيل الثانى فى المحافظة على ممتلكاتهما ضد تدخل الليتوانيين والمغول ومحاولات المتنافسين على العرش ، ومع ذلك استطاع باسيل الأول أن يضم أراضى قليله إلى إمارة موسكو ، كما عزز باسيل الثانى إستقلال مطرانية موسكو بمعارضة الترتيبات التى إتخذت بمجلس فلورنسا عام ١٤٣٨ م لتوحيد الكنيسة الشرقية والغربية . وفى منتصف القرن الرابع عشر قطع أمراء موسكو شوطاً بعيداً فى إرساء زعامتهم بين الروس وأخذت قوتهم تكتسب مزيداً من الاحترام والتقدير .

تطور الامبراطورية الروسية (١٤٦٢ - ١٦٨٢)

خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بلغت إمارة موسكوفى القوية مرتبه الامبراطورية عن طريق التقدم المتسم بالتوسع الجغرافى السريع ، وإقامة حكومة أوتوقراطية الشكل واستعباد السكان الزراعيين . تلك التطورات المرتبطه ببعضها يمكن أن يرجع الفضل فيها الى ثلاثة حكام أقوياء من أسرة روريك Rurik ، هم إيفان الثالث (العظيم) وباسيل الثالث وإيفان الرابع (إيفان الرهيب) .

فى بداية حكم ايفان الثالث(١٤٦٢ - ١٥٠٥ م) ، كانت البلاد الروسية مقسمة الى اجزاء عديدة ، بعضها تحت الحكم الوطنى والبعض الآخر تحت الحكم الأجنبى . وكانت موسكو تسيطر على الجزء الذى أصبح فيما بعد قلب روسيا الكبرى .وحولها كانت تقع الامارات الأخرى تحت

حكم أمراء يتمتعون بالاستقلال على نحو ما . أما المناطق الأخرى التى كان يسكنها الروس - روسيا الغربية وروسيا الصغرى - فقد كانت خاضعة للبولنديين والليتوانيين . ولكن إيفان الثالث كان ينظر الى نفسه ليس كأمير لموسكو وإنما كوريث لروسيا ، لأن إمارته أصبحت تملك فى ذلك الوقت الرموز القومية لروسيا . وفى عام ١٤٨٠ رفض الحكم المغولى وامتنع عن دفع الجزية، وأطلق على نفسه لقب ملك كل الروسيا ، وأكد طموحه بتوحيد كل الأراضى التى كانت تخضع لروسيا الكييفية فى ذروة قوتها ، وذلك بوضعها تحت السيطرة الموسكوفية. وقد عرف هذا المشروع باسم « تجميع الاراضى الروسية معاً » ولتحقيق ذلك الطموح إشترك هو وحلفاؤه من الأمراء الروس فى حروب طويلة مع بولندا التى كانت تضم ليتوانيا وتخضعان لحاكم واحد فى معظم الوقت منذ عام ١٣٨٦ م ، وقد أعلن إيفان الثالث أنه لن تكون هناك بين إمارته وبولندا أى سلام طالما ظلت أجزاء من ممتلكاته تحت سيطرة البولنديين ، وقد حافظ خلفاؤه على هذا المبدأ واتخذوا نفس السياسة المتشددة إزاء ليتوانيا ، وكان نتيجة ذلك أن ظلت موسكو فى حرب مع ذلك القطر طوال أربعين عام متقطعة فى الفترة الواقعة مابين ١٤٩٢ - ١٥٨٢م . والقول بأن تلك الجهود لتجميع الاراضى الروسية كانت إنعكاساً لروح قومية بالمعنى المفهومم فى وقتنا الحالى ينطوى على أخطاء ، فقد كانت إنعكاساً للطموحات الشخصية لإيفان الثالث وخلفائه الذين كانوا ينظرون الى الدولة الروسية كضيعة خاصة بهم ، واعتقدوا أن لهم الحق فى محاولة إخضاعها لإرادتهم وتوجهاتهم ، ولم يتم إنجاز التجميع بالفعل إلا عام ١٦٤٧ م ، ولكن إيفان والحاكمين اللذين أعقباه وهما باسيل الثالث (١٥٠٥ - ١٥٣٣) وايفان الرابع (١٥٣٣ - ١٥٨٤) استطاعا أن يستعيدا الكثير لتوسيع إمارتهم وجعلها امبراطورية .

وكان أحد أهداف الحملة العسكرية لإيفان الثالث إمتلاك مدينة

نوفجورود التى كانت تعتبر حين ذاك أقوى مركز تجارى فى الأراضى الروسية ، إذا كانت تسيطر على المناطق التى تحيط بها مباشرة فى نصف قطر يبلغ مائة وخمسين ميلاً من المراكز ، وكذلك على طرق واسعة فى شمال روسيا تمتد شرقاً فى جبال الأورال - ومع أن نوفجورود كانت تفوق موسكو إقتصادياً إلا أنها كانت دون موسكو من حيث القوة العسكرية ، وبذلك وجد إيفان الثالث مبرراً للهجوم على نوفجورد ، واستطاع أن يحولها عام ١٤٧١ م إلى إمارة تدفع له الجزية . وبعد سبع سنوات جعلها تستسلم ،وضم أراضيها اليه ورحل المشتبه فيهم من الطبقات العليا إلى داخل مملكته . وكان هذا كسباً كبيراً للإمارة . ورغم هذا لم يكن ايفان فى مرحلة تطمئنه على مستقبله السياسى لوجود نفوذ أجنبى على ممتلكاته الجديدة ، وفى حماسة قام بطرد معظم التجار الأجانب من نوفجورد ، مما عطل وأعاق التجارة الاجنبية عن المدينة فإحتكرت موسكو تجارتها .كما تغلب إيفان على الأمير ميخائيل أمير نفر ، وضم إمارته فى عام ١٤٨٥ م ، وبعد أن ضم نوفجورد ونفر الى مملكته بالاضافة الى إمارات أخرى أقل أهمية إستطاع ضمها بدون جهد يذكر ، بدأ حرباً من أجل استعادة الأراضى الروسية التى كانت تخضع لدولة بولندا- ليتوانيا . لقد استمر فى هذه الحرب بصفه متقطعة منذ عام ١٤٩٢وحتى عام١٥٠٣ ، حين أصبح يسيطر على بعض الأراضى الحدودية فى غرب روسيا وفى روسيا الصغرى . وقد واصل باسيل الثالث إبن إيفان عمل أبيه ولكن فى نطاق أضيق . وكانت المكاسب الرئسية لإمارة موسكوفى فى النصف الأول من حكمه عندما أنهى استقلال مدينة بسكوف Bskov، وضم أرضها فى عام ١٥١٠م. وفى عام ١٥١٤ م على أثر حرب إستمرت عامين ضد بولندا استولى على مدينة سمولنسك التى كانت تسيطر على المداخل الغربية لموسكو ، وفى عام ١٥١٧ ضم مدينة وإقليم ريازان .

والحاكم الثالث فى الأسرة وهو إيفان الرابع الذى نجح فى بسط سيطرة حكومة موسكو الى ماوراء الحدود الروسية.، وكان أول من حقق مكاسب أرضية ضد المغول . فلقد إنهارت امبراطورية القبيلة الذهبية فى النصف الأول من القرن السادس عشر وقسمت الى خانيات Khanates وهى وحدات سياسية صغيرة ، وصارت بعضها ، وهى خانيات إسطراخان ، وقازان ، والقرم ، وغرب سيبيريا ، تشكل تهديداً مباشراً لموسكو .

ولقد إستمرت هذه الخانيات فى حروب حدودية وأخذت تشن الغارات وتقوم بعمليات النهب والخطف ، وعلى سبيل المثال كانت خانية قازان تحتفظ بما يزيد عن ستين ألف أسير روسى فى عام ١٥٥١م . وعجزت الدبلوماسة الروسية أو القوة العسكرية لروسيا عن كبح جماح هذه الإمارات المغولية - ولكن إيفان الرابع أخذ يحاربهم حتى إستطاع أن يستولى على قازان ١٥٥٢م ، وأسطرخان عام ١٥٥٦م وبذلك أخضع حوض نهر الفولجا كله لسيطرة موسكو وفتح باب السيطرة الروسية لهذه المنطقة . كما أن سقوط قازان فتح الطريق أمام التوسع الروسى فى سيبريا . وفى سنة ١٥٥٥م إضطر خانها الى قبول سيادة موسكو حفاظاً على سلطته وثروته . وكان إخضاع اسطرخان فى العام التالى سبباً فى مد السلطة الروسية الى بحر الخزر وفتح الطريق لإقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مع فارس ودول وسط آسيا .

إن ضم موسكو لمنطقة الفولجا السفلى أدى إلى مشاكل حدودية جديدة ، فقد كان يقع على شرقها إحدى بقايا القبيله الذهبية ، وهى دولة نوجاى Nogay والتى كان مقاتلوها المشاغبون يشكلون تهديداً مستمراً لموسكو ، وفى غربها كان قوزاق الدونDon Cossucks والذين إستمدوا إسمهم من إسم نهر الدون الذى كان يجرى فى بلادهم . وهؤلاء الآخيرون كانوا يشكلون تنظيماً ديمقراطياً مستقلاً عن أهالى الحدود الروس ، ولهم قوه

مقاتله تضم عشرة آلاف مقاتل ، سرعان ماوافقوا على إنهاء المقاومة وأن يصبحوا خلفاء لموسكو ضد مغول القرم لقاء مساعدات من السلاح والدقيق . وكانت مساعدتهم مطلوبة في ذلك المكان لأن خان مغول القرم ، والذى كان يعد منذ عام ١٤٧٥ من ولاة الامبراطورية العثمانية كان لايهيمن على شعب جزيرة القرم فقط وإنما على كل ساحل بحرآزوف Azov ، وكان يعتدى باستمرار على الأراضى المجاورة . ولكن إيفان الرابع تحول عن هجومه المخطط ضد مغول القرم الى ما إعتبره أكبر وأهم ، وهو التقدم إلى البلطيق. لقد كان الحصول على موطأ قدم على بحر البلطيق كفيل بإتخاذ منفذ إلى سوق أوربا الغربية ، حيث تستطيع موسكو أن تشترى ماتحتاج اليه من أسلحة ومستلزمات . وفى ذلك الوقت كانت الطرق على البلطيق مسدودة بقوى معادية - بولندا وليتوانيا وليفونيا Livo-nia ، ولم يستطيع الروس أن يصلوا الى أسواقهم السابقة فى أوربا الا بالطريق البحرى الدائرى من أرشانجل Arshangel . ذلك الطريق الذى رسمه الإنجليز عام ١٥٥٣ م ، كان بالغ الطول ولم يكن صالحاً للملاحة سوى فى آشهر الصيف ، ومع ذلك كانت هناك موانى على ساحل البلطيق وخليج فنلندا ، ومن أهمها ميناء ريجا Rigaعند مصب نهر دفينا Dvi-naالغربى ، والذى قال إيفان الرابع عن ضفافه أنها تستحق وزنها فضه وأن مياهه تستحق وزنها ذهباً .ولم يكن ميناء ريجا يبعد سوى مائة وخمسة وعشرين ميلا من حدود أراضى موسكو . ولكن كانت تقع بينهما الطائفة الليفونية للفرسان الجرمان وهى منظمة رهبانية عسكرية تسيطر على كورلاند Courland ولينونيا واستونيا Estonia .

وفى عام ١٥٥٨ م بدأ ايفان الرابع هجومه على تلك الطائفة الليفونية

بادئا بذلك صراعاً إستمر متقطعاً لمدة أربعة وعشرين عاماً وسجل فى التاريخ باسم الحرب الليفونية - وقد قامت الطائفة بحل نفسها وأصبح رئيسها والياً لبولندا بإسم دوق كورلاند ، وأصبح تابعاً لبولندا ، واتحدت لينونيا مع بولندا وليتوانيا وإستونيا ووضعت نفسها تحت حماية السويد وتولت بولندا وليتوانيا الدفاع ضد إيفان وإنضمت اليها فيما بعد السويد واستمرت الحرب بنجاح متباين عام ١٥٧١ ، قد إنتهز مغول القرم فرصة انشغال ايفان وأغاروا على موسكو ، فإستدار إيفان للدفاع عن المدينة وطرد المغول إلى مسافة إعتبرها مأمونه مؤقتاً ، ثم عاد وركز إهتمامه على الحرب الليفونية والتى استمرت عشرة سنوات أخرى . وأخيراً إتفقا الطرفان اللذان أرهقهما الحرب دون تحقيق إنتصاراً حاسم - إتفقا فى عام ١٥٨٢ م على وقف الأعمال العدائية بشروط كفلت إبقاء ساحل البلطيق فى ايدى ليتوانيا وبولندا والسويد . ومع أن قوة موسكو قد أثبتت قصوراً فى تحقيق كل أحلام إيفان فى توسيع حدوده ،إلا أن مكاسبه كانت كفيله بتكوين إمبراطورية .

١ - إقامة الحكومة الملكية المستبدة

وبإتحاد روسيا وتوسعها ، أخذت مكانة حكامها تتحول الى مكانه ملك أوتوقراطى شأن كل حكام الاقطار الاوربية الآخرى التى خضعت لعملية التوحيد فى ذلك العصر ، وبدأ التحول فى نفس الوقت التى اتسعت فيه سيطرة موسكو على الإمارات المجاورة ، وقد سمح للأمراء والنبلاء (الذين عرفوا باسم البويارات Boyars) الذين كانوا يحكمون الإمارات التى ضمت اليهم بالاحتفاظ بضياعهم على شرط أن يقوموا بالخدمة العسكرية والادارية ، ويزودوا موسكو بالجند ، ولكن هذا النظام ثبت أنه غير فعال ، لأن معظم الأمراء الذين تم إخضاعهم لم تطاوعهم

أنفسهم على الاعتراف بسيادة أمراء موسكو عليهم . كما أن معظم البويارات ماكانوا ليتخلوا طواعية عن الحق السياسى الذى إكتسبوه فى السنوات السابقة ، أى الحق فى إسداء المشورة لإمرائهم . وفى كثير من الإمارات كان البويارات متمثلين فى تنظيم المجلس الخاص (دوما النبلاء Boyars Duma) الذى كان يقدم المشورة للأمراء ، وفى بعض الأحيان يصدر الأوامر لهؤلاء الأمراء ، وعندما خضع أمراء ونبلاء الأمارات الخارجية لسيطرة موسكو ، أدمجوا في المجلس الخاص لموسكو ، وكانو يأملون أن يستطيعوا بذلك أن يتمكنوا من المشاركة فى سلطة موسكو ، ولكنهم سرعان ماتبينوا أن فرص تحقيق أملهم أصبحت ضعيفة ، ومن ثم لجأوا الى المكائد والتآمر حيث أخذوا يتآمرون فيما بينهم أو مع أعداء موسكو لإضعاف سلطة الأمير الحاكم أو التخلص منها . ولكن الأمراء الذين حكموا موسكو لم يستهينوا بتلك الأعمال الهدامة ، ففى أثناء حكم إيفان الثالث وباسيل الثالث وايفان الرابع ضعفت سلطة النبلاء والأمراء بدرجة ملموسة ، عن طريق مباشر بتقليص حقوقهم ومصادرة ممتلكاتهم فى بعض الاحيان ، وبطريق غير مباشر بخلق طبقة إدارية عسكرية جديدة تعرف باسم نبلاء الخدمة . وقد بدأ هذه الأجراءات إيفان الثالث وطورها باسيل الثالث الذى قام بابعاد عدد كبير من البويارات والامراء الذين أدينوا بالتآمر ، ولكن ايفان الرابع هو الذى حقق مكاسب حاسمة على حساب النبلاء القدامى .

لقد كان ايفان الرابع يخاف ويرتاب فى الأسر الأرستقراطية نتيجة مالمسه فى طفولته من مؤمرات البويارات ، وكانت الطريقة التى إتبعها معهم تتسم بالوحشية مما جعله أهلاً للقّب الذى عرف به وهو " ايفان الرهيب » . ولم يهدأ ولم يسترح حتى تخلص من التهديد الذى تشكله

قوتهم ، فقد كون طبقة جديدة من النبلاء من الموظفين ، وهذه الطبقة كانت تختلف عن القديمة من حيث الأصل والمكانه والحقوق . وبينما كانت البويارات والأمراء يتمتعون بحق وراثى فى أراضيهم ومكانة متميزة وإمتيازاتهم ، فإن النبلاء الجدد كانو يستمدون مكانتهم وإمتيازاتهم وإستخدام الأرض كشرط للخدمة ، وكانوا يحتفظون بها بشرط القيام بواجباتهم على خير وجه ، وكان عدد قليل من هؤلاء الجدد مختارين من زمرة قدامى النبلاء ، ولكن معظمهم كانوا يرقون من المراتب الصغرى أو يختارون من العسكريين الأجانب ، وقد قام إيفان بإضعاف النفوذ السياسى لباقى الأمراء والبوريارات الى حد كبير بإنشاء جهاز إستشارى ثان وهو جميعة الأرض (Zemsky suber) لموازنة تأثير المجلس الخاص . وقد دعا الى الجمعية الجديدة ممثلى الأمراء والبويارات وكبار موظفى الحكومة ورجال الدين والتجار ، ولكنه لم يعط لهؤلاء آيه سلطة جماعية . وكانت جمعية الأرض تجمع مرة واحدة وقتما يريد هو ولمناقشة ماكان يريدهو أن يناقش . وكان من اختصاصها إن تسدى المشورة والنصيحة ، إذا كانت فى عبارات مهذبة ولاتتسم بالهجوم ، ولكنها ماكانت تستطيع ان تقرر شيئاً . وقد أدى هذا الى تقليل أهمية المجلس الخاص وتزويد الحاكم بمسانده شعبية وهمية لحكمه ، ونتيجة لأعماله المباشرة ومناوراته المحسوبة إستطاع إيفان الرابع إن يورث خلفائه عرشاً قوياً مدعوماً بطبقة من النبلاء ضعيفة سياسياً ، وليس عرشاً ضعيفاً كعرش بولندا يعتمد على أرستقراطية قوية من نبلاء الأرض .

وبينما كان أمراء موسكو الطموحين يوسعون سلطانهم إلا أنهم فى ذات الوقت يضيقون على أنفسهم خصائص إمبراطورية معينة ، كانت فى ذلك الوقت من السمات الخاصة لأباطرة بيزنطة. ولقد سهل من ذلك الأحداث الدينية والسياسية التى وقعت فى الإمبراطورية البيزنطية،

عندما لجأت الامبراطورية تحت وطأة هجمات الاتراك الى أوربا الغربية تطلب العون ، ولتقوية طلبها وافقت فى عام ١٤٣٩ م على توحيد الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية الكاثوليكية ، ومن هذا الضعف والوهن إستفاد الحكام الروس . ومع أن فكرة التوحيد بين الكنيستين لم يترتب عليها تلقى أى مساعدة هامة بالنسبة للقسطنطينية أو وحدة الكنيسة ، الا أنه أقنع رئاسة الكنيسة الارثوذكية فى الروسيا أن القسطنطينية قد سقطت أدبياً . ولم يتطلب جهداً يذكر إثبات أن الروسيا كانت القلعة الوحيدة الصامدة للأرثوذكسية وأن حكام روسيا يجب أن يرثوا أباطرة القسطنطينية حماة العقيدة الأرثوذكسية . وعلى حد يعتبر أحد رجال الدين فى أول القرن السادس عشر ، إن موسكو هى وريثة أعظم عواصم العالم . روما القديمة وروما الثانية والقسطنطينية . أن موسكو هى روما الثالثة ولن توجد روما رابعة . كان سقوط القسطنطينية فى ايدى الاتراك عام ١٤٥٣ م علامة على نهاية الامبراطورية البيزنطية ، وأعطى فرصة جديدة لأيفان الثالث بادر بإنتهازها ، فعندما تزوج ابنه شقيق آخر أباطرة بيزنطة عام ١٤٧٢ م ، أعلن حقه فى كثير من صفات ورموز الامبراطورية . وفى الحال أطلق على نفسة لقب Tsar - Autocrat أى القيصر السيد المختار من الرب « وملك كل الروسيا » كما اتخذ لنفسة شعار الصقر ذى الرأسين الذى كان يستخدم فى اختام بيزنطة ، وبعد هذا أصبح امراء موسكو الكبار يعترف بهم قياصرة ، ولو أن إيفان الرابع أول من توج رسمياً بهذا اللقب عام ١٥٤٧ م .

وكإضافة نهائية لأسس النظرية القيصرية حاول إيفان الرابع جعل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تقوم كبطريكية مستقلة مقرها موسكو ، ولم يتم هذا أثناء حكمه ،وإنما فى عام ١٥٥٩ وذلك بناء على قرار من بطريك القسطنطينية - وافق عليه فيما بعد كل البطاركة .

عندما إكتملت الصورة الروسية للبابوية القيصرية ، لقى القياصرة بعد ذلك مساندة رسمية للإفتراضات التي كانو يتصرفون على أساسها لسنوات طويلة ، وانهم سياسياً ظل الله في أرضه فيتولون السلطة بمشيئة الرب ويعملون حراساً للعقيدة الحقة .

٢ - نشأة رقيق الأرض

إن قيام حكم استبدادى فى روسيا لم يؤثر فقط على الطبقات العليا وإنما أيضاً على الطبقات الدنيا ، وهم الفلاحون ، وكان هؤلاء يمثلون الطبقة الغالبة ، وكان عملهم ركيزة إقتصاد البلاد ، وكان يقوم فى ذلك الحين على صورة بسيطة من الزراعة . وفى بداية القرن الخامس عشر ، كان معظمهم أحراراً يفلحون قطعاً من الأرض يخصصها لهم الملاك ، سواء الكنيسة أو الأمراء أو البويارات لفترات محددة تبلغ حوالى ثلاث الى خمس سنوات ، وأحياناً كان الملاك يقبلون العمل مقابل إستخدام الأرض أو البذور أو الأدوات التى تعار للفلاحين ، ولكن المقابل بصفة عامة كان فى صورة مقابل عينى يصل الى خمس المحصولات . وحتى منتصف القرن السادس عشر كان الفلاحون أحراراً فى الانتقال من ضيعة إلى اخرى بعد موسم المحصول مالم يكونوا مدينين . وبعد هذا أخذت إلتزاماتهم المتعاقبة المحدودة تتحول بالتدريج الى التزامات لايمكن الفكاك منها تربطهم وتربط إطفالهم بالأرض كرقيق للأرض Sefdom .
وكانت أسباب التغيير متعددة ، ومعظمها ترتبط بحقيقه أن طبقة ملاك الأراضى تغيرت وأن معظم الأمراء والبويارات قد حل محلهم طبقة نبلاء الخدمة والموظفين .

وفى معظم الأحوال كانت الضياع التى يخصصها القياصرة لنبلاء الخدمة بالوظيفة شاسعة جداً فى زراعة مكثفة وكافية لتلبية حاجاتهم. ولما كان هناك نقص فى الأيدى العاملة المحلية لهجرة الفلاحين وإستقرارهم فى أراضى جديدة ، بدأ الملاك فى التنافس المحموم على العمال وغالباً ماكانوا يغرونهم بترك الأراضى التى يعملون فيها بصرف النظر عن التزاماتهم للغير واعتماداً على الخدمات العسكرية والادارية للنبلاء . ورغبة فى أن يصبحوا مكتفين ذاتياً على الأراضى التى منحت لهم ، بدأ ايفان الرابع فى اتخاذ اجراءات تصحيح الموقف ،لذلك فرض حظراً قانونياً على حركة الفلاحين أثناء بعض السنوات الحرجه من الموجهة الاقتصادية ، وأعطى أصحاب وملاك الأراضى الحق فى البحث عن الفلاحين الذين يغادرون الأرض دون الوفاء بالتزاماتهم واعادتهم مرة أخرى .

وبخلاف مساعدة النبلاء كان لدية سببا آخر لإتخاذ تلك الإجراءات، لقد كان يفرض الضرائب على الفلاحين لمواجهة الإحتياجات المالية للدولة ، ووضع الفلاحين فى أماكن محددة لا يبرحونها حتى يضمن الحصول على الضرائب . وقد أضاف خلفاء إيفان قيوداً أخرى ، وفى النهاية حددوا أماكن معظم الفلاحين بصفة دائمة فى مناطق محددة ، والقليلون منهم ظلوا أحراراً ومعهم الذين اختاروا ان يعيشوا فى المناطق الفقيرة والقليلة السكان من الإمبراطورية . وهكذا ،فى الوقت الذى كان نظام رقيق الأرض يتراجع فى غرب أوربا ، كان هذا النظام يتوطد ويرسخ فى الروسيا ، وأصبح جزء من التقدم الكاسح للحكم الأتوقراطى . وفى الوقت نفسه كانت الطبقات العليا المستقلة نسبياً ، قد أخذت تضعف وأخذت طبقة جديدة خادمة للدولة فى الظهور . وأخيراً إرتبطت الطبقة الدنيا بالأرض ، التى أصبحت الدولة تمتلك معظمها .

٣ - أزمة القيصرية

كان الحكام الذين جاءوا مباشرة بعد إيفان الرابع عاجزين عن أن يحتفظوا بإرثهم سليماً لأنهم لم يكونوا على درجة كافية من القوة لتوطيد الأمن فى امبراطورية مترابطة بفعل القوة . فبعد وفاة إيفان انتقل التاج الى ابنه فيودور الأول Feodor I (١٥٨٤ - ١٥٩٨) وهو رجل ضعيف سمح عن طواعية لصهرة وشقيق زوجته بوريس جودونوف Boris godunov بأن يصرف شئون الدولة بدلاً منه ، وكان جودونوف رجلاً قديراً ولكنه عجز عن تهدئة القلق الذى كان يزداد داخل البلاد نتيجة لإقامة الحكم القيصرى وإرهاب البويارات ، وإستعباد واسترقاق الفلاحين ، وفرض أعباء اقتصادية للانفاق على الحروب التى تدخلها الامبراطورية المتوسعة . ولم يمضى وقت طويل حتى أصبح هو نفسه موضع المؤامرات والمكايد التى قادها البويارات المتضررون .وعندما توفى ديمترى الشقيق الوحيد الباقى لفيودور عام ١٥٩١ م انتشرت شائعة رددها البعض وصدقها الكثيرون بأن جودونوف قد أمر بقتله حتى لايخلفة فيودور على العرش ، وسارت المملكة دون أيه متاعب خطيرة حتى وفاة فيودور فى يناير عام ١٥٩٨م ، فتطورت الأمور بعد ذلك الى أزمة . خاصة أن فيودور لم يعقب أى ذكر فانتهت أسرة بوريك، وثارت مسألة الخلافة على العرش. وكان بوريس جودونوف لايزال الحاكم الفعلى والواقعى ولكنه لم يبادر بتتويج نفسه، وبدلاً من ذلك أعادجمعية الأرض (التى أهملت منذ أيام إيفان الرابع) و حرص على اختيار أعضائها من انصاره، وأعلن إنه سيقبل التاج فقط إذا قدم اليه من تلك الجمعية . وفى فبراير طلبت منه الجمعية أن يصبح قيصراً لروسيا ، وعلى الرغم من إختياره وأن البويارات كانوا لايزالون يتآمرون ضده علانية ، فقد بدأ القيصر بوريس حكمه بسنوات ثلاثة خالية نسبيا من أيه متاعب ، ولكن فى سنه ١٦٠١م مع بدء ثلاث سنوات من المجاعة ، بدأت القلاقل العامة تظهر من جديد .

٤ - زمن القلاقل

وفى عـام ١٦٠٤ بعـد ثلاث سنوات من المجـاعـة والكوارث المتـزايدة أصبح البويارات المتضررون ،والفلاحون اليائسون فى حالة نفسية خطيرة ، وبدأ بويارات موسكو العمل ضد القيصر بوريس بمناصرة مطالب بالعرش هو أحد البويارات المغمورين الذى إدعى بأن ديمترى ابن إيفان لم يمت فى عـام ١٥٩١ م ، وأنه هو نفسه ديمترى الوريث الشـرعى للعـرش ، ويادر ملك بولندا الذى تاقت نفسـه الى الصـيد فى ميـاه روسـيـا العكرة بالاعتراف بديمترى الزائف . وساعد فى إعداد جيش من البولنديين والروس الساخطين لمساعدة المدعى للحصول على العرش . وعندما سار هذا الجيش الى الروسيـا دخل فى سلسلة من الحـروب الأهليـة إستـمرت زهاء تسع سنوات ، وهذه الفترة تسمى بحق فترة القلاقل .

وكـانت قـوات القـيـصـر أقـوى بكثـيـر من ذلك المدعى وقـضت على الهـجمات الأولى . ولكن موت بوريس سنة ١٦٠٥ م قلب الاوضاع داخل روسيا ،فقد أعلن ابنه فيردور المعروف بالثانى قيصراً على روسيا ولكنه لم يحصل على تأييد كل الجماعات الساخطة . فقام بالتآمر ضده مجموعة من البـويارات الذين لم يعـجبـهم إنحيـازه للبـولنديين ، وفى عـام ١٦٠٦ قـتلوه وولوا مكانـه أحدهم وهو باسيل شويسكى Basil Shuisry(١٦٠٧ -١٦١٠م) وخلال حكمه الذى إستمر أربع سنوات بذل البويارات جهداً بائساً لإسترداد الوضع الاقـتصـادى والسيـاسى الذى فـقـدوه فى القـرن والنصف المنصرم ، ولكنهم سرعان ماوجدوا أنفسـهم أمام حقـيـقـة أن الجماعات الأخرى تريد تعديلات أيضاً . ففى جنوب روسيا هب الفلاحون القوزاق وبعض ملاك الأراضى الأفقر ضد الطبقة الحاكمة مطالبين بتحسين أحوالهم ، ومع أن الثورة إنتشرت بسرعـة إلا انه لم يكن لهـا أى برنامج

منسق أو أى زعماء كبار ، وما إن حلت نهاية عام ١٦٠٧ م حتى كانت المراكز الرئيسية للتمرد قد هدأت .

واجه القيصر باسيل المتاعب من اتجاه أخر فقد ظهر ديمترى أخر زائف ينتمى هذه المرة الى الطبقات الدنيا مطالباً بالعرش ، وتقدم ديمترى الثانى، كما أصبح يطلق على نفسه داخل الروسيا على رأس قوة جهزتها بولندا وتساندها قوات من القوزاق . ولمواجهة هذا المدعى إستدار القيصر إلى السويد طالباً المساندة العسكرية ، وقد حصل عليها مقابل التنازل عن كاريليا Karelia والتخلى عن المطالب الروسية فى ليفونيا ، وكان الصراع الذى أعقبت ذلك متسماً بالخداع من كلا الطرفين . ولقد تبادل البويارات والقادة الروس المواقع فى كلا الجانبين متنقلين من طريق إلى أخر حتى أطلق على الكثيرين منـــهم (الطيور المتنقلة أو العابرة birds of Passage) ، وهجرت القوات السويدية باسيل وأسقط البولنديون ديمترى الثانى الزائف وبدأوا حملة مستقلة ، وأخيراً وفى عام ١٦١٠ خلع باسيل من العرش على يد أنصاره ومؤيديه وتقدم البولنديون نحو موسكو.

وهنا تفجرت المشاعر القومية على غير إنتظار . وقد استعرت بنداء من البطريرك هرموجن Hermogen ، الذى إستطاع رغم وجوده فى السجن الذى وضعه فيه البولنديون أن يرسل نداءاته داعياً الشعب الى طرد الأجانب وتشكل جيش شعبى ، ولكنه أخفق فى محاولاته الأولى لتحرير موسكو ،. ثم ظهر قائدان قديران إستطاعا أن يعطيا الجيش توجيهاً ملهماً وفعالاً أحدهما كوزما منين Kuzma Minin وهو تاجـــر ، الـذى عـزز بخطبة وأحاديثه المشـجعة وقـدرته الإدارية المهـارة العسكرية للقائد الثانى النبيل ديمترى بوزهارسكىDmitri Pozharsky ، وتحت قيادة هذين القائدين تحرك الجيش الشعبى الى

موسكو . وفى أكتوبر عام ١٦١٢ إستطاع أن يحطم مقاومة القوات البولندية وأن يستعيد الروس المدينة .

روسيا تحت حكم أسرة رومانوف الأول

وفى عام ١٦١٣ م قامت جمعية مؤلفة من ممثلى رجال الدين والبويارات ونبلاء الخدمة ، وبعض ممثلى القرى والمدن بإنتخاب ميخائيل رومانوف Michael Romanov (١٦١٣ - ١٦٤٥ م) قيصراً للروس . وكان ينتمى الى البويارات الروس ويمت بصلة القرابة للزوجة الأولى لايفان الرابع ، وبتوليه العرش تبدأ أسرة حاكمة جديدة وهى أسرة رومانوف التى قدرلها أن تحكم الروسيا من ١٦١٣حتى١٩١٧ .

١ - إستعادة الاستقرار والسلطة

وخلال حكم الأباطرة الثلاثة الأوائل من أسرة رومانوف إستعادت الروسيا قدراً من الاستقرار السياسى الداخلى والاقتصادى ، فقد أخذ النظام يستتب بالتدريج فى الحكومة ، وعادت موسكو تسيطر على المناطق الخارجية . وحدث بعث واحياء للتجارة الداخلية والخارجية .وكان الأمل ألا يحكم قياصرة رومانوف بالسلطة المطلقة التى كان يمارسها أسلافهم . وقد إضطر القيصر ميخائيل لأن يشرك جمعية الأرض ، التى قامت بإنتخابه فى السلطة لبعض الوقت ، ولم يكن على درجة كافية من القوة فى البداية ليحكم دون مؤازرة من تلك الجمعية ، كما أنه لم يكن ليستطيع بدون موافقة الجزء الأكبر من المحكومين على الأقل أن يفرض الضرائب اللازمة لإعادة بناء الحكومة وإستمرار الجهود من أجل طرد السويديين والبولنديين الذين لم يكفوا عن التدخل بعد إنقضاء عهد القلاقل . وفى الفترة من ١٦١٣ حتى عام ١٦٢٢ جعل الجمعية فى حالة إنعقاد دائم ،وخلال هذه الفترة خفف أعباءة بتوقيع معاهدة صلح مع

السويد فى عام ١٦١٣م ، وبعد هذا لم يكن يطلب عقد المجلس إلا نادراً لأنه أصبح قادراً على الاحتفاظ بقوة عسكرية كبيرة ،والاحتفاظ بسلطانه بأقل قدر من المساعدة والعون . وفى عام ١٦٣٤ أبرم معاهدة مع بولندا متنازلاً عن المدينة الحصينة سمولنسك Smolensk مقابل عدم التدخل فى الشئون الداخلية . وعند وفاته فى عام ١٦٤٥ م كانت سلطة القيصر قد توطدت تماماً الى درجة أن ابنه ألكسيس Alexis (١٦٤٥ - ١٦٧٦م) إستطاع أن يتولى العرش كأمر مفروغ منه بدون تصديق جمعية الأرض . ولم تكن فى نية آل رومانوف أن تصبح الملكية الروسية إنتخابية ، ولذلك حذا القيصر الكسيس حذو والده فى عدم الأكتراث بالجمعية . وكان أهم انجاز للجمعية خلال حكمه هو التصديق على مجموعة القوانين المنقحة التى صدرت عام ١٦٤٩ م . وكان آخر إجتماع كامل لها خلال تلك الفترة فى عام ١٦٥٣ م . ولم يقاسم المجلس الخاص مصير جمعية الأرض ، فقد إستمر فى الاجتماع دون أن تكون له سلطة منفصلة عن القيصر ، والخلاصة أنه بعد فترة وجيزة من التكيف إستعاد الرومانوفيون كامل السلطة الاستبدادية للعرش .

٢ - ثورة فلاحى الفولجا

كما أن أباطرة أسرة رومانوف الأوائل قد خيبوا ظن الكثيرين الذين كانوا يتوقعون تخفيف الأتوقراطية ، كذلك خيبوا أمل الفلاحين الذين كانوا يتوقعون تحسين أحوالهم . ومع أن القياصرة لم يشركوا النبلاء فى سلطتهم السياسية إلا انهم إنحازوا الى مصالح النبلاء الاقتصادية على حساب الفلاحين ، وبهذا أحكموا أغلال رق الأرض . وخلال القرن السابع عشر أصبحت قلاقل الفلاحين أمراضاً متواطنه فى مناطق كثيرة خصوصاً على طول نهر الفولجا .

ولما كانت هذه المنطقة لاتزال منطقة حدودية فى طابعها ، فقد هرب اليها عدد كبير من الفلاحين الساخطين فراراً من الظروف السيئة فى الأراضى الزراعية فى أجزاء أخرى من البلاد . وهاجر اليها عدد هائل من القوزاق من جراء السخط على التقسيمات الطبقية المتزايدة فى بلادهم ومواطنهم الأصلية . وهؤلاء القوزاق الذين تمتعوا بتقاليد إستقلالية ليست لدى الفلاحين ، كثيراً ما تولوا الزعامة فى ثورات الفلاحين فى ذلك الأقليم . وقد نجحت احدى هذه الثورات فى عام ١٦٧٦ م تحت قيادة وزعامة ستنكا رازين Stenka Razin القوزاقى الى درجة أنه خلال ثلاث سنوات استطاع الفلاحون والقوازق أن يسيطروا على كل منطقة فولجا السفلى . ولكن القيصر ألكسيس إستطاع فى النهاية قمع الثورة وإعدام رازين ، ومع هذا فالثورة لم تُنس بسرعة لأنها دلت على الغضب والقوة اللذين يمكن توقعها من فلاحين متحدين تحت قيادة سليمة وقادرة . وترتب على هذه الهزيمة يأس الفلاحين من الاصلاح ، فلم تحدث ثورات واسعة النطاق لما يقرب من أربعين عاماً . وخلال هذه الفترة خضع الفلاحون للسلطة أكثر من ذى قبل .

٣ - ضم أوكرانيا الشرقية

وبينما كانت ثورة الفلاحين والقوزاق فى اقليم الفولجا تعتبر فى نظر القيصر الكسيس عامل تهديد ، فإن ثورة الفلاحين والقوزاق فى أوكرانيا تعد فى نظره خير وبركة . لقد كانت معظم أوكرانيا قد سقطت فى ايدى الليتوانيين والبولنديين خلال القرن الثالث عشر والرابع والخامس عشر ، وعندما خضعت ليتوانيا لبولندا عام ١٥٦٩ م عندما إتحد البلدان تحت تشريع واحد ، إنتقلت الأقاليم الأوكرانية من ليتوانيا إلى بولندا . وفى تلك الأقاليم كان معظم النبلاء ملاك الأرض بولنديين كاثوليك مع

أقلية من الأوكرانيين الأرثوذكس ، وكانت الطبقة الوسطى تتألف من اليهود. أما الفلاحون فكانو من الأوكرانيين أتباع المذهب الأرثوذكسى . لقد كان هذا التجمع مؤهلاً للقلاقل حيث إعتبر المواطنون الأوكرانيون كل من البولنديين اليهود أغراباً دخلاء ، وكان الفلاحون يكرهون الملاك البولنديين وخدمهم ووكلائهم وموظفيهم اليهود ، ومما زاد من اشتعال نار العداوة الأختلافات الدينية . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر إنتقل عدد كبير من المواطنين الأوكرانيين إلى إقليم الدنيبر السفلى الواقع على الحدود ، وهذه الأرض المتنازع عليها طالب بها وسعى إلى ضمها كل من بولندا والأتراك وحلفائهم المغول فى شبه جزيرة القرم . ولم تعترض الحكومة البولندية على تحرك الأوكرانيين ، وفى الحقيقة فإنها سمحت لهم وقدمت لهم حصانات كثيرة مقابل قيامهم بصد الأتراك والمغول ، ولهذا أصبحوا يشكلون الوحدات الحارسة للحدود والتابعة إسمياً لبولندا ، ولكن هؤلاء الأوكرانيين أخذوا بالفعل يقاتلون سادتهم البولنديين كما كانوا يخدمونهم .

وفى تلك الأثناء أخذ الدين يشكل موضوعاً بارزاً للشقاق بين شعوب أوكرانيا المتمردة . ففى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وفى ذروة الحركة المضادة للإصلاح الدينى حاول الجزويت البولنديون الذين كانوا على رأس حركة قوية لسحق البروتوستانتية ، تحويل الاوكرانيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية إلى الكاثوليكية . وفى عام ١٥٩٦ م نجحوا فى أغراء بعض كبار رجال الدين الأرثوذكس فى المنطقة وبعض كبار ملاك الأراضى الأوكرانية وقليل من الفلاحين الأوكرانيين بالاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بشرط خاص ، وهو تكوين وحدة دينية تستخدم طقوس الأرثوذكيه الشرقية ، ولكنها تعترف

برئاسة البابا . غير أن معظم الأوكرانيين رفضوا اعتناق هذا الشكل التوفيقى ، واستمرت الخلافات الدينية .

وأخيراً مالبث أن تفجر السخط المتراكم فى سلسلة من الثورات التى قام بها الفلاحون الأوكرانيون وتزعمها القوزاق بحوض الدينبر السفلى ، وكانت أهم هذه الثورات هى الثورة التى نشبت فى عام ١٦٤٨م بزعامة القوزاقى الأوكرانى بوجدان Bogdan وهو من كبار ملاك الأرض . وزهاء ست سنوات أمسك المتمردون بزمام الأمور بلا منازع وأخذوا يذبحون البولنديين واليهود المقيمين فى المنطقة . وعندما وجد الثوار أنفسهم تحت ضغط القوات البولندية المنظمة على نحو أفضل منهم لجئوا الى القيصر الكسيس ملتمسين المساعدة والعون . واستجاب لهم وبعث بالقوات الروسية لمحاربة البولنديين فى عام ١٦٥٤ م والتزمت بولندا الدفاع حتى عام ١٦٧٦ م رغم أنها كانت حينذاك فى حرب مع السويد لبعض الوقت ، وعندما انتهت الحرب وقعت بولندا معاهدة أندروسوفو Androssovo متنازلة للروسيا عن سيمولنسك وكييف والجزء الواقع شرق الدينبر ،وقدحقق الأستيلاء على أوكرانيا الشرقية نتائج بعيدة المدى بالنسبة للروسيا ، إذ كان الخطوة الناجحة الأولى نحو الأستيلاء على كل أوكرانيا ووضع الروسيا على حدود الآمبراطورية العثمانية التى كانت تهيمن بطريقة غير مباشرة على معظم سواحل البحر الاسود . ولكن ذلك خلق مشكلة إدارية صعبة لأن المتمردين الأوكرانيين الذين حاربوا بولندا للحصول على الحرية لم يكونوا راغبين فى قبول سيد جديد مقرة موسكو ، وحاولت روسيا حل هذه المشكلة بشكل توفيقى يسمح للبلاد التى ضمت حديثاً بإستقلال ذاتى تحت حكم طبقة حاكمة محلية ولكن هذا الحل أثار المتاعب فيما بعد.

٤ - الانقسام الدينى

فى الوقت الذى كانت تهتم فيه روسيا إهتماماً سياسياً بأوكرانيا ، بدأ بعض رجال الدين الأوكرانيين الأرثوذكس الذين استقر كثير منهم فى موسكو أثناء النصف الأول من القرن السابع عشر ، يحققون نتائج إهتمامهم بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية .

لقد بقيت الكنيسة الأرثوذكسية فى أوكرانيا البولندية تابعة لبطريك القسطنطينية ، وظلت أقرب الى روح وحماسة الكنيسة الرئيسية بالمقارنة مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وكان رجالها بصفة عامة أفضل وأكثر تعليماً من رجال الكنيسة الإرثوذكسية الروسية وقد اكتسب رجال الدين الأوكرانيين الذين قدموا الى موسكو ، نفوذاً واسعاً فى الدوائر الكنسية ، وكثيراً ماكانوا يوضحون الأخطاء فى النصوص والطقوس الدينية التى تطلب التصويب والتصحيح .

وكان نيكون Nikon الذى إستقر على كرسى البطريركية بموسكو فى عام ١٦٥٢ يعتبر إنتقادات هؤلاء الأوكرانيين لها مايبررها . وسرعان ما إستبعد من الكنيسة الروسية المستحدثات والبدع التى تسربت الى الطقوس على مر القرون . وعرض رجال الدين الأوكرانيين المساعدة فى إجراء التصويبات المطلوبة، قد وقبلها منهم نيكون . وربما كان الدافع على اقدامة على ذلك سياسياً ودينياً فى ذات الوقت ، إذ كانت موسكو تأمل فى ضم أوكرانيا ، وإذا أمكن إزالة الاختلاف بين الكنيستين الأوكرانيه والروسية فإن فرصة إخضاع الكنيسة الأوكرانية للروسية ستكون أفضل . وبدأ إصلاح الطقوس والشعائر فى عام ١٦٥٣م وعلى مدى ثلاث قرون قد بدت التغيرات التى حدثت تافهة ، ولكن بالنسبة للكثيرين من الأرثوذكس الروس كان أتفه وأدنى تغيير فى الممارسات الدينية التى تعلموا أن يعتبرونها مقدسة وغير قابلة للتعديل يعتبر من عمل الشيطان . وسرعان ماقاطعوا الإصلاح بإعتباره من وحى الأجانب الذين يحاولون

إفساد « روسيا المقدسة » . وإزدادت معارضة الإصلاح بين أفراد رجال الكنيسة والمدنيين على حد سواء ، وفى عام ١٦٦٧م ندد البطريك بالمعارضة وأدان كل الذين ساندوها وحكم بإحراق القادة والزعماء المعارضين . ولم يقبل الكثير هذه التعديلات ، وانتحر آلاف من رجال الدين والمدنيين الأتقياء مفضلين الموت على الحياة فى ظل ما أسموه بالمسيح الدجال الذى توقعوا ظهوره قريباً ، كما ابتعد الآلاف عن الكنيسة التى تعرضت للإصلاح فأطلق عليهم إسم المنشقين ، وقد عاقبتهم الحكومة بضراوة . وبعد الإصلاح أقامت الكنيسة الارثوذكسية علاقات وثيقة مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، ولكنها رفضت أن تكون تابعة لبطريك موسكو حتى عام ١٦٨٧ م.

٥ - عوامل الضعف المهددة للعرش

عندما توفى الكسيس فى عام ١٦٧٦ م تولى إبنه فيودور الثالث Feodor III (١٦٧٦ - ١٦٨٢ م) البالغ من العمر أربعة عشر عاماً ، وكان فتى معتل الصحة غير كفء عاجزاً عن ادارة شئون المملكة ، ونتيجة لهذا بدأت أحزاب وشيع مختلفة فى البلاط تتقاتل من أجل السلطة التى عجز عن ممارستها القيصر ، وأخيراً تقدمت اسرة ميلوسلافسكى Miloslavskys لحماية العرش ، واستطاعت بمساعدة نبلاء آخرين ذوى خبرة وتجربة تعزيز مكانه فيودور . وكان أهم إجراء داخلى مثير إتخذ فى عهده هو إجراء تعديلات بالجيش ، وهو الغاء النظام القديم القائم على إسناد القيادة العسكرية للنبلاء على أساس مكانه العائلات التى ينتسبون إليها ، وليس على أساس المقدرة والبراعة . أما النشاط السياسى الخارجى فقد كان يتركز أساساً على الصراع مع قوى الإمبراطورية العثمانية للسيطرة على أوكرانيا الغربية وهذا الصراع وهو الأول فى سلسة المعارك ضد الاتراك إنتهى بلاحسم عام ١٦٨١ م ، وكان على خليفة فيودور إستئناف الصراع .

الفصل الرابع
السفارات بين المغول وأوربا
قبل عين جالوت

- **مقدمة**
- **المغول وأسطورة الكاهن يوحنا**
- **سفراء البابا انوسنت الرابع ١٢٤٥ م**
  - أ - سفارة أسكلين
  - ب - سفارة أندرو
  - جـ - سفارة يوحنا أف بيان دل كاربين
- **لويس التاسع والمغول**
- **الأرمن والمغول**
- **القبيلة الذهبية وبيزنطة**

الفصل الرابع
السفارات بين المغول وأوربا
قبل عين جالوت

مقدمة :

لعبت القوة العسكرية المغولية دوراً كبيراً في تاريخ آسيا في القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان لهذه القوة أثراً كبيراً على الصراع الذى دار بين المسلمين والصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى. وفى تلك الفترة لم يكن هناك على وجه الأرض من قوة سواء فى الشرق أو الغرب تستطيع مواجهة الهجمات المغولية ،ويمكن القول إنه كان بالامكان مقاومة جزء مستقل من المغول لاتساند القوى المغولية الكبرى، وكان الخان المغولى الكبير فى منغوليا قوبيلاى Kubulai (١٢٦٠-١٢٩٣م) يدرك ذلك تماماً . وكان معروفاً أن جزءاً من الجيش المغولى بإمكانه غزو الصين وأن يتقدم إلى الجنوب حيث أندونسيا حالياً ،وأن بإمكانه أيضا أن يتقدم إلى بلاد الشرق الأدنى الاسلامى وينتصر على الدويلات القائمة به ، كما كان بإمكانه كذلك الإنتصار على الإمبراطورية البيزنطية .

أما فيما يتعلق بالغرب الأوربى فيجب علينا أن نضع فى الاعتبار إنه منذ بداية التوسع العسكرى المغولى لم يكن للغرب الأوربى إعتباراً كبيراً فى نظر القادة المغول ،ولعل ذلك كان حقيقياً فى بداية العمليات العسكرية ضد الدولة العباسية ثم بعد ذلك ضد دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى. وعندما كان القائد المغولى ،جيبى Jebe وزميله سوبوتاى Subotei يطاردان فلول القوات الخوارزمية، فإنهم لم يتجهوا الى الدولة العباسية فى بغداد بعد وفاة محمود خوارزم شاه فى عام ١٢٢٠ م ، ولكنهما اتجها بقواتهما إلى اقليم جورجيا Georgia وضد إقليم القفجاق.

وقد إنزعج الخليفة العباسى أبو العباسى أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥م) من أخطار تقدم المغول بهذه الصورة من جانب ، وإلى الوجود الصليبى فى بلاد الشام من جانب آخر ، خاصة أن الحملة الصليبية الخامسة كانت تهاجم مصر فى تلك المرحلة ، وقد طلب الخليفة العباسى المساعدة من البيت الأيوبى فى مصر والشام ولكن إنتصارات الحملة الخامسة فى مصر حالت دون إرسال هذه النجدة. ومن حسن حظ العالم الاسلامى أن القوات المغولية قد اتجهت الى الشمال بدلاً من بغداد فى تلك المرحلة ، لأن سقوط بغداد فى تلك المرحلة المبكرة من التاريخ قد ينزل أفدح الخسائر بالعالم الاسلامى ،ويضع العالم الاسلامى بين القوات المغولية فى الشرق والصلبيين فى مصر والشام من الغرب .

لقد كان نجاح المغول الساحق على جنوب روسيا وانتصاراتهم فى معركة كالكا Kalka فى عام ١٢٢٣ م أمراً خطيراً ، وإن هذه القوات التى تمكنت من الحصول على هذه الإنجازات فى مثل هذه البلاد البعيدة يوضح الى حد كبير قدرة هذه القوات على اجتياح بغداد والسيطرة على الدولة العباسية . وإذا كان المغول قد تأخروا فى إجتياح أراضى العالم الاسلامى فى تلك المرحلة ، فإن ذلك يرجع الى سياسة المغول لا إلى قصر نظر حكام المغول أو ضعف قواتهم ، فقد أولى حكام المغول إهتمامهم الى غزو بلاد الصين فى تلك المرحلة ، أما الشرق الاسلامى فقد وضع أمره فى المرتبة التالية .

لقد إعتقد المغول أنه ليس بوسع القوات الاسلاميةأو الصليبية أن تقف فى طريق تقدمهم الى الشرق ،وأن ذلك سوف يأتى فى الوقت المناسب ، لذلك أعد المغول حملة لإجتياح هنغاريا ، وقد قاد هذه الحملة القائد المغولى باطو Batu ، وهو الرجل الثانى صاحب السطوة الكبيرة فى الامبراطورية، وقد نجح باطو فى مهمتة فيما بين عامى ١٢٤١ -

١٢٤٢م ، كما نجحت قوة مغولية أخرى في تولى أمر العمليات في بلاد سلاجقة الروم حيث وقعت معركة كوس داغ Kosedagh عام ١٢٤٣ م . وكان لهذه الحملة الأخيرة أثراً على انهيار سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى . وهناك مظهر هام لظهور المغول على الساحة الآسيوية ، وهو علاقة المغول بالصليبيين فقد تزامن ظهور المغول كقوة عسكرية خلال فترة الصراع بين المسلمين والصلبيين . وعندما تقدم المغول الى بلاد الأناضول كان لكل من المسلمين والصلبيين ميزة تجعل إحدى القوتين تتفوق على الأخرى ، وإن امكانية التحالف مع القوى الخارجية هو الأمل الكبير في تفوق إحدى القوى على الأخرى ، وإذا كانت الدبلوماسية تعنى فن الحصول على الممكن لاعلى المستحيل ، فإن النفاق والخيانه وعدم الوفاء يكونون في بعض الأوقات طريقاً للحصول على ذلك الممكن . وكان ذلك كله من خصال الصليبيين . وأحداث معركة عين جالوت التى وقعت في الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م ، الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ، توضح أن الصليبين في عكا قد سمحوا للقوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز أن تمر عبر الأراضى الصليبية ومهاجمة القوات المغولية من الخلف ، عندما كان القائد المغولي كتبغا يتولى أمر قيادة القوات المغولية .

وهنا يتضح مدى خيانه الصليبيين للمسيحية التى تستروا فيها لمحاربة المسلمين . وهنا يجب القول أنه كان من الممكن أن يتحالف الصلبيين مع المغول في تلك المرحلة بالذات ويغيروا وجه المعركة ،وهناك تفسير عملى لتصرف الصليبيين على هذا النحو ، لقد ظل العداء بين المسلمين والصلبيين في بلاد الشام مايزيد عن مائة وخمسين عاماً ، وانهم قد اعتادوا الحياة على نحو من القسوة ، بما فيها من القتال ، وكانت هناك الحرب التقليدية بين الطرفين ، أما تدخل المغول في المنطقة وماعرف عنهم من أساليب الحرب والدمار فهو أمر غير مرغوب فيه من الطرفين .

ويمكن القول أن تصرف الصلبيين على هذا النحو يرجع الى فكرة لعلها تكون مقبولة من الناحية العسكرية ، وخلاصة هذه الفكرة أن يترك الصليبيون القوات المغولية لتقاتل القوات الاسلامية ، وفى نهاية الأمر سيكون هناك غالب ومغلوب ، ومن المعروف أن المنتصر يخرج من المعركة ضعيفاً ، وبذلك تكون هناك فرصة للصليبيين وهى إما مواجهة المغول إذا أحسوا بقدرتهم على ذلك ، أو التقرب منهم بصورة أو بأخرى إذا أدركوا أن القوة لاتفيد فى المواجهة ، ويجب أن يكون من المعروف أن فكرة محالفة الصليبيين مع المغول لاتعود الى أمراء الصليبيين فى الإمارات الصليبية بل إلى أمراء وملوك الغرب الأوربى مثل ملوك فرنسا وإنجلترا وكذلك البابا وية .

المغول وأطورة الكاهن يوحنا Prester John

منذ منتصف القرن الثانى عشر ساد الإعتقاد فى أوربا أنه فى الشرق المسيحى البعيد أمير خرافى غنى وقوى بإمكانه مساعدة الصليبيين ومهاجمة المسلمين من الخلف ، وقد إنتشرت هذه الخرافة بمعرفة رجل الدين المؤرخ أوتو أف فرايزنج Otto of Freising الذى جعل من نفسه متحدثاً باسم هيو Hugh أسقف جبله .وذلك فى غمرة من اليأس الذى سادالصليبين من عدم تقديم المساعدات الأوربية لهم فى بلاد الشام ،وطبقاً لماروا‌ه أوتو ،فقد ذكر هيو أن شخصاً يدعى يوحنا ملك وقسيس يقطن فى بلاد ماوراء أرمينيا وبلاد الفرس فى الشرق البعيد مع المسيحيين النساطرة ، وقد حارب يوحنا هذا إخوته ملوك الفرس وميديا واجتاح بلادهم . وعندما تقابل يوحنا مع إخوته الملوك بجيشه المكون من الفرس والميديين والسريان فى معركة إستمرت لمدة ثلاثة أيام ، حرص كل فريق على القتال حتى الموت ، وكان يوحنا .. على قول الأسطورة ، يطالب رجاله بإجبار الفرس على الفرار وإحراز النصر ، وتستطرد الأسطورة القول أنه بعد إنتصار يوحنا تحرك بجيشة ليقدم المساعدة إلى

كنيسة القيامة فى القدس ، ولكن يوحنا وقواته عجزوا عن عبور نهر دجلة ، لذلك إتجهوا إلى الشمال . وقد علم يوحنا أن النهر يتحول الى ثلج مع فصل الشتاء ، ورغم هذا حاول يوحنا العبور لعدة سنوات ولكنه فقد العديد من رجاله بسبب الطقس غير العادى بالنسبة لهم ، لذلك عاد يوحنا ورجاله الى بلادهم .

ويقال أن أصل يوحنا يرجع الى المجوس الذين ورد إشارة عنهم فى إنجيل متى الأصحاح الثانى الآية الأولى ومابعدها فقد ورد « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذ مجوس من الشرق قد جاء إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمة فى المشرق وأتينا لنسجد له » . وسواء كان انتصار بعض قبائل المغول على السلاجقة فى سنجار فى عام ١٢٤١م كان قوة دافعة تاريخية لإحياء أسطورة الكاهن يوحنا أم لا ، فإن ماحدث قد حرك مشاعر البابا اسكندر الثالث ليكتب الى الكاهن يوحنا والبحث عنه .

ولم تتحقق مساعدة الكاهن يوحنا فى منتصف القرن الثانى عشر، ولكن بوادر هذه المساعدة بدأت تظهر بعد حوالى ثمانين عاماً عندما ظهرت الأسطورة من جديد بعد سقوط دمياط فى آيدى الصليبيين فى نوفمبر عام ١٢١٩م ، فقد ذكر المؤرخ جاك أف فترى James of Vitry أن الملك داود ملك دولة الهند ، سوف يسارع لمساعدة المسيحيين وسوف يأتى ومعه قوات كثيرة ، وسوف ينقضون كالوحوش على المسلمين ، وقد اعتمدت كتابات جاك أف فترى على تقرير كتب باللغة العربية ثم ترجم للاتينية فى المرحلة من ١٢١٨ - ١٢٢١ م ، وفيه خلط بين إسم جنكيز خان واسم داود الذى يسمى الكاهن يوحنا .

لقد عرفت إنتصارات المغول على مدى واسع فى أوربا عن طريق ماكتبه جاك أف فترى والمندوب البابوى للحملة الصليبية الخامسة وكان

يدعى بلاجيوس Pelagius ، وبذلك لاح الأمل فى مساعدة الصليبيين .
ولذلك أرسل البابا هونوريوس الثالث خطابات يعلن فيها الى رؤساء أساقفة فرنسا وانجلترا فى نبرة حارة ، أن الملك داود هو الكاهن يوحنا وأنه إنتصر على شاه بلاد فارس ، وإستولى على بلاده ، وأنه أصبح على بعد مسيرة عشرة أيام من بغداد . وقد انتشرت هذه الشائعة على نطاق واسع منذ عام ١٢١٩ م وكان لهذه الشائعة أكبر الأثر على القوات الصليبية فى دمياط حتى أن المندوب البابوى بلاجيوس قد رفض العرض السخى الذى قدمه الكامل ملك مصر الى الصليبين ، والذى يقضى بتنازل الملك الكامل وأخوه الملك المعظم ملك دمشق عن جميع الأراضى التى فتحها صلاح الدين ، عدا قلعتى الكرك والشوبك مقابل الجلاء عن دمياط .

وفى عام ١٢٢١م ساد الاعتقاد بأن هناك تطابقاً بين الملك داود وبين الكاهن يوحنا وبين رجاله وبين المغول ، والحقيقة أنه خلال عام ١٢٢٠ - ١٢٢١ م إجتاح المغول إقليم جورجيا وهذا مالم يكن يعرفه المندوب بلاجيوس فى دمياط ،لذك أرسل إلى ملك جورجيا لاشين الرابع Lashen IV يطلب منه إرسال النجدات الى الصليبيين فى دمياط .

سفراء البابا انوسنت الرابع ١٢٤٥م

والحقيقة أن تهديدات المغول بدأت تظهر فى شرق أوربا فى عام ١٢٣٦م ، عندما بدأت بعض القوات المغولية تغير على الجزء الأوربى من بلاد روسيا ، وفى خريف عام ١٢٣٧ م إجتاح المغول دولة بلغار، الى جانب بعض المدن الروسية ورغم بُعد هذه الأماكن عن أوربا الغربية إلا أن ماحدث من تدمير وتخريب على يد المغول قد وصل الى مسامع أوربا الغربية فتغيرت الصورة المشرقة للمغول عند الأوربين .

وتأكد هذا الحال عندما إجتاح المغول هنغاريا فى عامى ١٢٤١ - ١٢٤٢م وأنزلوا بها الدمار ، وأن إنهيار القوة الهنغارية أمام المغول قد أذهل حكام غرب أوربا ، وقد لام فريدريك الثانى إمبراطور ألمانيا الهنغاريين على ما لحق بهم من هزيمة ، وعرض أن يقدم لهم المساعدات على نفقته الخاصة ، وإستغل فرصة ظهور الخطر المغولى وحث حكام أوربا على الاتحاد تحت قيادته .

لقد انزعج البابا جريجورى التاسع لهذه الأخبار وعجز عن تقديم المساعدة للملك الهنغارى بيلا الرابع Bela IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠ م) ، وكان إنسحاب المغول المفاجئ من هنغاريا فى ربيع عام ١٢٤٢ م ، مثار دهشة وفرحة فى الأوساط الأوربية ، واعتقدت أن الخطر قد زال عن أوربا ولو إلى حين ، ولكن المهم فى تلك المرحلة أن احتمال قيام تحالف أوربى مغولى ضد المسلمين قد زال تماماً ، وان ماكان يشغل بال أوربا فى تلك المرحلة هو تجدد الخطر المغولى على هنغاريا مرة أخرى وأن يصبح قريباً من أوربا الغربية . وبعد أسابيع قليلة من إعتلاء البابا أنوسنت الرابع عرش البابوية فى روما دعا البابا بطيرك مدينة أكويليا Aquileia عاصمة هنغاريا ليجند الرجال وأن يعلن عن حملة صليبية ضد المغول .

كما دعا البابا أيضاً الى مجلس دينى فى مدينة ليون Lyons للنظر فى أمر الخطر المغولى وأمور أخرى ، على أن يبدأ المجلس أعماله فى الثامن والعشرين من يونيه عام ١٢٤٥م. ولكن البابا لم ينتظر اجتماع المجلس فيما يتعلق بأمر المغول ، فقد أعد البابا ثلاث سفارات لارسالها إلى المغول .

سفارة لورانس البرتغالي :

وكان على رأس السفارة الأولى البرتغالي Lawrence of Portugal، وهو من الرهبان الفرنشسكان. وقد حمل لورانس خطاباً من البابا مؤرخاً في الخامس من مارس ١٢٤٥م، وفي هذا الخطاب دعا البابا خان المغول

إلى إعتناق الديانة المسيحية. وقد إتخذ لورانس طريقه إلى الشرق عبر أرمنيا الصغرى ولكنه لم يتقدم أبعد من ذلك حيث انتهت رحلته عند مدينة أياس Lajazzo (Ayas). وقد عاد لورانس من حيث أتى ثم قام في العام التالي بزيارة لبعض مناطق شرق البحر المتوسط ومنها بلاد اليونان.

ويبدو أنه كان في صحبة لورانس البرتغالي أحد الرهبان الفرنشسكان ويدعى دومنيك أف أرجوان Dominic of Argon، وقد عهد لورانس إليه للقيام بزيارة بعض المدن الإسلامية، وقد زار دومنيك منطقة أرمينية وربما بعض المدن الإسلامية في الشام ومصر ومكث فترة طويلة في القسطنطينية قبل عودته إلى روما في صيف عام ١٢٤٧م. والحقيقة الواضحة أن السفارة الأولى التي أرسلها البابا إنوسنت الرابع لم تصل إلى بلاد المغول، وبالتالي لم تسلم رسالته إلى أي حاكم من حكام المغول. وعلى ذلك يمكن القول أن هذه البعثة لم تحقق أهدافها السياسية.

ويرى البعض أن لورانس البرتغالي قد نجح في نشر الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي في بلاد المغول. والحقيقة أن في هذا الرأي مغالاة كبيرة، فالمقدمات لا تتفق مع النتائج، كما أن لورانس نفسه لم يترك لنا وصفاً أو نصاً عن رحلته حتى يمكن مناقشته وأن ما سجل هذا الرأي هم رجال الدين الكاثوليك الذين كتبوا في أواخر القرن الماضي عن بعثات جماعة الفرنشسكان إلى المغول.

٢ - سفارة يوحنا أف بيان دل كاربين :

وتولى أمر السفارة الثانية أحد الرهبان الفرنشسكان أيضاً ويدعى يوحنا أف بيان دل كاربين John of Pian del Carpine، وقد حمل هذا السفير الخطاب الثاني الموجه من البابا الذي يرجع تاريخه إلى الثالث عشر من مارس في العام نفسه (١٢٤٥م) أي بعد حوالي أسبوع من تاريخ لخطاب الأول الذي حمله السفير لورانس البرتغالي، ويتضح من ذلك أن

البابا إنوسنت الرابع كان يتعجل إرسال السفراء إلى المغول دون إنتظار وصول نتائج البعثة الأولى.

ومعلوماتنا عن يوحنا أكثر من لورانس، فقد ولد يوحنا في بيروز Per-ouse بالقرب من مدينة أسيس Assise الواقعة على الساحل الايطالي الشرقي المواجه للبحر الادرياتيكي، ولعل ذلك جعله من رفاق القديس فرانسيس أف أسيس مؤسس طائفة الفرنشيسكان (١٢١٥م)، وقد لعب يوحنا دوراً كبيراً في نشر أفكار هذه الطائفة في ألمانيا، وبوهيميا، والمجر، والنرويج، والدانمرك، واللورين وأسبانيا. ولعل في هذا الرصيد الهائل من الرهبانية والتبشير بالمذهب الكاثوليكي ما جعل البابا يختاره ليكون سفيراً له وللمسيحية بأكملها لدى خانات المغول في تلك المرحلة من التاريخ الوسيط.

والحقيقة أن بعثة يوحنا اختلفت عن بعثة سلفه لورانس التي كانت مهمته التبشير بالمسيحية داخل قبائل المغول، فقد كانت مهمة يوحنا هي محاولة كبح جماح المغول وإيقاف توسعاتهم، وربطهم بفكرة السلام التي كانت تسعى إليها البابوية للتفرغ لمحاربة المسلمين، ويتضح ذلك من بعض نصوص خطاب البابا إلى خان المغول. فقد ورد به أن البابا يرسل إليكم ابنه العزيز يوحنا ورفاقه لتوقعوا مع أوربا معاهدة سلام، ومن خلال هذه المعاهدة يمكن التعرف على نواياكم والتخطيط معكم للغزوات المقبلة.

وعلى أية حال فقد رحل يوحنا ورفاقه بينهم الراهب بنوا دي بولوني be-noit de Pologne كمترجم لهم، وبدأت رحلة السفارة من مدينة ليون في فرنسا إلى مقاطعة بوهيميا، ومنها اتجهت إلى بولندا. وعندما دخلت البعثة الأراضي الروسية استضافها أحد الحكام الروس ويدعى بازيل حيث قضوا بعض الوقت حاولت فيه البعثة الدعوة للمسيحية على المذهب الكاثوليكي، ولكنها لم توفق في مهمتها.

أخذت البعثة طريقها إلى مدينة كييف،، وقد تعرضت البعثة لسوء الأحوال الجوية بالإضافة إلى أخطار غارات اللتوانيين على المناطق الروسية، وفي النهاية وصلت البعثة إلى كييف في الثالث من فبراير عام ١٢٤٦م، ومنها خططت لإتخاذ طريقها إلى العاصمة المغولية قراقورم، فوصلت في البداية إلى معسكر المغولي في سيرا - أوردو Sira - Orda الذي يبعد عن العاصمة المغولية بمسيرة نصف اليوم في الثاني والعشرين من يونية.

وعندما وصلت البعثة كان الخان الأعظم أوكيتاي قد مات، وكان يتولى الوصاية توراكينا خاتون، وطبقاً لقوانين المغول كان لابد من الانتظار حتى يتم انتخاب الخان الجديد. ولذلك ظلت البعثة حوالي ستة أسابيع حتى تم انتخاب كيوك، ولكن الاحتفال بالتتويج تأخر لبعض الوقت بسبب سوء الأحوال الجوية. وفي الرابع والعشرين من أغسطس ١٢٤٦م تم تتويج الخان الجديد حيث ركع الجميع أمامه.

كان يحيط بالخان كيوك مجموعة من المسيحين النساطرة، فاعتقدت البعثة أنه سيعتنق المسيحية بعد وقت قريب، ولعل ما شجع رجال البعثة على هذا الاعتقاد ما تردد حول قيام الخان الجديد ببناء كنيسة صغيرة من ماله الخاص تقام فيها الشعائر المسيحية.

وفي نهاية الأمر استدعى الخان كيوك السفارة البابوية وعلى رأسها يوحنا دي بيان كاربين، وقد سأل الخان رئيس البعثة عن أسباب قدومه، فأبلغه بها، وكان من ردود الخان أن الله أمر المغول بمعاقبة الأمم العاصية التي لا تدخل في طاعته، وعلى البابا إذا أراد أن يعرف ديانة المغول فعليه الحضور إليهم بنفسه، وأضاف أن المغول يرفعون سيوفهم في وجه كل الشعوب التي لم تخضع لهم بعد، وأن سبيلهم في ذلك استخدام الحديد والنار.

وبعد طول بقاء البعثة طلب الخان كيوك منها أن تكتب له اقتراحاتها، ولكن البعثة أحست بعدم جدوى ذلك. كما أنها كانت غير مفوضة بمثل هذه الأمور، وكل ما يهمها هو تقديم رسائل البابا التي وجدت فيها الكفاية، أو أنها خشيت الدخول في تفاصيل الحديث عن المسيحية الكاثوليكية، في حين يعلم المغول الكثير عن المسيحية النسطورية الارثوذكسية، فيعلم المغول الكثير عن الشقاق الديني الذي يسود الطوائف المسيحية، وبذلك يظهر ضعف الدول المسيحية أمام المغول.

أحس يوحنا أنه أدى واجبه المكلف به، وأنه لا جدوى من بقائه واستأذنت البعثة في الرحيل، فعادت من نفس الطريق التي أتت منه، وفي حوالي شهر مايو من عام ١٢٤٧م كانت قد وصلت إلى معسكر الخان باطو على نهر الفولجا ومنه إلى مدينة كييف ومنها إلى المقر البابوي في روما حيث استقبلها البابا انوست الرابع بحفاوة بالغة، وبعد أن ظل يوحنا إلى جوار البابا حوالي شهر عينه رئيساً لاساقفة مدينة أنتفاري Antivari الواقعة على ساحل دلماشيا. والحقيقة أن يوحنا قد فشل في رحلته تماماً وأنه لم يقم بعمل شئ سوى أنه سلم خطابات البابا إلى خان المغول، ولكنه على الجانب الآخر ترك لنا وصفاً طيباً عن الأماكن التي مر بها وما لحق بها من خراب، وكثيراً من التفاصيل عن عادات المغول وتقاليدهم وأحوالهم الاجتماعية المتعلقة بالزواج والوفاة وطعامهم وشرابهم وحياتهم الأخرى بعد الموت. وهي أمور يطول شرحها ولا داعي لذكرها في هذا المقام. والخلاصة أن المغول لم يسلموا برغبات البابا، كما أن الخان كيوك لم يشر في رده إلى أي ارتباط مع البابوية بروابط الصداقة، وأن الرد الذي قدمه خان المغول لا يعدو أن يكون بعض عبارات المجاملة إلى البابا.

٣ - بعثة أسكلين Ascelin

وهو أحد رجال الدين الدومنيكان، وكان من ضمن حاشيته رجل يدعى سيمون أف سانت كونتين Simon of saint Quentin صاحب كتاب تاريخ التتار الذى فقد والذى قدم لنا بعض المعلومات التى بقيت لنا فى بعض المصادر. وعلى أيه حال فقد سار أسكلين فى الطريق الجنوبى الى المغول عبر قبرص وبلاد الإسلام ثم الى مدينة تفليس Tiflis فى الشمال حيث لحق بالبعثة راهب دومنيكانى آخر يدعى جيوسكارد أف كريمونا Guiscard of Cremona ، ومن تفليس بدأت الرحلة التى إستمرت حوالى سته أسابيع حتى وصلو الى معسكر المغول الذى كان يتولى أمره القائد بياجو Baigu فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٢٤٧ م وكان اللقاء بين بياجو وإسكلين بعيداً عن الصداقة ، فقد كان كلاهما عنيداً ، وقد سجل لنا سيمون أحد رجال البعثة مادار من اقتراحات قدمت من رجال حاشية بياجو وفيها : قتل إثنين من رجل البعثة ، وإقترح آخر يقضى باعادة أسكليين إلى البابا وعلى جسده أثر الضرب بالسياط .

لم يكن بياجو راغباً فى نقل رسالة البابا إلى خان المغول ، بل طلب من رجال البعثة أن يواصلوا مسيرتهم الى منغوليا ، وقد رفض أسكلين بشدة ، ولكن حب الاستطلاع دفعه إلى السير إلى منغوليا بمساعدة بعض البيزنطيين والأتراك من الرهبان ، تم ترجمة الرسالة من اللاتينية إلى الفارسية ثم إلى اللغة المغولية . وقد أرسل بياجو أصل الرسالة ومعه الترجمة المغولية إلى عاصمة المغول قراقورم Karakourm حيث أعدت رسالة مغولية رداً على رسالة البابا . وقد تضمنت الرسالة رداً عنيفاً يقضى بإخضاع البابا وشعبه للمغول . وبهذه الرسالة الحزينه عاد أسكلين ورفاقه إلى البابا فى صيف عام ١٢٤٨م، وعاد مع البعثه أيضاً

مبعوثان مغوليان هما ايبك Aybeg وسرجيس أو سركيس Sargis ، لعل الأول مسلم تركى والثانى مسيحى ، وكانَ قدومها يعنى أول إتصال سلمى بين المغول وبين أحد حكام أوربا .

٤ - بعثة أندرو

أما البعثة الثانية التى تستحق الذكر فقد تولى أمرها الراهب الدومنيكانى أندرو أف لونجومو Andrew of longjumeau ، وأثناء ذهابه فى رحلته الى المغول زار الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ثم المنصور صاحب حمص ، وكان كلاهما على علاقات طيبة فى تلك المرحلة مع الصليبيين . وفى خطاب مؤرخ فى الثلاثين من ديسمبر عام ١٢٤٥ م موجه الى البابا ورد به على لسان المنصو إنه ومن أجل الأسباب العديدة الذي قدمتها فاننى قد نصحت الراهب أندرو ورفاقة ألا يكملوا رحلتهم الى المغول ، ويتضح من الخطاب أنه أثناء جدال المنصور مع أندرو انه لم يشر الى الأسباب التى من أجلها يرى عدم إكمال الرحلة . وأنه كان يرى أن التحالف بين المغول والصليبيين سوف يؤثر كثيراً على المنصور وسوف يضعه فى موقف حرج .

ورغم عدم تشجيع المنصور للراهب أندرو فإن الأخير واصل رحلته الى المغول ، وفى ضواحى مدينة تبريز تقابل مع جيش مغولى . كما تقابل مع الراهب النسطورى سيمون الذى يعرف باسم ربان عطا . وكان ربان هذا معروفاً عند الخان العظيم أوكيتاى . وقد ذهب ربان عطا إلى الارمن فى إقليم قيليقية عدة مرات بين سنتى ١٢٣٥ - ١٢٤٠ م ، ولعب دوراً هاماً فى رعاية شئون المسيحيين الذين يعيشون فى ظل الحكم المغولى . وقد تجادل أندروا وربان عطا لمدة عشرين يوماً ، وعندما حان وقت الرحيل فإن الراهب النسطورى ربان عطا ودع الآخر وحمله بعض الهدايا منها عصا من الخشب الأبنوس ليقدمها للبابا ، وحمل أندرو أيضاً خطاباً من ربان

عطا يحث فيه البابا على أن يعقد سلاماً مع الامبراطور فريد يدرك الثانى حتى يعم السلام أوربا وتتوحد لمواجهة المغول ، وبدون هذه الوحدة الأوربية لايمكن مواجهة القوات الاسلامية ، والحقيقة الماثلة أمامنا الآن أن أندرو وربان عطا قد إستطاعا إقامة جسر دينى قوى بين المسيحيين فى الغرب الأوربى والمسيحيين فى أقصى الشرق ، هذا الجسر الذى قام فوق القوات المغولية والقوات الإسلامية . وعاد اندرو الى أوربا فى النصف الأول من عام ١٢٤٧م ومعه كل هذه التقارير . وكان أندروا أول الذين أرسلهم البابا وعادوا الى أوربا ، وتعتبر التقارير التى أحضرها معه والنتائج التى توصل اليها أفضل من النتائج التى توصل اليها المبعوثان الآخران وهما أسكلين ويوحنا أف بيان دل كاربين ، والمعروف أن الآخير قد قابل كيوك خان منغوليا العظيم، وعاد ومعه أخبار مزعجة تفيد أن هذا الخان الذى يفترض فيه من أنصار المسيحية قد رفع راية العصيان ضد كنيسة الله ، وضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد كل الممالك المسحية ودول الغرب الأوربى .

لقد أيد ماورد فى الخطاب الذى حمله يوحنا للبابا من قبل المغول ماورد فى تقارير الراهب أندرو، فقد كان ماورد فى هذين الخطابين قاسياً على البابا وأوربا بأسرها ، فقد كان على البابا أن يقدم يمين الولاء والطاعة للخان الأعظم ، وكان فى ذلك إهانة للباباوية وضياع هيبتها فى العالم المسيحى ، والأهم من ذلك كله أن هذه المعلومات قد أصبحت معروفة للجميع . والخلاصة أن هذه البعثات البابوية قد وضعت البابا أمام حقيقة هامة جداً ، وهو أن الخطر المغولى أصبح العدو الأول للباباوية وأوربا ، وكانت إجابة البابا الى الخان بياجو فى خطاب أرخ فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٢٤٨ م ، وقد حمل رسالة البابا المبعوثان المغوليان اللذان قدما مع السفارة وهما أيبك وسركيس ، وفى هذه الرسالة شرح البابا للمغول العقيدة المسيحية ، وطالبهم بوقف تهديدهم . لقد

فقد البابا الثقه فى المغول وفى إقامة تحالف معهم أو الإرتباط معهم برباط الصداقة على الأقل ، وقد تبنى هذه الفكرة لويس التاسع ملك فرنسا . ورغم الصورة القاتمة التى قدمها المبعوث البابوى يوحنا أف بيان دل كاربين إلى البابا ، فقد قام الأخير بالاتصال بالملك لويس بصفة خاصة ينصحه بالاتصال بالمغول ، وقد قرر الملك الفرنسى أن يواصل المساعى التى بدأها البابا أنوسنت الرابع ، ولقد سعى لويس فى هذا الجانب ولكنه لم يوفق فى مسعاه . ولعل ذلك مرجعة إلى أن لويس كان يسعى من جانب المغامرات السياسية ، وإنه كان يسعى لإقامه الصداقة مع القوى المغولية بإعتبارها تقع الى الشرق من العالم الاسلامى ، وكان من المهم فى البداية تحويل المغول من الوثنية إلى الديانه المسيحية .

٥ - سفارات لويس التاسع إلى المغول

وفى غمرة هذه الأحداث تحرك الملك لويس التاسع بحملته المعروفة فى التاريخ باسم الحملة الصليبية السابعة لمهاجمة مصر ، وقد رسا بسفنه على جزيرة قبرص وهو فى الطريق إلى مصر ، وقد رسا بسفنه على جزيرة قبرص وهو فى الطريق إلى مصر، واذا كان البابا إنوست الرابع هو الذى بدأ بمرسلة حكام المغول ، فان العكس هو الذى حدث مع الملك لويس، ففى أثناء وجود الملك فى جزيرة قبرص وقبل أن يرحل إلى مصر، وصل إليه مبعوثان مغوليان هما مرقص وداود من قبل القائد المغولى الجيهداى الذى كان يشغل منصب نائب الخان الأعظم فى الموصل ، ومن الواضح أن هذين المبعوثين كانا من المسيحيين النساطره .

وقد قدما هذان المبعوثان رسالة مكتوبة إلى الملك لويس التاسع بالاضافة إلى رسالة شفوية وكان فى كلاهما مايثير الدهشة ، فقد كان ماورد فيها أن كيوك وبعض رجال المغول البارزين ومنهم الجهيداى نفسه قد اعتنقوا الديانة المسيحية ، وأن الخان الأعظم قد أرسل الجهيداى إلى الغرب لعله يستطيع أن يساعد الصليبيين لإستعادة الأراضى المقدسة ،

وأن المغول متحمسين إلى الدخول فى حلف مع ملك فرنسا ، كما كان من خطط المغول أن يتجهوا إلى بغداد فى الوقت الذى يهاجم فيه لويس سلطان مصر حتى لاتساعد القوات الايوبية الخليفة العباسى ، وبذلك يصبح الحلم القديم حقيقة وهو الحلم الذى ساد إعتقاد الغرب بظهور الكاهن يوحنا ملك المسيحيين فى الشرق ويضرب المسلمين من الخلف .

كان فى كل هذا تحول كبير لموقف المغول الذى أبلغ للبابا أنوسنت الرابع ، ولكن الأحداث سوف تسفر عن غير ذلك ، وأن الحديث والاتفاق شئ والواقع شئ آخر لأن كل مادار بين داود ومرقص والملك لويس التاسع لم يكن سوى هراء بعد أن تصور الطرفان أن بالأمكان تنفيذ ماتم الاتفاق عليه .

لقد كانت السفارة التى أرسلها المغول إلى الملك لويس عملا كبيرا من الوجهة الرسمية ، كما إعتبرت السفارة عملا دبلوماسيا قام به المغول واستجاب له الملك لويس، وقد حاول كلا من الجانبين المغولى والفرنسى إستغلال الآخر لمصلحته . ومن ذلك يتضح انه حدث تطابق مرحلى لأهداف كل منهما، وهذا الهدف هو القضاء على القوة الايوبية فى مصر. وبالنسبة للملك لويس فهو أمر يسهل عليه تحقيق هدفه الرئيسى وهو استعادة الأراضى المقدسة، أما بالنسبة للمغول فان القضاء على القوات الأيوبية فى مصر يسهل عليهم القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد إعتقادا منهم أن مصر لن تقف مكتوفه الأيدى اذا ما تعرضت الخلافة العباسية للخطر . وربما يكون فى السفارة المغولية إلى قبرص نوع من التجسس على نوايا وتحركات الغرب الأوروبى ممثلة فى تصرفات الملك الفرنسى لويس .

وعلى أية حال لم يكن أمام الملك لويس سوى الترحيب بالسفارة المغولية التى يرى فيها نية تحالف المغول مع الغرب الأوربى ضد المسلمين

بعامة وفي مصر والشام وبغداد بخاصة ، ومن جانب آخر كان الملك الفرنسي يعلق آمالا كبيرة على دخول العناصر المغولية في الديانة المسيحية خاصة بعدما صور اليه البعض ميول الخان العظيم كيوك إلى بعض المسيحيين النساطرة ، وتعين عدد منهم في بعض الوظائف القيادية الهامة في دولة المغول، وتخيل الملك الفرنسي أن الوحدة الدينية بين المغول وأوربا ستكون المدخل الطبيعي إلى التحالف العسكرى بين أوربا والمغول للقضاء على المسلمين في منطقة الشرق الأدنى الاسلامى خاصة الدولة الأيوبية .

والحقيقة أن الملك لويس قد أكرم وفاده السفارة المغولية وأبدى إستعداده تماما للتحالف مع المغول ، لأنه لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك . وإلى جانب ذلك أعد الملك سفارة من لدنه لمرافقه البعثة المغولية عند عودتها إلى القيادة المغولية . وكانت البعثة الفرنسية مكونة من ثلاثة رهبان من جماعة الدومنيكان وهم أندرو أف لونجومو Andrew of Longiumeau وأخوة جى Guy ويوحنا كاركاسونCatrrasonne ، وقد تولى أندرو رئاسة هذه السفارة نظر لخبرته بأمور الشرق . وسوف يطول غياب هذه السفارة حوالى عامين.

والمهم هنا أن الملك لويس أرسل مع سفارته خيمة من قماش بلون قرمزى فى شكل كنيسة صغيرة وذلك بقصد جذب أنظار المغول إلى الديانة المسيحية، بالاضافة إلى بعض التماثيل التى صنعت من الحجارة ، ومن هذه التماثيل تمثال للملاك جبريل وهو يحمل البشارة للسيدة مريم العذراء ، وبعض الصور الأخرى المتعلقة بالديانة المسيحية. ويلاحظ أن عضوين من سفارة الملك لويس كانا يعرفان اللغة المغولية ، وكان بوسعهما أن يعلما المغول القواعد الاساسية للديانة المسيحية وأن يقنعوهم بقبولها .

غادرت السفارة الفرنسية والمغولية جزيرة قبرص واتجهت إلى مدينة أنطاكية الصليبية كما ذكر المؤرخ جوانفيل. ومن أنطاكية اتجهت إلى الموصل حيث معسكر الجهيداى . وعند هذه المرحلة كان الموقف السياسى

المغولى قد تغير تماماً ، فقد مات الخان الأعظم كيوك ، لذلك وجد الجهيدى أن من الحكمة ألا يتصرف من نفسه مع السفارة الفرنسية ، ورأى أنه من الأفضل أن يوجه السفارة إلى الوصية على العرش المغولى فى العاصمة قراقورم وهى أوغول قاميش - أرمله الخان كيوك - لأن الصراع على السلطة لاختيار خليقة للخان الأعظم كان على أشده . وكان على السفارة الفرنسية أن تواصل الرحلة من الموصل إلى العاصمة المغولية .

ظلت أغول قاميش وصية فى الفترة ١٢٤٩ - ١٢٥١م ، ورغم وضعها المشكوك فيه ، الا أنها فعلت ما فى وسعها لإرضاء السفارة الفرنسية. وفى نهاية الأمر غادرت السفارة الفرنسية ومعها سفارة من قبل المغول من العاصمة قراقورم فى طريقها إلى بلاد الشام حيث كان الملك لويس موجوداً فى مدينة قيسارية . وكانت حملة لويس التاسع قد هزمت فى مصر كما أسر الملك لويس فى المنصورة ، وبعد فشل الحملة وفك أسر لويس غادر مدينة دمياط إلى بلاد الشام حتى وصل إلى مدينة قيساريه .

والمهم هنا أن السفارة المغولية المصاحبة للسفارة الفرنسية قد تقابلت مع الملك لويس فى ابريل عام ١٢٥١م، وقد قدمت السفارة المغولية ، وقد قدمت السفارة المغولية رسالة إلى الملك لويس ، وقد ورد في هذه الرسالة أن الوصية على العرش المغول أوغول قاميش قد إعتبرت الهدايا التى أرسلها الملك لويس بمثابة جزية من الملك كتابع لأسياده المغول، وأن المشاكل التى تمر بها دولة المغول بسبب وفاة الخان العظيم تمنعها من إرسال حملة عسكرية إلى البلاد الإسلامية فى تلك المرحلة . وقد ذكر المؤرخ جوانفيل أن ما ورد برسالة المغول لا يعدو أن يكون إنذارا من المغول إلى الملك لويس الذى إعتبره المغول تابعا لهم ، وان الهدايا التى أرسلها الملك إلى الخان المغول

تعتبر جزية، وعلى الملك أن يتابع إرسال هذه الجزية سنويا لحكومة المغول حتى لا يتعرض الملك والشعب الفرنسى للغزو كما تعرضت له شعوبا أخرى من قبل .

لقد خاب أمل الملك لويس فى السفارة التى أرسلها للمغول، خاصة أنه كان يتمنى أن تعود السفارة بمساندة ايجابية للملك يعوض بها خسارته وهزيمته فى حملته على مصر، خاصة انها لم تكن هزيمة عادية ، بل هزيمة مهينة أعقبها وقوع الملك أسيرا في أيدى المسلمين . والواقع أن الملك لويس لم يكن قد تفهم حتى هذه المرحلة سياسية المغول الخضوع إما سلما أم حرباً لدولة المغول .

ورغم هذا كله فان الملك لويس لم ييأس ، والواقع أن الملك لويس كان يسعى من جانبه إلى أمرين أولهما محاولة جذب المغول إلى الديانة المسيحية ويعتبر ذلك إن تم نصرا للملك لويس المعروف باسم القديس لويس ، ومن جانب آ]رفهو يريد تحالفا عسكريا مع المغول لضرب الدولة الأيوبية التى تسيطر على مصر والشام وأنزلت به هزيمة قاسية على ضفاف النيل . ولعل ما شجع الملك لويس على معاودة إرسال سفارة أخرى للمغول هو ما شاع فى تلك المرحلة عن تحول الأمير المغولى سارتاق بن باطو إلى الديانة المسيحية.

ولما كان سارتاق من أمراء القبيلة الذهبية التى تحكم بلاد القفجاق الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود ، إنصب تفكير الملك لويس على إرسال بعثة ثانية إلى القفجاق . وقد تكونت البعثة من راهب فرنشيسكانى هو وليم أف رويرك William of Robruck وآخر دومنيكانى هو بارثليميو أف كريمونا Bartholomew of Cremona فى محاولة من الملك لمساعدة المغول للصليبيين فى بلاد الشام . وقد رحلت السفارة الفرنسية من مدينة قيسارية

مقر إقامة الملك لويس فى بداية ربيع عام ١٢٥٢م وإتخذت طريقها إلى القسطنطينية . وقد استقرت البعثة هناك لبعض الوقت لتقصى أخبار مغول القفجاق ، ومنها إبحرت البعثة في البحر الأسود حتى شبه جزيرة القرم Crima ، وهى مركز تجارى عام ، ولعل أفراد البعثة قد استفادوا الكثير من المعلومات التى تلقوها من التجار عن المغول، وقد لاحظت البعثة تعدد الديانات الى يعتنقها أهل هذه المناطق ومنها الديانة الاسلامية .

لقد قاست البعثة الكثير من السير بالعربات بعد مغادرتها شبة جزيرة القرم لأن البعثة كانت تسير فى أراضى خالية من المدن أو القرى وكانوا ينامون تحت عرباتهم حتى وصلوا إلى مقر إقامة سارتاق الواقع على نهر الفولجا .

تم اللقاء بين البعثة الفرنسية وبين الأمير المغولى سارتاق بعد إتمام المراسم الواجب على البعثة القيام بها ، وقد قدم رويروك خطاب الملك لويس إلى سارتاق، وبعد أن علم بمضمون رسالة الملك ومنها بقاء البعثة فى الاراضى التى يسيطر عليها المغول للتبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى والتحالف مع الملك لويس لمحاربة المسلمين ، أحس سارتاق أنه لا يملك الموافقة على أمور خطيرة كهذه ، لذلك طلب سارتاق من البعثة التوجه إلى والده الخان باطو المقيم فى مدينة سراى للموافقة على ذلك ، وكان فى هذا التصرف ردا كافيا من الأمير سارتاق بانه لم يعتنق المسيحية.

واصلت البعثة السير مع مرشدين إلى مقر إقامة باطو ، ويتضح من النصوص أن الخان باطو قد احيط علما بأمر هذه البعثة، فأعد اللازم لاستقبالها فى خيمة كبيرة أعدت لهذا الغرض . وعندما التقى رويروك بالخان باطو، بدأ رويروك بالحديث عن الهدف من قدومه وأبلغه أن الملك لويس قد أرسله إلى الأمير سارتاق عندما علم بأنه اعتنق الديانة المسيحية، كما أبلغه أيضا أن الملك لويس قد أعد العدة لمحاربة المسلمين وأنه يأمل فى

التحالف مع المغول لتنفيذ ذلك والاستيلاء على الأراضى المقدسة. ولم يكن بوسع الخان باطو الموافقة على طلب البعثة أو على جزء منها، فطلب من البعثة التوجه إلى العاصمة قراقورم لمقابلة الخان الأعظم مونكو لعرض الأمر عليه، لأنه الوحيد الذى يملك هذه السلطة ، وقد وافق روبروك على ذلك.

وقد زود الخان باطو البعثة الفرنسية بالأدلاء اللازمين حتى تصل إلى مقر الخان عند قراقورم ، وقد بدأت البعثة رحلتها حوالى منتصف سبتمبر ١٢٥٣م حتى وصلت فى أواخر ديسمبر من العام نفسه ، أى أن الرحلة استغرقت حوالى ثلاثة أشهر ونصف . وفى نهاية الأمر تقابل روبروك وزميله مع الخان مونكو، ولكن هذه المقابلة لم تسفر عن موافقة صريحة من الخان الأعظم لطلب الملك لويس . والخلاصة أن فكرة البعثة قد بدأت بشائعة أن الأمير سارتاق قد اعتنق المسيحية وانتهت إلى لا شيء بعد رحلة طويلة بدأت من قيسارية إلى القسطنطينية ثم إلي شبه جزيرة القرم فإلى مدينة سراى على نهر الفولجا ثم إلي قراقورم . والحقيقة أن المغول كانوا يتعاملون بسياسة التسامح مع كل الأديان ، كما أن المغول قد وثقوا فى بعض المسيحيين النساطرة وانهم أسندوا إليهم بعض المناصب الهامة ، كما أن حكام المغول كانوا يحضرون بعض الاحتفالات الدينية للنساطرة وللمسلمين أيضا . ولعل البعض قد توهم فى ذلك ، تحول بعض المغول إلى المسيحية وأشاعوا ذلك ، وتحولت الشائعة إلى حقيقة صدقها باباوات وحكام أوربا فى تلك المرحلة .

الأرمن والمغول

وفى عام ١٢٥٣م قام الملك هيشوم Hetoum بنفسه لزيارة الخان الأعظم مونكو فى العاصمة قراقورم ، وكان أول ملك يصل الى البلاط المغولى من تلقاء نفسه ، وقد تم إستقباله بكل ترحاب ، ولقد وعد المغول بعدم فرض ضرائب على الكنائس والاديرة الأرمينية التى تقع فى الأراضى المغولية ،

ولم تكن زيارة هيتوم قاصرة على حماية المسيحية الذين يعيشون على أرض المغول ، ولكنه كان يريد الحصول على مساعدة المغول للسيطرة على الأراضى المقدسة وإنتزاعها من أيدى المسلمين .

وقد عاد هيثوم فى عام ١٢٥٦م متشجعاً بالوعود التى بذلها المغول محملا بالهدايا ، وكان هيثوم قد سار فى رحلته الى المغول عبر أرمينيا الكبرى ومر بها عند عودته أيضاً ، وفى هذه المرة الأخيرة ظل فترة طويلة إستقبل خلالها العديد من الأمراء المحليين والأساقفة ورؤساء الأديرة ، وكان الملك الأرمن ليوالثانى Leo II (١١٨٧ - ١٢١٩م) يعتبر نفسه ملكاً على كل الأرمن ، وقد سجل ذلك على بعض عملاته ، ولكن زيارة الملك هيثوم تعتبر أول زيارة يقوم حاكم قيليقة بإتصال مباشر مع السكان فى أرمينيا الكبرى .

وحاول هيثوم أن يكسب الأمراء الصليبيين إلى جانه ليؤيدوا فكرة التحالف مع المغول ، ولكنه لم يوفق إلا مع أمير أنطاكية بوهمند السادس Bohemond VI (١٢٥١ - ١٢٦٨ م) ، ولقد ظل هيثوم متفهماً ومخلصاً لهذه الفكرة ، وقام من جانبه بزيارات متعددة إلى بلاط المغول ،، وقدم مساعداته العسكرية للمغول عندما طلب منه ذلك. ولقد حاربت الفرق الأرمينية إلى جانب القوات المغولية فى آسيا الصغرى وبلاد الشام . وقد أدت هذه المساعد الى تقدم هيثوم وإستعادة بعض القلاع التى كان سلاجقة الروم قد إستولوا عليها ، وهى القلاع التى كانت تابعة للأمير الأرمينى كوخ باسيل Kogh Vasil،

لقد كان فى عودة هذه القلاع الى أرمينيا بداية المنافع التى حصل عليها الأرمن من جراء تحالفهم مع المغول ، ولقد نجح هيثوم أيضاً فى حروبه مع سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى قلج أرسلان الرابع (١٢٥٧ - ١٢٦٧م) وإنتصر عليه ، وعلى التركمان الذين إستقروا على حدود قيليقية

فى عام ١٢٥٩م .و لقد أخترق صفوفهم وجرح قائدهم قرامان Karaman جرحاً مميتاً ، ودافع عن منطقة سليوقية Seleucia ضد هجماتهم فى عام ١٢٦٣م . وكان على الأرمن أن يتحملوا نتيجة تحالفهم مع المغول خاصة بعد هزيمه كتبغا فى معركة عين جالوت ، وبعد إسترداد المسلمين لمدينة دمشق وحلب وضعف النفوذ المغولى فى بلاد الشام ، ولقد دفعت أرمينيا ثمن تحالفها مع المغول عندما وقفت قواتها ضد المسلمين أعداء الصليبيين والمغول .

وحاول هيثوم ملك أرمينيا التفاوض مع بيبرس ، وتم تبادل السفراء بينهما ، لكن طلبات السلطان كان مبالغ فيها ،وأحس هيثوم أن الحرب مع المماليك واقعة لامحالة ، فذهب الى تبريز يطلب معونة المغول ، وفى تلك المرحلة عاجل السلطان بيبرس بدفع أمرائه وقواته مع قوات المنصور الثانى صاحب حماه لغزو قيليقية . وقد مرت هذه القوات عبر ممرات الأمانوس Amanus بدلاً من المرور عبر ممرات سوريا وذلك فى عام ١٢٦٦ م . وقد حاولت القوات الأرمينية بقيادة الكندستبل سمباد والأميران الصغيران ثوروس وليون Toros and leon مقاومة القوات الإسلامية بكل مالديها من قوة . ولكن القوات الأرمينية هُزمت فى هذه المعركة ، وقد قتل ثوروس كما أسر كل من ليون وسمباد ، وقد دام إجتياح القوات الإسلامية البلاد الأرمينية مدة عشرين يوماً دون أن تبدى القوات الأرمينيةأيه مقاومة ، وقد إجتاحت مدن المصيصه وأدرنه وأياس وطرسوس وبعض البلاد الأخرى . وفى مدينة سيس أضرمت القوات الإسلامية النار فى كاتدرائيتها وأخذت كنوزها وكل ماتجمع من مجوهرات بداخلها ، كما ذبحت القوات الإسلامية الآلاف من السكان وحملت العديد منهم أسرى الى مصر ، وعندما عاد هيثوم من رحلته الى المغول فى تبريز وجد بلاده خراباً ، وقد أثر ذلك عليه كثيراً ، وظل ينتظر عودة إبنه ليون Leon من الأسر حتى يتخلى عن العرش والتماس السلوى فى أحد الأديرة .

وبعد هزيمة القوات الأرمينية فرض بيبرس على مملكة أرمينيا شروطاً قاسية ، فقد طلب تسليم كل القلاع الموجودة فى منطقة الأمانوس وكل القلاع المقامة على الحدود مع بلاد الشام بإستثناء مدينة بهنسي . كما تم إطلاق سراح الأمير ليون بعد إتصالات عديدة مقابل إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر - المقرب الى بيبرس وهو الذى أسره المغول فى حلب .

لقد أستسلمت قيليقية للقوات الإسلامية ، وتخلى فرسان الداوية عن قلعة بغراس والقلاع المجاورة لها ، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام القوات المملوكية ، ولم يعد هناك سوى المغول الذى أصبح بإمكانهم تقديم المساعدة للأرمن ضد القوات المملوكية . ورغم هذا كله فإن وضع الأرمن أصبح ضعيفاً عما كان عليه فى عهد هولاكو ، وعندما أطلق سراح ليون إصطحبه والده هيثوم إلى إبغا ليصبح ليون تحت حمايته ، وأن يصبح أبغا وريثاً لمملكته من بعده ، وبعد أن إعتزل هيثوم فى عام ١٢٦٩م عاد ليون من بلاط المغول ليصبح ملكاً على أرمينية . واعتقد ليون المعروف بالثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٩م) فى التحالف مع المغول وهو الأمل الذى رآه ليون لإنقاذ الأراضى المقدسة.

وقد إلتمس ليون المساعدة من الغرب الأوربى أيضاً ، كما أن القائد المغولى أبغا قد أرسل السفراء بدوره إلى البابا فى روما والى إدوارد الأول إنجلترا من أجل التحالف ضد المماليك ، ولكن ذلك لم يسفر عن عمل ملموس ، لقد أصبح من المؤكد أن مثل هذا التحالف ، أصبح غير ممكن ولن يصاحبه أى نجاح . وفى غياب أى عمل عسكرى أوربى أو مغولى نجح المماليك فى إستكمال إنتصاراتهم العسكرية وتمكنوا خلال سنوات قليلة أن يستولوا على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام وأن يحطموا فى الجزء الأول من القرن الرابع عشر مملكة أرمينية ،

لقد أعطت أعمال بيبرس العسكرية ضد الصليبيين الفرصة للملك

الأرمينى ليون فى بداية عهده أن يصلح مادمرته القوات الإسلامية فى أرمينية ، فبادر بإعطاء إمتيازات أجنبية للبنادقة فى بلاده عام ١٢٧١م ، وقد تم إعادة بناء مدينة إياس وأصبحت مركزاً تجارياً كبيراً. ولقد ذكر الرحاله ماركوبولو الذى زار المدينة عام ١٢٧١م بقوله « وهى مكان تدور فيه تجارة ضخمة ، ويكثر التجار من التردد على مينائها قادمين من البندقية وجنوه ومن أماكن أخرى كثيرة ، وهم يتاجرون فى التوابل والعقاقير والبضائع المختلفة كالمنسوجات والحرير والصوف وغير ذلك من السلع الثمينة ، ومن المتبع أن من يريدون السفر الى البلاد الداخلية فى الشرق أن يقصدون هذا الثغر » وعندما إستعاد المسلمون المدن الساحلية الصليبية ، تحولت التجارة إلى مدينة اياس وأصبحت ميناء هام وزاد نموها ، وأصبحت الميناء الرئيسى فى حوض البحر المتوسط للبضائع التى تأتى من أواسط آسيا ، ولكن أهميتها وثرواتها قد جعلها هدفاً رئيسياً لغارات القوات المملوكية .

لقد بدأت الغارات المملوكية على الأرمن فى عام ١٢٧٥م ، وكانت سريعة ومخربة وتقدمت حتى حصن كريكوس Carycus . وفى الوقت نفسه تقدمت عناصر التركمان ودخلت قيليقية من الغرب . ورغم مقاومتها فإنها تقدمت داخل الأراضى الأرمينية سنة بعد أخرى . وقد زاد قيام بعض الثورات داخل البلاد من صعوبة التعامل مع القوات المملوكية خاصة أنه فى تلك المرحلة لم يكن هناك مساعدات مغولية للمملكة أرمينية ، ولكن تقدم القوات المغولية الى سوريا فى عام ١٢٨١ م كانت عاملاً خطيراً فى موازين القوى فى تلك النواحى منذ موت هولاكو ، لقد حارب الأرمن إلى جانب المغول . ولكن السلطان قلاوون نجح فى هزيمة القوات المغولية والأرمينية بعد أن نجح فى ايقاف الصليبيين موقف الحياد .

ووقعت أرمينية فريسة للسلب والنهب من قبل القوات المغولية

والمصرية والتركمانية فضلاً عن الأكراد ، وإشتعلت النار فى مدينة أياس ، وسلبت المنازل وهجرها سكانها الكثيرون الذين هربوا إلى القلاع التى بنوها حديثاً بعيداً عن البحر ، ولم يكن أمام الملك ليون سوى إرسال السفراء إلى مصر لطلب السلام ، ولكن هؤلاء السفراء ظلوا سجناء حتى تدخل مقدم جماعة الداوية فى هذا الأمر . وهناك عامل آخر ظهر فى تلك المرحلة هو أن الخان المغولى أرغون كان متعاطفاً مع الصليبيين ، لذلك ذهب الملك الأرمينى ليون الى بلاط المغول ليقدم فروض الولاء والطاعة ، وقد خشى قلاوون من تدخل المغول ، لذلك عقد هدنه مدتها عشر سنوات مع الصليبيين بدأت من شهر بونيه فى ١٢٨٥م ، وذلك مقابل جزية سنوية قيمتها مليون دينار مع منح مزايا كثيرة للمصريين . ولكن هذا السلام الذى عاد على المصريين بالفوائد المادية الكثيرة لم يستمر طويلاً .

وبعد سقوط عكا وطرابلس وتولى هيثوم الثانى حكم أرمينيه (١٢٨٩ - ١٢٩٣ م) كانت القوات المملوكية فى حمص ، وحاول هيثوم ابعاد خطر القوات المملوكية عن بلاده ، فقدم الى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م مبلغاً كبيراً من المال ، وقد قبله السلطان حتى يستكمل غزو الاراضى التى كانت فى حوزة الصليبيين . وفى ربيع عام ١٢٩٢م سارت القوات المملوكية حتى وصلت الى مدينة هرومجلا Hromgla (قلعة الروم) ، وقد قاومت القلعة لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً ، وفى النهاية تم إجتياحها بقوة السلاح

فى الحادى عشر من مايو من العام نفسه ، وقد وقعت مذبحة رهيبة قتل فيها العديد ، كما أخذ الكثير أسرى ومنهم الجاثليق ستيفن الرابع Stephen IV نفسه ، وقد نهبت القوات المملوكية الكنائس ومقر إقامة الجاثليق وخربت وسلبت المخلفات المقدسة وكنوز الكنيسة ، واعتبر سقوط هرومجلا نصراً كبيراً ، وقد إستقبل السلطان فى دمشق إستقبالاً مشرفاً . وظلت الطبول تدق طوال الليل على أنوار الشموع .

ولم تدخل القـوات المملوكيـة بلاد الأرمن على الفـور ، وفـى عـام ١٢٩٣م تلقت القوات المملوكية الموجودة فى دمشق الأوامر للتقدم الى مدينة سيس sis . وعلى أثر ذلك تحرك الملك الأرمينى وأرسـل السفراء ، وفى النهاية أجبر الأرمن على التخلى عن ماتبقى من قلاع على الحدود وهى بهسنى وتل حمدون وأن يضاعفوا الضريبة التى كان يدفعها الأرمن من قبل . مات الاشراف فى أواخر عام ١٢٩٣م ، واغتصب العرش السلطان كتبغا ، كما إجتاحت المجاعة والطاعون مصر والشام .

وقـد أدى هذا كله إلى راحـة الأرمن من الخطر المملوكى ، وان الملك هيثوم الذى كان قد تنازل عن العرش لأخيه ثوروس الثالث فى عام ١٢٩٢ م قد عاد اى العرش مرة أخرى ولمدة عامين ، وقد وطد الروابط مع مملكة قبرص وهى المملكة الوحيدة المسيحية التى ظلت باقية بعد سقوط الأمارات الصليبية فى بلاد الشام ، وقد زوج أخته إيزابيلا الى عمورى أخ الملك هنرى الثانى ملك قبرص ، وحاول هيثوم أيضاً إحياء التحالف مع المغول ، وذهب لزيارة حفيد هولاكو الخان بايدو Baidn فى فـارس (١٢٩٥م) ، وبينما كان هيثوم موجـوداً فى مراغة إستطاع أن ينقـذ من التخريب الكنيسة السريانية التى شيـدها ربان سوما, Rabban Souma وأن يحمى البطريق النسطورى ماريا ياهبالاها Mar yabba hala الثالث .

وعندمـا إستولى غازان علـى السلطة من بايدو ذهب هيثوم إلى غـازان وتلقى منه وعداً بحماية الكنائس المسيحيـة ، ويحتمل أنه تلقـى منه وعداً بتحالف عسكرى ، وعند عـودة هيثوم الى مدينة سيس فى عام ١٢٩٥م رتـب زواج أخته ريتا Rita وميخائيـل التاسع Mi-chaél IX (١٢٩٤ - ١٣٠٢م) ابن وشـريك اندرونيق الثـانـى باليولـوج Andronicus II Palalologus (١٢٨٢ - ١٣٢٨ م) فـى العرش .

ومن أجل إقامة تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية ، إتجه الملك هيثوم بنفسه الى العاصمة البيزنطية وإصطحب معه إبنه ثوروس ، وخلال غيابة عن أرمينية قام أخية سمباد وإستولى على السلطة عام ١٢٩٦م ، وسانده فى ذلك الجاثليق جريجورى السابع والبابا بونيفاس الثامن فى روما .

تأثرت قيليقية كثيراً بالصراع الداخلى ، ولما عاد هيثوم الى بلاد سعى للحصول على تأييد المغول ، ولكنه لقى مقاومة من أخيه سمباد عند مدينه قيصرية وتم القبض عليه وسجنه مع أخيه ثوروس ، ثم شنقه بعد ذلك ، أما أخيه هيثوم فقد أصيب بضرر كبير فى بصره ، ولكن الاخ الاصغر قسطنطين نجح فى طرد سمباد من المملكة وأطلق سراح أخيه هيثوم ، ثم استولى قسطنطين على السلطة عام ١٢٩٨ م ، وبعد عام شفى هيثوم واستعاد السلطة للمرة الثالثة ونفى أخواه سمباد وقسطنطين إلى القسطنطينية حيث عاشا هناك .

كان ماحدث عاملاً مشجعاً للمماليك على غزو مملكة أرمينيا ، وساعد على ذلك ماأصاب الجانب المغولى من إنشغال بالأمور الداخلية . وفى عام ١٢٩٨ إجتاح المماليك مدينة أدنه والمصيصة واستولوا على احدى عشر قلعة من بينهم مرعش وتل حمدون ، وهى المدن التى سبق أن تخلى عنها الأرمن من قبل ثم إستعادوها . ورغم هذا كله كان هيثوم لايزال يطمع فى مساعدة المغول ، وقد بدا لبعض الوقت أنه يمكن إتمام هذا التحالف وهزيمة المماليك ، فلقد قاد الخان المغولى غازان حملة على الشام إشترك فيها هيثوم بحوالى خمسة آلاف من رجاله ، وكان اللقاء عن مدينة حمص فى ديسمبر عام ١٢٩٩م، ولكن غازان مالبث أن عاد بسرعة بعد أن دخلت القوات المملوكية بلاد الشام ، وكانت الحملة الثانية عام ١٣٠١م وكان للأحوال المناخية عاملاً كبيراً فى فشل هذه الحملة ، أما الحملة الثالثة فقد كانت فى عام ١٣٠٢ م وقد انتهت

بكارثة ، فقد غرق الكثير من القوات المغولية فى فيضان نهر الفرات فإنسحب هيثوم مع القوات المغولية وذهب الى بلاط الخان غازان قبل أن يعود الى بلاده .

أصبح الطريق مفتوحاً الى أرمينية مرة أمام القوات المملوكية ، وفى عام ١٣٠٢ م قام أمير حلب بحملة سريعة فأحرق المحاصيل وإستولى على الكثير من الأسلاب ، وفى عام ١٣٠٤م إستولى المماليك على مدينة تل حمدون التى إستعـــادها هيثوم بعد إنتصار المغول عام ١٢٩٩ . وعادت القوات المملوكية فى عام ١٣٠٥ ، رغم مساعدة بعض القوات المغولية التى كانت تقوم بجمع الجزية السنويةللقوات الأرمينية فقد تكبد الأرمن خسائر فادحة ، وقد وقعت الهزيمة بعد وصول بعض القوات من مصر . وقد عبر الرحالة مارينو سانودو Marino Sanudo عن الحالة السيئة التى وصلت اليها بلاد الأرمن فى تلك الرحلة ، وكتب يقول لقد وقعت بلاد الأرمن بين أنياب أربع وحوش وهم الأسد أو المغول الذين دفع لهم الأرمن جزية كبيرة ، والنمر أو السلطان المملوكى الذى قام بعمليةغزو يومية للبلاد ، والذئب أو الترك الذى قضى على قوة الأرمن ، والرابع وهو الحية أو القراصنة الذين نخروا فى عظام المسيحية فى أرمينيا ، وزادت هذه المشاكل عندما تحول المغول الى الاسلام وبذلك فقد الأرمن الأمل فى أيه مساعدات مغولية .

وتنازل هيثوم عن العرش لابن عمه ليون الرابع (١٣٠١ -١٣٠٧ م) وسلك الرهبانية وتميز عهد ليون لاضطراب الداخلى . وكان لسياسة هيثوم السابقة مع البابوية دوراً كبيراً فى ذلك ، وكانت النهاية غير متوقعة ووقعت فى ١٣٠٧/١١/١٧ م . فقد قام الأمير المغولى بلارغوBilarghu بقتل هيثوم والملك ليون ومعهم أربعين من الأرمن الذين كانوا معهم فى مذبحة أعتبرت خيانه للأمن .

القبيلة الذهبية وبيزنطة

تعتبر القبيلة الذهبية Golden horde الجزء الغربي من إمبراطورية المغول ، وقد تمتعت منذ قيامها بطابع إستقلالي اكثر من أى جزء آخر بين أقسام امبراطورية المغول . ويرجع ذلك الى الوضع الاستثنائي الذى تمتع به الزعيم باطو . وكان للحاكم الأول وهو باطو والحاكم الثانى وهو سارتاق وضع خاص فى امبراطورية المغول . ويتضح ذلك مما ذكره وليم روبروك سفير الملك الفرنسي لويس التاسع الى المغول ، فقد وضع وليم روبروك كلا من الخان مونكو وهو خان المغول الأعظم فى منغوليا على قدم المساواة مع باطوخان القبيلة الزرقاء (فرع من القبيلة الذهبية) ، وذكر أنهما عينان فى رأس واحده ، ورغم انهما اثنان ، إلا ان لهما رؤية واحدة .

وتحت قيادة بركه (١٢٥٧ - ١٢٦٦م) أصبحت القبيلة الذهبية أكثر استقلالاً ، ولعل ذلك مرجعه الى ان قو بيلاى الخان الاعظم فى منغوليا لم يكن له إتصال كبير مع القبيلة الذهبية البعيده الاقليم .

أما الاتصالات بين الخان الأعظم قوبيلاى وخانات فارس فقد كانت أكثر اتصالاً . ولم يكن ذلك لقرب المسافة بين منغوليا وايران ولكن بفضل الاتصال البحرى بين الصين وفارس ايضاً ، رغم ان هذا الطريق بطئ ومشحون بالمخاطر . ولقد كان هذا الطريق مناسباً تماما للاميرة المغولية كوكاشين Kokachin الذى اتخذته فى طريقها للزواج من الخان أرغون فى فارس (ت ١٢٨٤م) ولكن قدرها جعلها تتزوج من إبنه غازان (ت ١٢٩٥م) وهى الاميرة التى صاحبت الرحالة ماركوبولو فى رحلته .

وإذا كان هناك اتصال قوى بين المغول فى فارس وبين منغوليا فان المغول الروس تحت قيادة الخان بركة ،لم يتمكنوا من العمل على زيادة

استقلالهم . ، ولكنهم قد تمكنوا من التقدم الى المناطق الحضرية التى فصلتهم عن جنسهم الاصلى ، وكان السكان الذين عاشو ا تحت قيادة القبيلة الذهبيه خليطاً اجتماعياً ولغوياً ودينياً .

لقد كان هناك ما يعرف بسكان الغابات وهم عناصر - Finno Ugrians ، كما اسس المغول المنتصرون ما يعرف جغرافياً بأسم اوراسيا . وغالبيتهم من عناصر سلجوقية تركية ، وكانت مسيحية ثم إسلامية .

وفى الجنوب تقابل المغول مع الاتراك الذين عرفو باسم القفجاق (كومان بولفزتى) (Kumans,Polovtsy) أما فى الشمال البعيد فإن المغول قد وضعو نهاية للامبراطورية البلغارية على نهر الفولجا ، وهى دولة تركية كان لها صلات تجارية مع بغداد ومصر منذ مائة عام . وقد ظلت هذه المناطق وطوال ضم المغول لها الاقاليم التى امدت الامبراطورية البيزنطية والدولة الايوبية بالرجال ، ولقد كان لماليك القفجاق أهمية فى عهد السلطان الصالح أيوب خاصة عندما عهد اليهم ليكونوا حرسه الخاص . لقد استخدم كثير من الاتراك القفجاق إصطلاحات جديدة بتأثير الغزو المغولى .

لقد تفهم القفجاق المغول رغم انهم اعداء ، وبعد عام ١٢٥٠ م وبعد قيام الدولة المملوكية ، فإن بعض الاتراك القفجاق هم الذين تولوا السلطة فى مصر والشام وفى جنوب روسيا ، وقد كانوا يفوقون المغول عدداً . وهناك حقيقه هامه وهى أن المماليك فى مصر ومغول القبيلة الذهبية كانوا حلفاء طبيعيين وذلك بسبب التقاليد التاريخيه التى تعود إلى أيام إمبراطورية بلغار الفولجا ، وبسبب الارتباط العرقى بين القبيلة الذهبية وبين حكام مصر من سلاطين المماليك .

ان اللهجه التى تكلم بها المماليك كانت نفس اللهجه التى تكلم بها معظم الاتراك الذين كانوا يتبعون الخان بركة ، وحتى هذا الوقت فإن الاتراك الذين يسكنون فى منتصف منطقه الفولجا يتكلمون اللغة

التركية القفجاقية . إن كراهية المماليك للمغول لم تنعكس على القبيلة الذهبية ولكن هذه الكراهية إنصبت على مغول فارس ، وفى الوقت نفسه كان التوتر قد ساد بين المغول فى ايران والمغول فى روسيا . لقد كان للعداء الذى ساد بين القبيلة الذهبية والمغول فى فارس أثراً كبيراً على الاحداث التى وقعت فى آسيا الصغرى وعلى الامارات الصليبية ، ولعله ليس من الضرورى أن ندرس على هذه الصفحات أسبابها بل نكتفى بنتائجها .

ان تحويل بركه خان المغول فى جنوب روسيا وغرب سيبريا وهم مغول القبيلة الزرقاء للإسلام كان بدافع شخصى منه . وظلت مواقفه واضحه ضدالمغول الآخرين لانزالهم الاضطهاد باصحاب الديانات الاخرى غير المغولية . كما أن بركة خان لم يمارس أى ضغط على اتباعه لاعتناق الديانة الاسلامية . ولقد كان مخلصاً للاسلام . كارهاً للحملات التى تولى قيادتها ابن عمه هولاكو ضد المسلمين والتى اجتاحوا فيها بغداد وقضوا على الخلافة العباسية ١٢٥٨ م . لقد اعترض بركة على هذه التصرفات المغولية وطلب من قواته أن ينضموا الى الجيش المملوكى . وربما يكون ذلك سليماً ومقبولاً رغم صمت الوثائق التاريخية ، وأن بعض الكتائب المغولية التابعة للخان بركة قد أتت بموافقته لتحارب فى معركة عين جالوت قوات الخان المغولى كتبغا .إن الصراع بين خلفاء باطو زعيم القبيلة الذهبية (١٢٢٧ - ١٢٥٥ م) واليخانات فارس لم يكن بسبب الخلاف الدينى ، لأن هذا الصراع ظل فى تزايد مستمر فى عهد مانكو تيمور Mangue Timar (توفى ١٢٨٠ م) الذى خلف الخان بركه على عرش القبيلة الزرقاء ، ولم يكن مانكو تيمور هذا مسلما ، وواقع الأمر أن الاعتناق النهائى للاسلام من خانات القبيلة الذهبية كان أيام حكم جانى بك Jani Beg (١٣٤٢ - ١٣٥٧ م) ، وذلك بعد أن تحول خانات فارس إلى الاسلام .

ومن المعروف فى التاريخ أن الذاتيه والشخصيه تلعب دوراً كبيراً ، لقد كان هولاكو أول خـانات فارس ، وكان الإثنان من خلفاء المغول على منغوليا هما مونكو (ت ١٢٦٠م) وقوبيـلاى (ت ١٢٩٣م) وكان بركه ابن عمهما ، لقد كانت العلاقة بين هولاكو ومونكو حميمة للغاية . ولقد سجل المؤرخ رشيد الدين حزن هولاكو الشديد على مانكو عند وفاته ، فى الوقت الذي كانت فيه العلاقات سيئة مع بركة ولعل الترابط بين هولاكو ومونكو كان يرجع إلى عوامل شخصية ، ويوضح ذلك أن العامل الرئيسى فى القرار الخاص بتخلى مونكو عن منطقة القوقاز إلى هولاكو يرجع الى هذا العامل .

وإن محاولات هولاكو للقضاء على بركه كان يرجع الى حقوق هولاكو الاقطاعية فى الحكم ومحاولاته ليدفع به الى جنوب القوقاز قد باءت بالفشل . وأن التباين الذى فصل القبيلة الذهبية عن عالم المغول قد زاد بعد موت مونكو .

ولم يتوقف الصراع بعد موت هولاكو فى عام ١٢٦٥ م أو بعد موت بركه فى عام ١٢٦٦ م ، فلقد ظل الصراع قائماً بين أبغا Abagha خان فارس وبين مانكو تيمور (قبيلة زرقاء)، وكان الذى بدأ هذا الصراع حكام القبيلة الذهبية ، لأنه من أجل حماية حدود القوقاز ، اضطر أبغا لاقامة نظام تحصينات تتكون من سور وخندق على طول كورا Kura ، وفى ذلك إدماج لمنطقة إستبس موغان Mughan ، وهو المكان المفضل لإستراحة الطيور المهاجرة التى لعبت دوراً كبيراً فى الوضع الدفاعى - كانذار - لخانات منغوليا لأنه بتحرك العدو فى أرض الأستبس فإن تحليق هذه الطيور فى السماء يقدم التحذير الكافى لهذه التحركات . لقد كانت الاهتمامات السياسية للقبيلة الذهبية من جانب والخانات الآخرين من جانب آخر ، كانت متعارضة. ولقد بحث كل طرف منها على حليف يفوق الجانب الآخر، ولذلك تطلع مغول منغوليا الى التحالف مع خانات

فارس ، والشئ ذاته فعله بركه خان القبيلة الذهبية كما فعله مانكو تيمور وذلك بتحالف بركة وابنه مانكو تيمور مع كيوك خان منغوليا (١٢٤٦ - ١٢٤٩م) ابن أوكيتاى ، لقد أسرع كيوك الى القائد المغولى إريك بوجى Arig Boge لنجدته أو للتفاهم معه أو للقيام بعمل مشترك ، ولكنه بعد موافقة قوبيلاى ، فقد وقف بجانبه وتولى أمر الاراضى التى تتوسط وادى إيتي وشو Iti and chu وأدمجها فى الجزء الشمالى الذي يعرف حالياً باسم أفغانستان .

وهكذا أصبح مغول فارس محاطين بسلسلة من الحلفاء تفصل بين المماليك والقبيلة الذهبية ومغول منغوليا . وكانت السفارات المتبادلة بين المماليك والقبيلة الذهبية متعددة ، وكانت العوامل الجغرافية مثل العوامل السياسية فقد كان هناك محوراً بين سكان ضفاف نهر النيل وسكان نهر الفولجا .

ولم يكن من الطبيعى أن تتجنب بيزنطة الارتباط بمثلث العلاقة بين المماليك ودولتى المغول الأخرتين ولقد لفت هذا نظر الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجس الذى تولى أمر العرش البيزنطى وبادر بالاتصال بالمغول . وقد إستغل ميخائيل العداوة القائمة بين الفروع المغولية ، حتى أن كل طرف من أطراف المغول سارع بمساعدة الإمبراطورية، فقد كان كل طرف يود أن يرى نفوذه يزداد داخل الإمبراطورية البيزنطية ، وبالنسبة للعلاقات مع مغول فارس فإن ميخائيل باليولوج قد اضطر لمصاهرتهم ليأمن جانبهم ، وحتى قبل أن يستعيد ميخائيل الإمبراطورية وأثناء إقامته فى المنفى فى مدينة نيقيه ، فقد عقد حلفاً مع هولاكو أقوى شخصية بعد جنكيز خان ، وخطبت ابنة غير شرعية للإمبراطور الى هولاكو ، وبعد موت هولاكو تزوجت من إبغا إبنه وخليفته .

إن زيادة الصراع بين بيزنطة والقبيلة الذهبية كان نتيجة طبيعية لعلاقات الصداقة مع خانات منغوليا . وفي عام ١٢٥٦ تقدم الخان بركة وحلفاؤه البلغار وهاجموا الحدود الشمالية البيزنطية ،وكانت القوات المغـــولية تحت قيـــادة الامير المغولى نوجاى Noghay (ت حوالى ١٢٩٩) ، وقد ظل نوجاى لعدة سنوات الحاكم الفعلى للأقاليم الروسية الجنوبية ومنطقة الحدود مع بيزنطة . وفى حوالى ١٢٧٣ م تزوج من يوفروسين Euphrosyne وهى ابنه غير شرعية للإمبراطور ميخائيل باليولوجس ، وعلى ذلك يكون الامبراطور البيزنطى قد ارتبط بالمصاهرة مع ايلخانات فارس ، ومع خانات القبيلة الذهبية ، وبهذه المهارة الدبلوماسية أمنت الامبراطورية البيزنطية شر خطر المنافسة المغولية . ومع ذلك فإنه فى نهاية عهد الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس , فإنه نجح فى اقرار العلاقات الودية مع السلطان المملوكى قلاوون . وإن الطريق البحرى عبر البسفور قد ربط بين القبيلة الذهبية ومصر ، كان نتيجة ذلك تدفق التجارة عبر الاراضى البيزنطية ، ومزيداً من الاتصالات الدبلوماسية بين المماليك والقبيلة الذهبية .

الفصل الخامس
المغول وأوربا بعد عين جالوت

- **سفارات أرغون إلى أوربا**

أ - سفارة رابان سوما ١٢٨٧م

ب - سفارة بوسكال أف جيزولف ١٢٨٩م

جـ - سفارة اندرو وسهادين ١٢٩٠م

- **سفارات عازان إلى أوربا**

أ - سفارة جيوسكارد باستارى ١٣٠٠م

- **سفارات اولجايتو إلى أوربا**
- **نشاط البعثات التبشيرية .**
- **فكرة الحصار الاقتصادى لدولة المماليك .**

كان موقف الصليبيين فى بلاد الشام بعد عام ١٢٦٠ فى غاية السوء خاصة بعد هزيمة المغول فى عين جالوت ، لذلك بدأ الغرب الأوربى يبحث مرة أخرى عن مساعدات خارجية ، وكان إبغا خان المغول فى فارس ١٢٦٥ - ١٩٨٢ م ، صهر الامبراطور ميخائيل ، معروف بميوله للمسيحية وبذلك أصبح ابغا هدفاً واضحاً للإقتراحات السياسية . وقد شارك البابا كلمنت الرابع أفكار الملك الأراغونى جيمس الأول James 1 (١٢١٣ - ١٢٦٧م) فى الاعداد لحملة صليبية ومحالفة المغول . وقد ذهب سفيرهما جيمس ألاريك أف بريجنان James Alaric of perpig-nan الى الخان المغولى فى فارس وقد إستقبل استقبالاً رائعاً فى البلاط المغولى عند أبغا ، لعل ذلك حدث عام ١٢٦٧ ، وقد عاد الى الغرب يصاحبه إثنان من سفراء المغول . ودام الاتصال بين البابا كلمنت الرابع وأبغا بصورة مستمرة ، وفى احدى الخطابات التى أرسلها البابا الى الخان المغولى ، إشتكى البابا من أنه تسلم خطاباً من أبغا يصعب على أى فرد أن يقرأه ، وقد أبدى البابا أسفه إن الخان أيضاً لم يكتب له باللغة اللاتينية كما سبق فى مناسبات أخرى ، وهناك رسالة ودية أرسلها إبغا فى ١٢٦٧م ، أو ربما عام ١٢٧٩ خاصة بالسفراء الذين قدموا إلى البابا وهذه الرسالة محفوظة فى إرشيف الفاتيكان .

وظل ابغا على الاتصال بعدد من القادة الأوربيين ، وقد اسفرت هذه الاتصالات عن مشروع تعاون عسكرى بين المغول وأوربا ، ولكن هذا كله لم يصل الى نتائج ملموسة . ففى أول سبتمبر من عام ١٢٦٩م أبحر من مدينة برشلونه جيمس الأول ملك إراغون بأسطول قوى لإنقاذ الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام ، ولكن عاصفة قوية منعت الأسطول من مواصلة

الرحلة ، واضطر الملك والجزء الاكبر من الاسطول إلى العودة إلى بلاده ، ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير يقودة ولدان غير شرعيين للملك ، وقد وصل الأسطول إلى عكا فى نهاية ديسمبر من العام نفسه ، وقد فشلت الحملة فى إنجاز تحالف مع أبغا الذى كان مشغولا فى تلك المرحلة بالدفاع عن اقليم خراسان ضد الأمير بركه .

وفى الوقت الذى خطط فيه لويس التاسع للقيام بحملةعلى تونس عام ١٢٧٠م كان أبغا راغباً ومستعداً لمهاجمة السلطان المملوكى بيبرس ، وكان مثل هذا التعاون بين المشرق والغرب قد خطط له البابا كلمنت الرابع ، وبدا من ذلك أنه يمكن إصلاح موازين القوى التى بدت لصالح المماليك ، ولكن فشل حملة لويس التاسع عوقت الامكانات التى بدت من التحالف مع المغول فى فارس ، لأن لويس فضل القيام بحملته على تونس حيث مات هناك .

وكان إدوارد ملك إنجلترا أكثر وضوحاً فى تعامله مع المغول ، وبعد أن رسا بحملته فى التاسع من مايو ١٢٧١م فى ميناء ، عكا ، عمل على الحصول على مساعدة أبغا ، وأرسل سفارة من ثلاثة أعضاء لمناقشة شروط التعاون ، وكان نتيجة هذه المناقشات قيام جيش مغولى بلغ عدده حوالى عشرة آلاف فارس وعسكروا فى آسيا الصغرى وغزا سوريا . وقد أحرزت هذه القوات بعض النجاح ، ولكن القوات المغولية إنسحبت قبل أن تشتبك مع الجيش المملوكى الرئيسى .

ورغم هذه الأهمية المحدودة للتحالف المغولى الإنجليزى باعتباره أول تحالف بين المغول والغرب ، وبالرغم أيضاً من النجاح الظاهرى المحدود لهذا التعاون ، فإن أبغا رأى أن يقوى من هذا التعاون الانجليزى ، أما بالنسبة للملك إدوارد الذى عاد الى بلادة ليتولى عرش إنجلترا ، فإنه لم

ينس آماله فى التحالف مع إبغا ومع خليفته أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١م) ، وكلف أحد فرسان الاسبتارية الإنجليزي ويدعى جوزيف أف كانسي Joseph of Cancy ، بامداده بالتقارير اللازمه حول المغول وأحوال الأرض المقدسة .

سفارات أرغون إلى أوربا

ويتميز عهد الخان أرغون بقمة العلاقات بين المغول والغرب الأوربى ومن الأهمية أن نلاحظ أن البوذى أرغون وتحت حكمه البوذى أعلن أن الديانة الرسمية فى دولة مغول فارس لايمكن أن تقيم علاقة صداقة مع الأمراء المسيحيين كما كانت عليه فى عهد أسلافه أنصاف المسيحيين .

وأرسل أرغون أول سفارة له الى الغرب كانت الى البابا هونوريوس فى عام ١٢٨٥م ، وحملت هذه السفاره خطاباً أرخ فى مايو فى العام نفسه لايزال موجوداً بلغته اللاتينية ، وفى هذا الخطاب يشير أرغون الى المزايا الخاصة التى تلائم المسيحية وتلائمه ،

وأرسل أرغون أول سفارة له إلى الغرب وكانت إلى البابا هونوزيوس فى عام ١٢٨٥م ، وحملت هذه السفار خطاباً أإخ فى مايو فى العام نفسه لايزال موجوداً بلغته اللاتينية ، وفى هذا الخطاب يشير أرغون إلى المزايا الخاصة التى تلائم المسيحية وتلائمه ، ومع إشارة خاصة الى سلفة أحمد تكودار الذى إعتنق الديانة الاسلامية (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م) والذى فقد عرشه بسبب ذلك ، وتولى أرغون من بعده . وأن الثقه فى رسالة الاليخان أرغون قد أيدها بعض الرهبان الفرنسسيكان والدومنيكان الذين عادوا من بلاد الشام .والمهم أن فى هذه الرسالة أو فيما تلاها من رسائل مع الغرب الأوربى مايشير الى تحول أرغون عن الديانة البوذية . وإن كان البابا فى أحد خطاباته قد نصح أرغون بالدخول فى الديانه المسيحية ،

وكان البابا نفسه يعول كثيراً على هذا الأمل ، ولكن أرغون خيب أمل البابا فى هذا الجانب . وفى هذا الخطاب المؤرخ فى ١٤مايو ١٢٩٠ م إلى البابا نيقولا الرابع يقول أرغون فيه أنه ليس فى حاجة الى إعتناق المسيحية . وفى نفس الخطاب يشير أيضاً الى أن رعاياه لهم الحق فى إختيار الدين الذى يلائمهم.

سفارة رابان سوما ١٢٨٧م

مات أبغا فى أوائل شهر ابريل عام ١٢٨٢ م وخلفه على حكم المغول فى فارس أخوه تكودار Tekuder ، ويعرف فى المصادر العربية باسم بيكودار ، وقد تنصر تكودار هذا فى طفولته واتخذ اسم نيقولا ، ولكنه كان يميل الى الدين الاسلامى ، وما أن تولى العرش (١٢٨٢ - ١٢٨٤م) حتى إعتنق الدين الاسلامى واتخذ اسم أحمد ، ومع اعتناقه الديانة الاسلامية حدث تحول خطير فى السياسة المغولية ، ولكن هذا التحول كان وقتياً لم يستمر طويلاً . وقد أرسل السلطان المغولى أحمد رسالة الى السلطان قلاوون فى مصر يطلب فيها عقد معاهدة صداقة مع السلطان .

والحقيقة أن سياسة السلطان أحمد أزعجت المغول فكتبوا بذلك الى الخان الأعظم قوبيلاى فى منغوليا (١٢٦٠ - ١٢٩٤م)، فانزعج الخان وقامت ثورة بقيادة أرغون بن ابغا بمساندة من الخان الأعظم ، ولكن الخان أحمد الحق الهزيمة بابن أخيه أرغون فى بداية الأمر ، ولكن القادة الذين ساندوا الخان أحمد فى بداية الأمر تخلوا عنه فلقى مصرعه إثر مؤامرة دبرها القصر فى العاشر من اغسطس ١٢٨٤م ، وتولى ارغون عرش المغول فى فارس (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) وكان وزير أرغون سعد الدولة وهو يهودى الديانة ،

وحاول أرغون في محاولة شجاعة أن يقيم تحالفاً مع حكام الغرب الأوربي لذلك أرسل الراهب النسطوري رابان سوما Rabban mar sauma (ت ١٢٩٤م) في سفارة الى الغرب ، وقد علق عليها الخان أرغون أهمية كبيرة جداً . وكان رابان سوما مواطن صيني ولكنه تركي الأصل (من قبائل الإيجور Uighur) ، وقد أصبح ربان سوما سفيراً متجولاً للكنيسة النسطورية في المقاطعات المغولية ، وكان يرتبط مع حكام المغول بعلاقات طيبة ، وقد إختاره أرغون للقيام بهذه المهمة التي كان يصلح لها تماماً .

بدأ رابان سوما رحلته في أوائل عام ١٢٨٧ فوصل مدينة طرابيزون على الساحل الشمالي للبحر الأسود ، ومنها إتجه بحراً الى العاصمة البيزنطية القسطنطينية فوصلها في أوئل شهر ابريل من العام نفسه ، وقد إستقبله الامبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني Andronicus (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) إستقبالاً حاراً ، وأثناء إقامته في العاصمة البيزنطية زار كنيسة آيا صوفيا وبعض المشاهد الدينية الأخرى . ويرجع ذلك الى أن الامبراطور كان على علاقات طيبة مع المغول في فارس وكذلك مع مغول القبيلة الذهبية . لذلك عرض الامبراطور على ربان سوما أن يبذل أقصى مافي وسعه للمساعدة رغم إمكاناته الضئيله .

إتجه رابان سوما الى مدينة نابلي في جنوب إيطاليا فوصلها في أواخر شهر يونيه ، وأثناء وجوده في نابلي شاهد معركة بحرية بين أسطول نابلي واسطول مملكة أرغون وذلك بسبب الصراع على حكم جزيرة صقلية ، بعد وقوع المذبحة الشهيرة باسم المذبحة الصقلية ، التي وقعت في أواخر مارس ١٢٨٢م ، فأدرك ان الغرب الأوربي مشغول بخلافاته ، وأن الخصومه تسود ممالك أوربا بعد ماتعرف على أبعاد هذه المذبحة .

إتجه رابان سوما من نابلي إلى روما ، وتبين له أن البابا هونوريوس

الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧م) قد مات في الثالث من أبريل من العام نفسه ، ولم يوفق الكرادلة فى روما فى اختيار خلفاً له وذلك حتى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٢٨٨م . وعلى أيه حال فقد إستقبله الكرادلة المقيمون فى روما ، وخلال إقامته دار جدل كبير حول الديانة المسيحية ، وقد علم أن الكرادلة لايعلمون شيئاً عن انتشار الديانه المسيحية بين المغول ، كما أن هؤلاء الكرادلة قد تعجبوا لكونه يعمل فى خدمة حاكم وثنى ، وتطرق الأمر الى الحديث عن المذهب النسطورى ، وهو ما أزعج السفير رابان سوما واعتقد انه يضيع وقته فى هذا الجدل الدينى ، وأن الأحرى به وبالكرادلة أن يناقشوا الأمور السياسية الهام. وبعد أن أدى الشعائر الدينية فى الكنائس الرئيسية بمدينة روما غادر المدينة واتجه الى تسكانى Tuscany ، ومنها وصل الى مدينة جنوة حيث إستقبله أهل المدينة باحتفال كبير بعد أن عملوا بالمهمة التى قدم من أجلها وهى تحالف المغول مع الغرب الأوربى ، من أجل القضاء على الدولة المملوكية ، ومايترتب على ذلك من نتائج تجارية ، وهو الأمر الذى كان يهم أهل جنوة .

ومن جنوة إتجه الى مدينة باريس فوصلها فى أوائل شهر سبتمبر ، وكان يحكم فرنسا فى ذلك الوقت الملك الشاب فيليب الرابع الجميل ، وقد أعد الملك حرساً خاصاً ليرافق رابان سوما منذ وصوله الى العاصمة حتى القصر الملكى ، وقد تم إستقبال المبعوث المغولى إستقبالاً رائعاً حتى وصل الى حضرة الملك الذى نهضه من كرسيه ليستقبله ، فسر رابان سوما بذلك كثيراً .

وقد استمع الملك الفرنسى الى السفير ووعده بأن يتولى بنفسه قيادة حملة صليبية لتخليص الاراضى المقدسة من أيدى المسلمين ، وخلال وجود رابان سوما فى باريس طاف بأنحائها وشاهد جامعتها التى كانت فى ذروة مجدها فى تلك المرحلة .

كما زار كنيسة سانت شابل Saint chapelle ، وشاهد المخلفات المقدسة التى إشتراها القديس لويس من القِسطنطينية ، ولما حان موعد رحيل رابان سوما لمقابلة ملك إنجلترا ، عين الملك فيليب سفيراً من عنده هوجوبرت أف هلفى Gobert of Helleville ليكون فى رفقته عند عودته الى بلاط الخان أرغون ، ليعود ومعه تفاصيل التحالف مع المغول دون أن يدخل فى أيه تفاصيل أو تحديد موعد معين لبداية العمليات العسكرية ضد المماليك .

كان ملك انجلترا إدوارد الأول مقيماً فى تلك المرحلة فى مدينة بوردو وهى مدينة فرنسية تقع الى الغرب على شاطئ المحيط ، وكانت فى تلك المرحلة من أملاك ملك انجلترا ، والمعروف أن الملك إدوارد حضر الى الأراضى المقدسة فى عام ١٢٧١م على رأس حملة صليبية عندما كان أميراً ، وكان من أشد المتحمسين للحركة الصليبية والتحالف مع المغول لمواجهة القوات المملوكية .

إستقبل الملك الإنجليزى السفير رابان سوما ورفاقه بكل ترحاب وعاملهم بما يقتضيه كرم الضيافة ، وقد إستجاب الملك إدوارد لمقترحات السفير المغولى ، ولكنها كانت إستجابة ظاهرية ، وقد كان للملك خبرة فى هذا الجانب ، ولم يكن له أمل كبير فى تحالف الغرب الأوربى مع المغولى ، كما أنه كان لايأمل فى مشروع حملة صليبية جديدة ضد المسلمين .وعلى أيه حال فقد طرح رابان سوما فكرة إعداد جدول زمنى من أجل تنفيذ هذا التحالف ، ولم يتمكن الملك الانجليزى مثل الملك الفرنسى أن يحدد موعداً محدداً للقيام بحملة صليبية .

رحل رابان سوما خالى الوفاض من مدينة بوردو مثلما رحل من قبل من باريس واتجه الى مدينة جنوة فى طريقه الى روما . وقد وصل رابان سوما الي مدينة جنوه فى أواخر عام ١٢٨٧ م حيث التقى فيها المندوب البابوى الكاردينال يوحنا توسكلوم JohnTusculum ، وقد أبلغ يوحنا

السفير المغولى بأن لديه معلومات عن إستعدادت المماليك لإعداد حملة عسكرية للقضاء على البقيةالباقية من الإمارات الصليبية، وأن حكام الغرب الأوربى مشغولون بالصراعات فيما بينهم وبأمورهم الشخصية عن الاستعداد لمواجهة مثل هذا الخطر ، وقضى رابان سوما فى جنوة شتاء عام ١٢٨٧م - ١٢٨٨م) وأدرك أن أهل جنوة يفضلون العمل التجارى والدبلوماسى مع مغول فارس . وفى الحقيقة لقد كان هناك العديد من أهل جنوة فى خدمة خان فارس ، كما كان فى حاشية رابان سوما نفسه أحد الجنيويين وهو توماس أنـــفوسى Thomas Anfossi وهو عضو بارزا فى عائلة جنوية كلها من رجال الأعمال .

ومن جنوة توجه رابان سوما إلى روما ، حيث تم فى العشرين من فبراير ١٢٨٨م إختيار الكاردينال جيروم Jerome وهو لمباردى الأصل لأعتلاء عرش البابا فى روما واتخذ اسم نيقولاس الرابع ، وكان من أوائل أعمال البابا أنه استقبل رابان سوما ، وتمت المقابلة فى جو من المودة ، ولكن البابا لم يقدم للسفير المغولى مايشير الى العمل على إرسال حملة صليبية الى الشرق .وغادر رابان سوما روما ومعه حاشيته فى ربيع عام ١٢٨٨ م بعد أن سمع من الحديث مالا يقنعه ، بعد أن طاف بالمدينة وزار مشاهدها .وقد حمل من الهدايا الكثير وبعض المخلفات الدينية التى أهداها البابا للخان أرغون ، وبعض الرسائل التى لاتخدم قضية التحالف المغولى الأوربى ، وبعد ما أدرك أن لدى حكام أوربا مايشغلهم عن القضية الصليبية .

وفى ربيع عام ١٢٨٨ إتخذ رابان سوما طريق العودة الى الخان أرغون ومعه العديد من الرسائل الباباوية ومعه بعض الايطاليين والفرنسيين ، وكان فى حاشيته جوبرت أف هلفى سفير الملك الفرنسى فيليب الرابع الى الخان أرغون ، وكان معه أيضاً من رجال الدين روبرت اف سنلسSenlis Robert of ووليم اف بروير س Broyeres، William of ، ومع هذه

السفارة كان الأمل فى إقامة تحالف مغولى أوربى خاصة أنه حوالى ذلك الوقت كان هناك العديد من الجاليات الأوربية تعيش فى مدينة تبريز . وقد إشتغلت هذه الجاليات بالتجارة خاصة مع البندقية وجنوة ، ومع هذه الجاليات كانت البعثات التبشيرية من جماعات الفرنشيسكان والدومنيكان . وكان الأمل فى هذه الجاليات والبعثات التبشيرية إقامة جسور الصداقة بين الغرب والمغول فى فارس ، وظهرت بعض الأسماء الأوربية فى السفارات التى ذهبت الى إوربا من بلاط الخان وإليه . ومن خلال هؤلاء السفراء ظهر خلط فيما أنجزوه . وظهر فى الوثائق بعض الأسماء التى تولت أمر بعض السفارات ، ولكن هذه الأسماء لم تذهب فى سفارة ما ، وماكتب لايعدوا أن يكون ترشيحاً أو فكرة لم تنفذ ، وبذلك اخترعوا من الاحداث أو شوهوها ، ويتضح ذلك من أحد الخطابات التى أرسلها البابا نيقولا الرابع الى أرغون وهى مؤرخة فى الثانى من ابريل عام ١٢٨٨م ، وفى هذه الرسالة مايفيد ان البابا إعتقد أن أرغون سوف يعتنق المسيحية فى مدينة القدس عندما يستولى عليها الصليبيون من المسلمين .

ومع عودة رابان سوما الى الخان أرغون خاب أمل الأخير فى الغرب الأوربى ، ولم يصدق النتائج التى عاد بها رابان سوما ، واقتنع الخان أن مايظهره الغرب الأوربى من التعلق بالاراضى المقدسة لايتعدى القول لاالفعل ، خاصة أن المبعوث الفرنسى جوبرت أف هلفي لم يكن بوسعه أن يفسر أو يقدم شيئاً للخان أرغون .

سفارة بوسكال أف جيزولف

لم ييأس الخان من هذه النتائج ، وأعد سفيراً آخر فى شهر ابريل ١٢٨٩م للتوجه الى ملك فرنسا فيليب الرابع ، كان هذا السفير جينيوى الأصل أقام فى بلاد فارس لمدة طويلة ، ويبدوا أنه أحد الرهبان أو رجال الأعمال ، ويعرف هذا السفير بإسم بوسكارل أوف جيزولف Buscarel of Gisolf ، وقد حمل هذا السفير رسائل الى الملك الفرنسى فيليب

الرابع، والى الملك الأنجليزى ادوارد الأول والى البابا نيقولا الرابع .

وفى الرسالة التى كتبها أرغون الى ملك فرنسا والتى لازالت محفوظة فى دار المحفوظات الوطنية فى باريس وقد كتبت باللغة المغولية يقدم فيها أرغون عرضاً مؤكداً بضرورة الاشتراك بحملة عسكرية مع ملك فرنسا ضد المماليك يكون موعدها عام ١٢٩٠م ، وأنه سوف يتجه الى مدينة دمشق لفتحها فى مطلع ربيع هذه العام ، وطلب أرغون من الملك الفرنسى أن يرسل اليه قواته فى الوقت المناسب ، وإذا نجحت الحملة المغولية الفرنسية فى الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ، فسوف تصبح المدينة من أملاك الملك الفرنسي . وهناك إضافه إلى الرسالة الموجهة الى الملك فيليب لعل بوسكارل قد أضافها ، تفيد أن خان المغول أرغون سوف يتكفل بامداد الملك الفرنسى بحوالى عشرين أو ثلاثين الف فارس دون مقابل أو بثمن معقول ، والمهم هنا أن رد الملك الفرنسى فيليب غير معروف لدينا وسوف توضح السطور التالية مايمكن أن يكون عليه رد الملك الفرنسى.

اتجه المبعوث المغولى بوسكارل الى الملك الإنجليزى إدوارد فى لندن فوصلها فى الخامس من يناير عام ١٢٩٠ م . وقد قضى المبعوث فى البلاط الإنجليزى حوالى إسبوعين وحوالى اسبوعاً خارج البلاط حيث عومل معاملة طيبة ، والواقع أن الرسالة التى أرسلت الى ملك إنجلترا قد فقدت أما الرد على هذا الخطاب ، فيتلخص فى أن الملك إدوارد يرغب فى اللحاق بالحملة المغولية ، ولكن هذا الأمر يتعلق بالبابا نفسه.

ومن الصعب أن نقرر عما إذا كان المبعوث المغولى قد عاد الى أرغون أو أنه أطال مده إقامته فى الغرب ، فمن الواضح أن هناك إشارات الى وجوده فى أيطاليا فى أواخر عام ١٢٩٠ م ، فقد ورد إسمه فى بعض الرسائل البابابوية يوصى فيها البابا الملك إدوارد الإنجليزى بمبعوث الخان أرغون .

سفارة أندرو وسهادين ١٢٩٠م

عاد بوسكال بإجابات لاتبشر بخير ، ولعل ذلك مرجعه الى إنشغال الملك الفرنسى بأموره الداخلية وإنشغال الملك الأنجليزى بأمور أسكتلندا وويلز ، وتأثر مركز البابوية بنتائج المذبحة الصقلية التى وقعت فى أواخر مارس ١٢٨٢ م .

ورغم هذا كله فإن الخان المغولى لم ييأس ، وأرسل سفارة جديدة على رأسها أثنان من المسحيين المغول هما أندرو زاكان Andrew Zagan وسهادين Sahadin . وقد توجه المبعوثان فى أول الأمر الى البابا فى روما حيث إستقبلهم إستقبالا طيباً ، وقد حملهم البابا الرسائل اللازمه الى الملك الإنجليزى إدوارد الذى إعتبره البابا أشد حماساً واهتماماً بالأراضى المقدسة . وقد وصل المبعوثان الى الملك الإنجليزى فى بدايات عام ١٢٩١ م ، ولكن إهتمامات الملك بأمر ويلز وإسكتلندا كانت أكثر بكثير من إهتمامته بالاراضى المقدسة والتحالف مع المغول ، فعاد المبعوثان خالياً الوفاض الى روما ليبلغا البابا بالنتائج الفاشلة التى توصلا اليها ، ومكثا بعض الوقت حتى انهما قضيا فصل الصيف فى ايطاليا .

وخلال هذه المرحلة كان مصير بقايا الامارات الصليبية قد تحدد بالحملات التى قام بها الاشرف خليل بن قلاوون ، وذلك على عكس ماكان يعتقد أنه فى ربيع عام ١٢٩١ م سيقوم تحالف مغولى أوربى لاستعادة الاراضى المقدسة من المسلمين ، ولكن الحال تبدل ومات أرغون فى العاشر من مارس من العام نفسه (ربيع الأول من عام ٦٩٠ هـ) وإنشغل كل من ملك إنجلترا وملك فرنسا بأمورهما الخاصة ، وبذلك عجز البابا عن توجيه نداء لمثل هذا التحالف .

وتشجع الاشرف بالاستيلاء على ماتبقى من الامارات الصليبية بالشام ، فقد كان السلطان قلاوون قد إستعاد طرابلس فى عام ١٢٨٩ م . وحاصر عكا واستكمل إبنه الاشرف إسقاطها فى ابريل

١٢٩١م ، ولعل فى كل هذا ماشجع الاشرف على إعلان الجهاد ضد مغول فارس بعد موت خانهم أرغون وتولى أمرهم أخوه كيختو Caikhatu) ابن ابغا (١٢٩١ ١٢٩٥ م) . وقد نجحت القوات المملوكية فى هزيمة المغول والاستيلاء على قلعة الروم ، ولكن الحروب المملوكية المغولية لم يتسع نطاقها كثيراً فى تلك المرحلة ، وسرعان ماقتل كيختو على يد رجاله لفساده ، وقد تولى بعده بايدو Baidu ابن عم كيختو ولكنه حكم عدة أشهر وقتل فى الرابع من اكتوبر عام ١٢٩٥ م على أيدى غازان بن أرغون الذى وتولى حكم مغول فارس (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م)

سفارات غازان الى أوربا

يعتبر غازان أكثر حكام المغول فى فارس موهبة ، وعندما تولى السلطة وضع سياسة معينه للتعامل مع المسلمين ، كما أن فترة حكمه تتميز باتصال تجاوز الحد مع المسيحية ، وفيما يتعلق بمسألة العقيدة الدينية فقد كان رجلاً متحضراً إلى أبعد الحدود لأنه لم يخلط بين العقيدة الدينية وبين السياسة ، وقد كان غازان يعتبر أن المماليك هم الأعداء الألداء .

ان كثير من الخلافات التى وقعت فى كلا المعسكرين المغولى والمملوكى دعت غازان الى غزو بلاد الشام . ففى الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٢٩٩ م وعلى بعد أميال قليلة من مدينة حمص إنتصر المغول على المماليك . وقد إستسلمت مدينة حمص ودمشق وفى نهاية ١٣٠٠ م لم تكن هناك قوة مملوكية عسكرية فى بلاد الشام .

وكان لهذا الانتصار المغولى رد فعل كبير فى اوربا وتفاعل حكامها بالكثير ، فقد وصلت الأخبار الى أوربا أن الخان غازان قد إستولى على كل بلاد الشام ومصر أيضا وأنه أعاد الأراضى المقدسة الى جماعة فرسان الداوية والإسبتارية ، وأنه وضع الضريح المقدس فى حماية جماعة الرهبان الدومنيكان . وسرت الشائعات فى أوربا أن غازان قد صك عمله

عليها صورة الضريح المقدس ، وأن علامة الصليب قد وضعت على أعلام غازان . ومن الشائعات أيضاً ماورد بها أن سقوط الأراضى المقدسة يرجع الى تعاون عسكري بين المغول وحكام الامبراطورية البيزنطية وملكى قبرص وأرمينيا . والحقيقة أن الجانب الذى ينسب إلى اوربا فى هذا الموضوع قد بولغ فيه بقدر كبير جداً وينافى الحقيقة ، ولكن هناك بعض الحقيقة حول هذه المساعدة ، وترجع هذه الشائعة الى أنه فى عام ١٣٠٠ - ١٣٠١ م ارسل هنرى الثانى لوزنجيان ملك قبرص عام (١٢٨٥ - ١٣٢٤ م) بعض قطع الاسطول يساعده فى ذلك جماعة فرسان الداوية والاسبتاريه وهاجموا مدينه رشيد حيث وقعت بعض المناوشات .

والحقيقة أن التعاون القبرصى المغولى ينسب إلى المبعوث المغولى زولس بوفتى Zolus Bofeti ، ويعـــــرف باســـــم إيزول البيزى Isol the Pisan ، وكان لهذا المبعوث مكانه فى حاشية غازان ولذلك أرسله على رأس سفارة الى هنرى ملك قبرص . وقد ذكر إيزول البيزى أن اولجايتو أخ غازان قد تنصر ، وأن إيزول كان الأب الروحى له عند التعميد أن الجايتو هذا قد شارك فى الحملة التى إتجهت الى رشيد .

سفارة جيوسكارد باستارى

لم يكن ايزول هو الوحيد الذى تحدث عن مجد وانتصارات غازان ، ففى عام ١٣٠٠ استقبل البابا بونيفاس الثامن فى كنيسة اللاتيران جيوسكارد باستارى Guiscard Bastari وهو من أصل فلورنسى كمبعوث من الخان غازان تصاحبه حاشية من مائة رجل وكلهم فى زى المغول . ولأسباب ليست معروفة لدينا حتى الآن ، فإن الخان غازان لم يحاول ان يحتفظ بالأراضى التى فتحها فى ببلاد الشام ، ففى نهاية مايو عام ١٣٠٠ م تمكن المماليك من استعادتها مرة اخرى ، وان انسحاب المغول من بلاد الشام لايعود الى عدم إهتمام غازان بالقضية. لقد عاد غازان الى بلاده في فبراير من عام ١٣٠١ م دون أن يشتبك فى معركة رئيسية

وكـان إنســحـاب غـازان يرجع إلى أنه لم يكن لديه القـوات الكافـيـة للإشتباك مع المماليك . ومعنى ذلك أنه يرجع للبحث عن حلفاء أوربيين لمشروع حملته ، وان تقدمه إلى بلاد الشام يكون قد فعل كل مابوسعه للبقاء على علاقات الصداقة مع أوربا مثلما كان الحال عليه من قبل مع أسلافه .

وأرسل غازان سفارات عديدة الى البابا والى الملك الفرنسى فيليب الرابع والى الملك الانجليزى إدوارد الأول ، ويقال أن البابا بونيفاس الثامن استقبل بعض السفراء فى عام ١٣٠٢ ، وانهم قد تنصروا فى روما ، وان البابا أرسل معهم تاجاً من الذهب ليقدموه الى الخان غازان حتى يغفر الله له خطاياه ، ويساعده لكى يقود المسيحيين الى بلادالشام.

وبالاضافة الى ذلك فقد أرسل غازان خطاباً الى البابا بونيفاس الثامن فى ابريل عام ١٣٠٢ م وأشار فيه غازان الى موضوع التعاون المغولى الأوربى ، وفى هذا الخطاب حث غازان البابا على إعداد القوات لمهاجمة القوات المملوكية وترك للبابا تحديد الموعد المناسب . ولازال هذا الخطاب محفوظاً بلغته المغولية ،

وقد احضر هذا الخطاب الى البابا ثلاثة مبعوثين بأسماء اسلامية. ولقد إستغل الجنيويون سنوات الاضطراب التى أعقبت وفاة أرغون وظهر اسم بوسكارل فى رسالة كتبها الملك الانجليزى إدوارد يرجع تاريخها إلى الثانى عشر من مارس ١٣٠٢ م ، وقد حملها بوسكارل ، وجاء فيها أن الملك يولى أمر الأراضى المقدسة أهمية خاصة وانه يلقى باللوم على الحروب الدائرة بين دول أوربا . وقد أرسل إدوارد سفارة أخرى كان من بين أعضائها جوفرى أف لانجلز Geoffrey of langles ونيقولا أف شارتر Nicholas of Chartres وقد سافروا فى صحبة بوسكارل .وفى عيد القيامة عام ١٣٠٣ م زار بعض المبعوثين من المغول مدينة باريس ،

وكان هدف هؤلاء المبعوثين الاتصال ببعض حكام أوربا من أجل التحالف معهم لمحاربة المماليك .

وظل غازان أيضاً على إتصال بالملك جيمس الثانى ملك أرغون ، وقد عبر الملك عن فرحته فى مايو عام ١٣٠٠ م ، واعتبر أن ماقدمه غازان يعتبر كرم كبير منه فى مساعدة أوربا لقتال المسلمين وإستعادة الفرنج لمدينة بيت المقدس . كما إرتبطت غازان بروابط المودة والصداقة مع الامبراطور البيزنطى اندرنيقوس الثانى ، وكان التحالف بين الامبراطورية والمغول مفيداً للإمبراطوريه المهددة بالغزو من جيرانها عن إستفادة المغول منه ، وقد كلل هذا التحالف بزواج الخان غازان من ابنه غير شرعية للإمبراطور اندرونيقوس ، ولكن مشروع التحالف نفسه لم يسفر عن شئ لأن غازان مات بعد قليل .

أولجاتيو وأوربا

وخلف غازان اخوه اولجايتو Oljeitu (١٣٠٤ - ١٣١٦ م) وقد سار أولجايتو على سياسة أخيه الودية مع الغرب الأوربى . وقد كتب اولجايتو إلى فيليب الرابع ملك فرنسا خطاباً فى صيف عام ١٣٠٥ م . وفى هذا الخطاب ركز أولجايتو على قيام العلاقات الودية التى كانت مزدهرة بين أسلافه مع الفرنجة ، وقدم الخان الخطوط العريضة لمشروع تحالف ضد الذين يعملون على تخريب التفاهم الدولى ، وهم المماليك .

وقد كتب على ظهر الرسالة المغولية تعليق من أحد المعاصرين الايطاليين ، وهذا التعليق يقودنا الى معلومات دقيقة ، أو ربما الى إقتراح محدد ، أم كانت هذه التعليقات هى رساله شفوية حملها مبعوث الخان ؟ ومن هذا التعليق يتضح أن الخان يقترح إقامة سلام يعم العالم بأسره . وطبقاً لرأى آخر أن خلف هذا السلام الشامل يكون هناك تحالف ضد المماليك ، وهذا الرأى الأخير يمكن قبوله . ولكن إذا كان ذلك هو

المقصود بالسلام فلماذا لايذكر ذلك صراحة ويكون لدينا شواهد ثابتة على هذا الاقتراح الواقعي ، ولكن مثل ذلك لم يرد في الخطاب الأصلي المغولي ولا في التعليق الايطالي على الوثيقة .

ولعل ماورد في الخطاب . يقصد به إقامة سلام عام مع الغرب الاوربي ، لأنه في الوقت الذي كتب فيه هذا الخطاب كان فترة هدوء مؤقت بعدحرب دامت لمدة نصف قرن قادها المغول في جميع الانحاء ، وقد أضعفت هذه الحروب من قوة الامبراطورية المغولية . وحول هذا السلام الداخلي في الامبراطورية المغولية فقد أشار أولجايتو إلى ذلك في أحد خطاباته الى الملك فيليب الرابع ، وليس تحت أيدينا حتى الآن وثيقة ورد بها رد الملك الفرنسي ، لإن الخطاب يتعرض الى عبارات عامة .

ومرة أخرى نجد أحد سفراء المغول وهو ايطالي يدعى توماس أوجي اف سينا Thomas ugi of Siena الذي زار ورفاقه بعض ملوك أوربا حيث استقبل إستقبالاً طيباً ومن بين هؤلاء ملك إنجلترا . وكان الملك ادوارد الثاني قد خلف والده ادوارد الأول الذي مات في يوليو ١٣٠٧ م والمعروف أن ملك انجلترا قد أرسل على الأقل خطابان الى الخان أولجايتو . وكان أحد هذين الخطابين قد كتب في نورثهامبتون Northampten في منتصف اكتوبر ١٣٠٧ م وليس من الصعب أن نستنتج أن الملك إدوارد الثاني قد إستقبل خطاباً مطابقاً لما تسلمه فيليب الرابع .

وكان الخطاب الثاني الذي أرسله ادوارد كتب في لانجليي Langley في الثلاثين من نوفمبر ١٣٠٧ م . وفي ذلك امر يدعو للغرابة وانها وثيقة تدعو للدهشة ، وتظهر أن من نقل الرسالة من أولجايتو الى الملك قد حرف في بعض العبارات التي أدت إلى تغيير القواعد السياسية للعلاقات مع الخانات . لقد كان في خطاب إدوارد هجوماً وحقداً على المسلمين ، وقد طلب أولجايتو محو ذلك من الخطاب ، وهذا يوضح بعض التلاعب في نصوص الوثيقة . ولايمكن ان نتصور أن الملك إدوارد الثاني

إعتقد أن أولجايتو كان مسلماً ، ويكون بذلك قد ارتكب خطأ كبيراً بذكر مثل هذه العبارات التى تسئ الى الاسلام ، ويقع الشك على توماس ، ويلاحظ أن فى تعامل توماس مع البابا لم يقدم له أى إنطباع عن أن أولجايتو كان مسيحياً .

وفى خطاب كتبه البابا كلمنت الرابع فى مدينة بواتو ويرجع تاريخه الى أول مارس ١٣٠٨ ، نلاحظ أنه لم يرد بالخطاب أى إشارة ضد المسلمين ، وبدلاً من ذلك نجد أن البابا يخبر الخان أولجايتو برضاه التام عن المساعدة التى يقدمها ، واذا كان لأحد أن يصدق الحقائق التى أشير اليها فى إجابة كلمنت ، دون أن يعبث بها المبعوث توماس ، ويضع فيها من خياله ماشاء ، فإن أولجايتو قد عرض أن يقدم عشرين ألف حصان ، وعشرين ألف حمل قمح ، ويتبع ذلك مائة ألف من الفرسان الذين يقودهم الخان .

وكان للأهمية التى أظهرها البابا كلمنت الرابع فى إقامة تحالف عسكرى مع المغول لها عبقريتها ، لقد ارسل البابا الى المورخ الارمينى هيتوم Hetoum ابن ملك أرمينيا يطالبه بأن يعد مذكرة عن الطريقة الملائمة للتحالف مع المغول . وقد أعد هيثوم كتاباً الى البابا فى أغسطس ١٣٠٧م أى قبل إجابة البابا على رسالة أولجايتو . ويعتبر هيثوم أحد أفراد الاسرة الأرمينية الحاكمة وكان مع المتحمسين جداً للتحالف مع المغول ولتتدخل الغرب فى البلاد الشرقية . وجاء فى هذا الخطاب ، الخطوط العريضة التى قدمها هيثوم لأستعادة الاراضى المقدسة وهو يقول « أنه بالنسبة لى الذى يعرف أهداف المغول جيداً ، فإننى اعتقد وأؤكد أن المغول يرغبون دون نقاش وبدون أيه نفقات أو دون أى نوع من انواع التبعية ، إنهم سوف يسلمون المدن والأراضى التى تفتح الى المسحيين ، وذلك بسبب شدة حرارة الصيف فى المنطقة ، وأن المغول لايرغبون فى البقاء فى هذه المناطق . وأنهم سوف يوافقون على أن يتسلم

المسيحيون الأراض المقدسة بكل ترحاب ، وأن المغول لايخوضون الحرب ضد سلطان مصر من أجل كسب إقليمى بعدما أصبحت كل آسيا خاضعة لهم ، ولكن لأن السلطان يعتبر العدو الرئيسى لهم ، وأنه أنزل بهم ضرراً أكثر من أى شخص آخر .

لم يكن البابا كلمنت الخامس أول مسئول أوربى يتصور إمكانية إستعادة الأراضى المقدسة ، بمساعدة المغول ، لقد أقام الملك الأراغونى جيمس الثانى إتصالات مع أولجايتو ولعله أرسل فى عام ١٣٠٧م سفيره بطرس ديسبورتس Peter Desportes الى الخان . وفى هذا الخطاب أراد الملك جيمس أن يستفسر عن الطريقة التى يمكن إرسال قواته بها الى الشرق وكيفية إمدادها ، وفى هذه الرسالة أيضاً طلب أن يكون للمسيحيين الحق فى دخول الأماكن المقدسة أحراراً . ويتضح من نغمة هذا الخطاب أنه سبق هذا الخطاب خطابات أخرى ، ومن الملاحظ أنه لايوجد خطابات سابقة أولاحقة مع أولجايتو لهذا الخطاب قد ظهرت حتى الآن ، وهذا مايعقد المسألة الى حد ما .

ويكون من الأهمية بمكان إضافة معلومات عن العلاقات الأراغونية مع المماليك أعداء المغول ، وفى الاتصالات التى قام بها جيمس الثانى ملك أراغون مع السلطان المملوكى محمد الناصر نلاحظ انه لايوجد بها أى إشارة الى المغول ، وأنه من الممكن أن يقدم جيمس الثانى الى أولجايتو مايساعد على إفساد مفاجئ للعلاقات الأراغونية المملوكية ، لأن الاتصالات الدبلوماسية الأراغونية والمملوكية قد توقفت فى الفترة من ١٣٠٦ وحتى ١٣١٤ م ،

وهناك كلمة يجب أن نسجلها عن الزيادة المطردة فى العلاقات التجارية بين امبراطورية المغول وبين الغرب الأوربى خاصة مايميز عهد الخان أولجايتو . لقد كانت كل التجارة تقريباً فى أيدى التجار الإيطاليين ، وما لدينا من مادة تاريخية يعتبر قليلاً . ولقد ظهرت بصفه

رئيسية فى أنحاء الغرب الأوربى معلومات عن الأحوال الداخلية لدولة الخان وعن الصين أيضاً ، حيث أقام العديد من التجار الأوربيين أسواقاً كبيرة هناك . لقد ظل النشاط التجارى مرتبطاً فى معظم الأوقات بالأحداث السياسية ، ولكن من المعروف أن هذه التجارة ارتكزت على النفوذ التجارى الذى زاد وإعتمد على السلام الدائم . لقد ظلت الطرق التجارية مفتوحة ، والدليل على ذلك أن المعاهدات التجارية وإتفاقيات القناصل ، ربط بعض الجمهوريات الايطالية مع دولة المغول .

لقد كان هناك دائماً آلية لإقامة القضاياالخاصة بالتجارة ، كما هو واضح فى قضية أو حالة الحاج سليمان ، وهو أحد مواطنى تبريز الذى حكم له فى عام ١٣٢٢م بسبب مالحق به من خسائر ألحقها به أحد البنادقة ، وكان قيمة التعويض أربعة آلاف بيزنط .

قد استمر كثير من هذه التجارة فى أراضى الامبراطورية المغولية بعد سقوطها ، وتواصلت هذه التجارة حتى وقت تيمور خان القبيلة الذهبية أى حتى الفترة من ١٤١٠ - ١٤١٢ م .

ورغم الطرق البحرية فإن الطرق البرية الداخلية للتجارة ظلت هى الأسرع والمفضلة للوصول إلى شرق آسيا . وقد وضح عن ذلك بجلاء يوحنا أف مونت كورفينو John of Monte Corvino ، وهو أحد الخبراء فى شئون الطرق البحرية ، وقد ذكر أنه بالنسبة للطرق الى الصين ، فيمكن القول أن الطريق الى شبه جريرة القرم (التى أطلق عليها أرض القوط) تخضع لخان المغول الشماليين أى القبيلة الذهبية ، وهى أقصر الطرق وأكثرها أمناً ، وعن طريقها يمكن للرهبان أن يسلكوها مع حاملى الرسائل فى مدة طولها خمسة أوسته أشهر ، أما الطريق البحرى فهو طويل ومحفوظ بالمخاطر ، وأن هذا الطريق بالإمكان أن يستغرق عامين لاتمام الرحلة . ولكن الطريق البرى لايكون آمناً فى كل الأوقات بسبب الحروب التى تقع فى تلك المناطق .

لقد كان يوحنا آف مونت كورفيتو متشائماً اكثر من اللازم ، لأن الطريق البرى ظل هو الطريق العملى فى عام ١٣٣٨ م . حينما إستخدمه مبعوثو طوغان تيمور Toghon Ttemur خان المغول فى منغوليا (١٣٣٢ - ١٣٧٠ م) وهم فى طريقهم الى أفنيون Avignon ، وفى سفارة عكسية كان على رأسها يوحنا دى مارينولى John de Marig-nolli ماورد بها أن الخيول التى إستخدمتها هذه السفارة قد أحدثت إحساسا غريبا فى بلاط منغوليا ، وساعدت على إستعمال الطريق البرى ، وعملت ايضاً على احياء الطريق البحرى الى حد ما .

وفى الخطاب الذى قدمه بوحنا دى مارينولى فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٣٠٧ الي الملك إدوارد الثانى يوصى فيه بإرسال بعض البعثات الي أولجايتو . وكان من ضمن هذه البعثة وليم أسقف مدينة اللد Lydda ، والمعروف أن وليم كان أسقفاً إسمياً ، وان هدفه الرئيسى كان التبشير بالمسيحية بين المسلمين الذين يعيشون فى الأراضى المغولية .

نشاط البعثات التبشيرية

لقد أشرنا من قبل الى وجود بعض الرهبان والفرنشيسكان فى مدينة تبريز ، وفى نهاية القرن الثالث عشر أصبح للفرنشيسكان قدماً راسخة فى دولة الخان ، ويبدوا أن نشاطهم كان روحياً ، ولم يظهر منهم أنهم قدموا عرضاً من آجل التحالف بين المغول وأوربا .

لم يكن هناك للفرنشسكان دوراً فى دفع عملية التحالف لاستعادة بلاد الشام ، وانهم دون شك قد أخذوا زمام المبادرة فى اتاحة الفرصة لاتساع باب الرهبانية فى آسيا ، ان أعظم الجهود المبكرة والناجحة قد تمت فى الأراضى التى تحكمها القبيلة الذهبية لأن هؤلاء الفرنشيسكان قد دخلوا أراضيها عبر أراضى هنغاريا وأراضى القفجاق .

وفى بلاد المغول كانت البعثات التبشيرية ذات نفع كبير للإتصال المستمر مع الصين لتوسيع مجال نشاطها ، لقد ذهب يوحنا أف مونت كورفينو الى الشرق حوالى ١٢٨٠ م ، ولابد أنه عاش لبعض الوقت فى فارس قبل أن يعود الى روما فى عام ١٢٨٩ ، وان المعلومات التى قدمها يوحنا عن الحالة التى يعيشها المغول كان بها تفاصيل كثيرة ، وكانت هى السبب الذى دفع البابا نيقولا الرابع أن يرسله مرة أخرى الى الخان أرغون ، كما توغل بعد ذلك الى بلاد الصين .

ومن بين الرسائل التى حملها جماعة الفرنشيسكان كان من بينها ماأرسل الى الخان أراغون ، وخطاب آخر يرجع تاريخه الى الثالث عشر من يوليو عام ١٢٨٩م ، وهو موجه بالاسم الى الخان العظيم قوبيلاى (١٢٦٠ - ١٢٩٤ م) ، الذى كان إسمه معروفاً للبابا . وان هذه الوثيقة جعلت الأمر واضحاً لنا ، ويتضح فيه رغبة حكام المغول فى اقامة تحالف مغولى مسيحى دائم ، وان المعلومات المتاحة لنا عن الأحوال الداخلية والأحوال الجغرافية للمغول كانت تحت أيدى حكام الغرب الأوربى ،

لقد ترك يوحنا اف مونت كورفينو مدينة تبريز فى عام ١٢٩١م ولم يعد ، فلقد مات بعدأن أصبح رئيس أساقفة فى مدينة بكين . ولم يكن رحيلة نهاية نشاط جماعة الفرنشيسكان أو الدومنيكان فى نواحى فارس . ولقد أقام لأخوان الرماديون Friars Minor مراكز للقساوسة فى امبراطورية المغول . ففى الشمال استقامت الاسقفيات فى أراضى القبيلة الذهبية ، وفى الصين ، وفى القسطنطينية وطرابيزون وتبريز . وأنه من الأهمية أن نلاحظ أن البابا إطلع على حقيقة أن المركز الرئيسي للمغول يوجد فى ضواحى الصين ، وعلية أن يساند أسقفيات الصين ، وعلى كل القساوسة أن يعملون بنشاط داخل الامبراطورية المغولية ، كما أن

هؤلاء القساوسة يعملون فى أراضى متأخمة للغرب مثل شبه جزيرة القرم وبلاد فارس .وفى عام ١٣١٨ م أقام البابا يوحنا الثانى والعشرين أول رئاسة للأسقفية فى امبراطورية المغول وكان مقرها مدينة سلطانية وهى العاصمة الجديدة لمغول فارس ، وكان أول من تولى هذا المنصب الدومنيكانى فرانسيس اف بروجيا Froncis of Perugia وقد خلفه فى منصبه فى عام ١٣٢٣ م . وليم آدم William Adam , وكان من المتحمسين للقيام بعمل عسكرى جديد ضد المماليك . وفى عام ١٣١٨ م عين وليم آدم مساعد اسقف فى سلطانية ، وبعد ذلك ولمدة قصيرة تولى منصب الأسقف فى مدينة أزمير ، وفى السادس من أكتوبر من عام ١٣٢٢ عين لمنصب رئيس أساقفة سلطانية ، وفى السادس والعشرين من اكتوبر ١٣٢٤م نقل الى مركز أسقفية إنتفارى Antivary الواقعة على ساحل دالماشيا ، وفى عام (١٣٣٧ م)كان آخر عهدنا بوليم آدم ، ولعله مات قبل ديسمبر عام ١٢٤١م عندما عين خلفاً له .

فكرة الحصار الاقتصادي لدولة المماليك

وفى خضم الأحداث التى اقترنت بطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، وإحساس العالم الأوربى بالمهانة التى لحقت به، ظهرت موجه من الدعاية تولى أمرها بعض رجال الدين المثقفين المتعصبين للحروب الصليبية. وقد نادى هؤلاء ببعض الأفكار ووضعوا عدة مشاريع رآوا فيها إمكانية استعادة الأراضى المقدسة .

ومن هؤلاء الراهب الفرنسكانى فيدنتشو أوف بادو Fidenizo of Pa-duo الذى كتب فى عام ١٢٩١م كتاباً أهداه إلى الباب نيقولا الرابع Nicholas IV (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) . ويشتمل هذا الكتاب على دراسة

قيمة عن تاريخ بلاد الشام والجيش الصليبي المطلوب لاستعادة الأراضى المقدسة، والطرق التى على الجيش أن يسلكها .

ومن هذه المشاريع أيضا التقرير الذي كتبه الراهب ثاديوس Thaddeus فى عام ١٢٩٢م، وقد حوى هذا التقرير أخبار سقوط مدينة عكا فى أيدى المسلمين ، مع نداء حار إلى البـاب وحكام أوربا لإعداد حملة صليبية لتخليص الأراضى المقدسة .

أما الداعية الجنوى جلفانو أف ليفانتى Galvano of Levanti فقد وضع كتاباً فى عام ١٢٩٤م ، وأهداه إلى الملك الفرنسى فيليب الرابع Philip IV (١٢٨٥ - ١٣١٤م) . ولكن هذا الكتاب لا يتجاوز بعض الانطباعات والعظات ، وجاء خالياً من الأفكار العملية التى تؤدى إلى استعادة الأراضى المقدسة .

ومع هؤلاء يأتى المبشر رامون لول Ramon Lull ورغم أن شهر رامون بلغت القمة باعتباره من الزهاد، إلا أنه في الوقت نفسه يعتبر من رجال السياسة العلمانيين . وقد انتهى من كتابه فى عام ١٣٠٥ ، وبه كثير من التفاصيل والأفكار حول المنهج العلمي لاستعادة الأراضى المقدسة. وقد ركز على رجال الدين الذى عليهم أن يبذلوا الجهد الكبير لإعداد حملة صليبية يتولى أمرها ملك محارب تعمل تحت إمرته كافة الطوائف الدينية العسكرية، مع اتخاذ جزيرتى رودس ومالطة قاعدتين عسكريتين لطرد المسلمين من أسبانيا، والاستيلاء علي الساحل الافريقى من تونس حتى مصر، كما نادى أيضاً بالاستيلاء على القسطنطية واتخاذها طريقا إلى بلاد الأناضول ثم إلى بلاد الشام.

وإلى جانب هؤلاء يأتى بطرس ديبسوPeter Dubois وهو من رجال القانون الفرنسيين ، إذ نادى ببعض الإصلاحات الاجتماعية والكنيسة، وقيام الملك فيليب الرابع بقيادة حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة.

أما عن تمويل هذه الحملة فقد طالب بانتزاع أملاك الداوية وفرض الضرائب على رجال الدين .

وفى فرنسا أيضاً ظهر المستشار الدبلوماسى وليم نوجارت Willim Nogaret الذى قدم فى عام ١٣١٠ م تقريرا عن حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة ، وركز على أن تقوم البابوية بتقديم ما لديها من أموال دون تردد ، والقضاء على هيئة فرسان الداوية ومصادرة أموالها لاستغلالها فى هذه الحملة .

كذلك شاركت أرمينية فى تلك الدعوة عن طريق المفكر والمؤرخ الأمير هيثوم أف كوريكوس Hethum of Corycus . وجاء في كتابة الذى ظهر فى عام ١٣٠٧م خلاصة موجزة عن تاريخ الشرق الأدنى الإسلامى وأحوال الدولة للملوكية ، وأوصى بضرورة قيام حملة صيلبية برية وبحرية تتخذ من قبرص وأرمينية قاعدتين للعمليات العسكرية لاستعادة الأراضى المقدسة بالتحالف مع المغول وبمساعدة الأرمن .

وإذ نكتفى بهذه القائمة نأتى إلى الحديث عن الدبلوماسى البابوى وليم آدم William Adam ، وهو الشخصية التى نركز عليها فى هذا الحديث. وقد ولد وليم آدم حوالى عام ١٢٧٥، فى أقليم لانجدوك Languedoc الذى يقع فى الجزء الجنوبى الشرقى فى فرنسا ، ودرس اللاهوت فى كوندوم Condom فى عام ١٣٠٢ م . ثم سلك طريق الرهبانية فى جماعة الدومنيكان . وفى عاتم ١٣٠٥م أختاره البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤م) فى بعثة إلى الشرق ، فذهب إلى القسطنطينية ومنها إلى آسيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام. ثم عاد إلى أوربا فى عام ١٣١٣م فى وقت كانت تتردد فى أوربا فكرة الإعداد لحملة صليبية ، ولكن هذه الفكرة لم تتحق . وقد قام وليم بعد ذلك برحلة إلى الشرق بتكليف من البابا ، فاتجه إلى خان مغول فارس أولجايتو خدا بنده محمد (١٣٠٤ - ١٣١٧م) ، كما قام بعملية التبشير بالديانج المسحية

على المذهب الكاثوليكي فى فارس، ثم سافر إلى الهند ثم إلى اليمين وجال في تلك الأنحاء حتي وصل إلى أثيوبيا. والحقيقة أن هذا الترحال كان في غاية الأهمية بالنسبة لوليم آدم والأفكار التى دونها حول مشروع إعداد حملة صيليبية لاستعادة الأراضي المقدسة. وعاد وليم إلى مدينة Avignon مقر البابوية الجديد فى تلك المرحلة ، ولكنه لم يبق فيها سوى فترة قصيرة ، لأن البابا يوحنا الثانى والعشرين John XXII (١٣١٦ - ١٣٣٤م) أنشأ كرسيا أسقفيا فى مدينة سلطانية ، التى اتخذها أولجايتو عاصمة لمغول فارس بعد مدينة تبريز فى الأول من ابريل ١٣١٨م ، فأرسل فرنكو دى بروجيا Franco di Perugia ليتولى منصب أول رئيس اساقفة لهذا المقر الجديد ، ومعه وليم آدم وآخرون بمثابة مساعدين لرئيس الأسقفية. وقد سافرت المجموعة كلها سويا إلى سلطانية.

على أن وليم أدم عاد فى عام ١٣٢٢م إلى مقر البابوية في أفنيون حيث عينه الباب فى منصب رئيس أسقافة مدينة سلطانية خلفاً لسلفه فرانكو دى بروجيا . وفى العالم التالى (١٣٢٣م) كلفه البابا للقيام ببعثة من أجل وحدة الكنيسية الكاثوليكية فى أرمينية . وليس من المعروف لنا أ كان وليم قد قام بهذه المهمة أم لا ، لأنه كان موجودا فى مدينة أفنيون فى عام ١٣٢٤م ، ثم عين في العام التالى (١٣٢٥م) فى منصب رئيس أساقفة مدينة انتفارى Antivari التى تقع على ساحل دالماشيا، وظل في منصبه هذا حتى مات فى عام ١٣٤١م.

وقد وضع وليم آدم بعض الكتب الخاصة بالطقوس الدينية ، بالاضافة إلى كتابه الذى يعنينا فى هذه الدراسة وهو De Mode Saracenos Extripandi ، أي كيفية اقتلاع جذور المسلمين ، وقد حوى هذا الكتاب

العديد من الأفكار العسكرية والسياسية والدينية والاقتصادية التى من شأنها استعادة الأراضي المقدسة محور هذا البحث .

وكان وليم آدم قد طاف بمنطقة واسعة متعددة الحضارات ، تشمل الإمبراطورية البيزنطية ، وجزيرة خيوس Chios ، وهي جزيرة كبيرة تقع إلى الغرب من مدينة أزمير ، بالإضافة إلى اسيا الصغرى، كما زار خليج البسفور ومدينة القسطنطينية. وقد تحدث عن هذه المناطق وسواحلها ومنتجاتها الزراعية ومواردها المختلفة ووصفها وصفا دقيقا للغاية .

كذلك تحدي وليم عن مقابلته لبعض البحارة الجنوبين ، ومنهم سيجورانوس سلفاتشى Seguranus Salvatici ، وهو من الدين كانوا يتولون نقل المؤن إلى مصر ، ويرفعون علم مصر على سفنهم حرصاً علي سلامتهم . أما مقوماته عن مصر والشام فهى قليلة ، ويبدو أنه دون معلوماته عن مصر من خلال ما سمعه عنها .

ومن الواضح أ وليم آدم كان موجودا فى بلاد فارس فى عهد الباب كلمنت الخامس في الوقت الذى ترددت الشائعات فى أوربا حول إرسال حملة صليبية إلى الشرق أى حوالى ١٣١٣ - ١٣١٤م ، ثم أنه اتجه بعد ذلك جنوباً بعد أن دون كتابه - في حوالي عام ١٣١٦ - ١٣١٧م - حتى وصل إلى الهند حيث باشر الدعوة للديانة المسيحية مدة تزيد عن عام ونصف . وقد طاف بالأقاليم وتعرف على أخشاب أشجارها التى تصلح لبناء السفن مثل خشب النتك والصندل . كذلك كان وليم على معرفة تامة ببحر فارس - الخليج العربى - والجزء التى يقع عند مدخله الجنوبى . وقد ذكر أنه سار من شمال إيلخانية فارس حتى جنوبها ، حيث قام بعملية الدعوة للديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، كما تجول فى بعض سقطرى Socotara كما كتب عن إثيوبيا . وقضى فى تلك

المناطق حوالى تسعة أشهر ، مما جعله على معرفة تامة بمواقع بعض الجزر الموجودة فيها ، مثل جزيرة هرمز ، وجزيرة ديف Dive .

وبعد هذا العرض للأماكن التى زارها وليم آدم ، والتى كان لها أكبر الأثر على كتاباته ، ننتقل إلى المشاريع التى قدمها أو سجلها لاستعادة الاراضي المقدسة . والحقيقة أن كافة الأفكار التى وردت فى كابات أصحاب المشاريع الصليبية فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى كانت أفكارها نظرية وبعيدة عن الواقع العملى إلى حد كبير ، لأن هذه الأفكار اعتمدت فى أساسها على وجود تفاهم بين كافة حكام أوربا من أجل استعادة الأماكن المقدسة فى بلاد الشام ، مما يسهل قيام تحالف فورى بينهم لضرب مصر ، باعتبارها القوة الرئيسية التى اجتثت الإمارات الصليبية من بلاد الشام . ولكن وليم أدم خرج عن هذه القاعدة ، فذكر أن العقبة الرئيسية فى القضاء على مصر تكمن فى أوربا نفسها وترجع إلي إنشغال الغرب بأمور الداخلية ، وإلى صراع الدول الزؤربية مع بعضها البعض ، وإلى مطامع بعضها في تحقيق مكاسب خاصة ، ولذلك فإنه يرى أنه لا سبيل للقضاء على القوة المملوكية فى مصر غير العناية الإلهية التي ربما تتدخل لتمكين الغرب الأوربى من انتزاع القبر المقدس من أيدى المسلمين . وللك قدم وليم أدم بعض النصائح إلى الباب وحكام أوربا حول إعداد حملة عسكرية أو القيام بأعمال أخرى من شأنها العمل على استعادة الأراضى المقدسة .

وفيما يتعلق بقيام الغرب الأوربى بإعداد حملة عسكرية لضرب الدولة المملوكية قدم وليم آدم أفكاراً تمهيدية يجب الأخذ بها قبل الشروع فى أي عمل عسكرى ضد مصر ، ووضع هذه الأفكار فى أربع نقاط رئيسية.

أولاً : يجب التعامل بكل شدة مع الأفراد أو الهيئات أو الدول التى

تساعد مصر وتمدها بالدقيق والمواد الحربية وكافة المستلزمات الخرى، لأن هؤلاء لا يطبقون مبدأ الحصار البحري الذى نادت البلابوية بفرضه علي الموانىء الإسلامية ، ومن هؤلاء القطلان والبنادقة والبيزيين والجنوية، كما أنهم لا يبالون بقرارات الحرمان من رحمة الكنيسة التى تفرضها البابوية ضد المتعاملين مع المسلمين ، خاصة الدول المملوكية .

ثانيا : يطالب وليم أدم قبل القيام بأي حملة عسكرية ضد مصر بضرورة قيام دول غرب أوربا بالاستيلاء على مدينة القسطنطينية. وركز على أن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصليبيين ، كما أن الأمبراطور البيزنطى يرتبط بروابط الود والصداقة مع سلطان مصر ، ويعمل على إمداد مصر بالمؤن فى أوقات الشدة. وبقيام اللاتين بغزو القسطنطينية والاستيلاء على أراضى الإمبراطورية البيزنطية يتم تحويل الشعب البيزنطى الأرثوذكسى المذهب إلى شعب كاثوليكى المذهب، ويدخل فى تبعية كنيسة روما .

ثالثا : يجب منع خان مغول القفجان أو تتار القرم من التعاون مع مصر ضد مغول . فارس الذين يسعون إلى التحالف مع الدول الأوربية والباباوية لضرب الدولة المملوكية .

رابعاً : يطالب وليم آدم بإعداد أسطول أوربى تكون مهمته السيطرة على موانى البحر المتوسط ، كما يقوم أسطول آخر يتم إعداده فى موانى بحر الهند بإغلاق مضيق هرمز ، وكذلك مضيق باب المندب، وذلك لإيقاف الحركة التجارية بين موانى البحر المتوسط ، وموانى الشرق الأقصى التى تتدفق عن طريقها على مصر بضائع وغلات الشرق عبر ثغر عدن . ويرى أيضاً أنه يجب تحويل طريق التجارة ليكون فى أيدى الأوربيين بحيث تنقل بضائع الشرق عبر مضيق هرمز إلى الخليج الذى تسيطر عليه القوات المغولية ، ثم إلى نهر الفرات ، ومنه إلى موانىء

دولة أرمينية ، والمقصود هنا مدينة أياس .

وبعد أن حدد وليم آدم الخطوط العريضة للأفكار التى من شأنها إحكام الحصار البحرى على مصر من الشمال والجنوب للأضرار بمصالحها التجارية التى تشكل الدخل الرئيسى للدولة المملوكية فى تلك المرحلة ، قام بتحديد السبل التى من شأنها وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ.

وفيما يتعلق بالدول أو السفن أو الأفراد الذين يتعاملون مع مصر تجارياً ولا يبالون بالقضية الصليبية ولا يخشون قرارات الحرمان التى تصدرها البابوية ، يطالب وليم آدم باستباحة دمائهم ومصادرة ممتلكاتهم وبيعها علناً، وتخصيص العائد من بيعها للحركة الصليبية وإنقاذ الأراضى المقدسة . كذلك طلب باستباحة سلب أو الاستيلاء على حمولة السفن التى تتعامل مع مصر دون خوف من أحد . ويرى أنه من أجل ضرب هؤلاء المتعاملين مع مصر يجب إعداد مجموعة من السفن تكون مهمتها التجول فى مياه البحر المتوسط لملاحقة السفن الخارجة عن القانون .

كذلك طالب بحرمان كل السفن التى تتعامل مع المسلمين فضلاً عن السفن الإسلامية من التعويضات التى يقدمها مكتب الضمان الجنوى. وكان هذا المكتب يقدم تعويضاً لكل المسلمين واليهود الذين تتعرض بضائعهم للخسائر وهى محمولة على ظهر السفن الجنوية، بشرط ألا يكون الضرر قد وقع من إحدى الدول التى هى فى حالة حرب مع جمهورية جنوة.

ويرى وليم آدم حرمان الدولة المملوكية من. الأوال التى تدخل خزانتها من عائد عملية الحج التى يقوم بها المسيحيون الأوربيون إلى الأراضى المقدسة ، وذلك بمنع الحج تماماً إلى القدس، لأن الرسوم التى يقدمها هؤلاء الحجاج تمثل دخلاً كبيراً لخزانة الدولة المملوكية . وأضاف إنه يمكن

التحكم فى عملية الحج التى يقوم بها المسيحيون الأوربيون إلى الأراضى المقدسة ، وذلك بمنع الحج تماما إلى القدس ، لأن الرسوم التى يقدمها هؤلاء الحجاج تمثل دخلا كبيرا لخزانة الدولة المملوكية . وأضاف أنه يمكن التحكم فى عملية الحج عن طريق قبرس أثناء رسو الحجاج فيها وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس . كذلك نادى بانزال العقاب بكل من يساعد هؤلاء الحجاج سواء بالسفن أو الاستضافة ، وطالب كذلك بتطبيق هذه العقوبات على كل من يقوم بنقل البضائع والرقيق إلى مصر أو يقوم بالوساطة بين الإمبراطور البيزنطى وخان القفجاق وبين سلطان مصر .

ولما كان وليم آدم يرى أن عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسية غير كافية لمنع التجار الأوربيين المتعاملين مع مصر، فقد طالب البابوية بإعداد بعض السفن المسلحة ووضعها تحت تصرف حكام جزيرة خيوس، لأنهم من الحكام الأقوياء المدافعين عن المصالح الأوربية الصليبية، وخاصة أن موقع هذه الجزيرة من الأهمية بمكان لوقوعه على الطريق البحري بين القسطنطينية والإسكندرية، وباستطاعة حاكم هذه الجزيرة قطع الاتصال التجاري بين مصر من جهة وبين خان القفجان والإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى. وركز وليم آدم على ضرورة غزو القسطنطينية وخصص لذلك جانباً كبيراً من كتاباته، واعتبر هذا العمل حجر الزاوية لأي مشروع لضرب المصالح الاقتصادية.

وقد سجل وليم بعض الآراء التي عزز بها وجهة نظره لغزو الإمبراطورية البيزنطية، منها أن تبدأ أوربا بغزو آسيا الصغرى حتى تكون على اتصال بري بتلك الانحاء قبل غزو بلاد الشام، لأن غزو بلاد الشام قبل غزو آسيا الصغرى يجعل القوات الصليبية محاطة بالأتراك والعرب من كل جانب. وذكر وليم أنه إذا كانت الغاية النهائية لكل هذه الأعمال هي السيطرة على مصر، فإن السيطرة على آسيا الصغرى لابد أن تبدأ من القسطنطينية لاتخاذها نقطة ارتكاز لاستكمال فتح آسيا

الصفرى. ولم يستبعد وليم آدم رغم هذا كله الحلول السلمية لاحتواء الإمبراطورية البيزنطية وضمها إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية. وطالب البابا بمحاولة إقناع حكام بيزنطة باعتناق المذهب الكاثوليكي، أما إذا فشل البابا في ذلك فإن السلاح يصبح الحل الأمثل، خاصة أن هناك تعاوناً كبيراً بين الإمبراطورية والجنيوية.

وفي الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية، أنحى آدم باللائمة عليها وذكر أنه يجب معاملة البيزنطيين بمنتهى الشدة، وركز على أنه لا يمكن سيطرة أوربا على بلاد الشام دون الهيمنة على الإمبراطورية البيزنطية التي تتألف مع مصر والتي تقع إلى الشمال منها. وتصور أنه من السهولة السيطرة عسكرياً على بيزنطة من أجل تسخير ثرواتها لخدمة القضية الصليبية، وأنه بالإمكان بعد ذلك اتخاذ الطريق البري عبر هنغاريا إلى بلاد الشام، وهو طريق اسهل من الطريق البحري. وحول هذا الصدد روى وليم أنه إذا كان على أوربا أن تحارب المسلمين، فعليها أولاً إعادة الأبن الضال أي الإمبراطورية البيزنطية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية.

وبالإضافة إلى ذلك عدد وليم آدم ما ذكرته المصادر الصليبية عن الاضرار التي لحقت بالحملة الصليبية الأولى بسبب موقف الإمبراطورية البيزنطية من جودفري Godfery، وذكر قصة الدقيق المخلوط بالجير الذي باعه البيزنطيون للصليبين - وهو هنا يقصد ما سجل عن بعض أحداث الحملة الصليبية الثانية، واغتصاب آل باليولوج Polaeologus لعرش الإمبراطورية البيزنطية. والمراد هنا عودة أسرة باليولوج لحكم بيزنطة في عام ١٢٦١م، والقضاء على حكم اللاتين. والحقيقة أن وليم آدم عدد مساوئ كثيرة للأباطرة البيزنطيين خاصة موقفهم من توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وأفرد لها صفحات طوال.

وتبقى نقطة أخيرة في هذا البحث وهي التي تتعلق بوقف تدفق البضائع القادمة من الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والخليج. فالحقيقة أن فكرة القيام بحصار مصر بحرياً كانت من الأفكار التي ساندتها البابوية قبل عام ١٢٩١م من أجل الإبقاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام، أو بعد سقوط هذه الإمارات من أجل استعادتها مرة أخرى. ومن المعروف أن بقاء أو قيام هذه الإمارات كان مرهوناً بموقف القوى الإسلامية المحيطة ببلاد الشام خاصة مصر، ونذكر على سبيل المثال الأفكار التي نادى بها الرحالة والمفكر مارينو سانودو Marino Sanudo، ولكنه قصر أفكاره على حصار مصر اقتصادياً من ناحية البحر المتوسط فقط.

ومن الواضح أن وليم آدم كان أول من نادى بحصار مصر اقتصادياً عن طريق الجنوب والشمال أي عن طريق الخليج ، وباب المندب من جهة والبحر المتوسط من جهة أخرى، لأنه استهدف إغلاق طريق باب المندب في وجه التجارة القادمة إلى مصر بحراً من الشرق الأقصى. وقد أدرك وليم مسبقاً صعوبة تنفيذ ذلك المشروع باعتباره مشروعاً غير مسبوق، لذلك نراه يقدم بعض المعلومات التي استند إليها لتنفيذ هذه الفكرة، فذكر أن بعض الجنوبيين حاولوا تنفيذ جانباً من هذا المشروع لأسباب تجارية. وبفضل مساعدة خان مغول أرغون Arghun (١٢٨٤ - ١٢٩١م) فإن هؤلاء الجنوبيين قاموا بإعداد سفينتين في بغداد، وكانوا يودون تسيير هذه السفن في نهر الفرات - ولعله يقصد نهر دجلة - ومنه تسير إلى المحيط الهندي عبر الخليج. ولكن هذا المشروع لم يستكمل بسبب بعض الخلافات التي قامت بين هؤلاء الجنوبيين.

وعندما عرض وليم هذا المشروع ذكر أن شواطئ المحيط الهندي مملوءة

بأشجار التك والصندل التي تصلح أخشابها تماماً لبناء السفن. وقال أنه يجب أن يتم ذلك بعيداً عن أعين التجار المسلمين سكان مدينة عدن الذين يتولون أمر الملاحة في البحر الأحمر. واقترح أن توضع هذه السفن في جزيرة هرمز، ولعله يقصد جزيرة قشم التي كانت ضمن أملاك الدولة المغولية في فارس، أو في جزيرة أخري أسماها ديف Dive، أو إقامتها على الساحل الهندي. ولعل في اسم ديف تشابه مع جزر الكارديف أو مالديف ولكن الأخيرة تبعد كثيراً إلى الجنوب، لأن عبارة وليم تفيد أن جزيرة ديف قريبة من جزيرة هرمز. وأشار أيضاً إلى أنه بالإمكان إعداد هذه السفن على الساحل الغربي للهند في مدينة تانا Tana وهي بومباي حالياً، أو في مدينة كامباي Cambay وهي تحمل الاسم نفسه حتى الآن، أو مدينة كولوم Colom وهي كولومبو حالياً التي تقع في جزيرة سيلان حيث تنمو بكثافة أشجار التك والصندل. ويضيف وليم أنه إذا تم إعداد ثلاث سفن أو أربع فإنه بالإمكان غلق فتحة باب المندب ومراقبة السفن القادمة من الهند إلى البحر الأحمر، وستكون هذه بمثابة عوائق تسد المدخل إلى البحر الأحمر، وفي هذه الحالة يمكن استغلال جزيرة سوقطرة أيضاً.

وأشار وليم إلى أن سكان الجزر التي أشار إليها مسيحيون وأنهم يكرهون المسلمين ويفضلون التعامل مع السفن المسيحية، ولذا فإنهم سوف يساعدون السفن المزمع إعدادها للرسو في موانيهم. أما فيما يتعلق بالتجار الذين يعملون على ظهر السفن من الهند إلى عدن، وهم الذين سماهم وليم بالمهربين، فإنهم يجهلون أصول الحرب البحرية وليس لديهم سفن لحمايتهم، وإذا ما تعرضوا للهجوم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وإنهم يصدون سهام الأعداء القراصنة البحريين بدروع مصنوعة

من القش أو سعف النخيل.

كذلك رأى وليم آدم ضرورة وجود ميناء صالح قريب من هذه المواقع حتى تلجأ إليه سفن الحراسة للقيام بعملية الصيانة الموسمية، ومن أجل تخزين البضائع التي يتم الاستيلاء عليها. وأختار لذلك الجزر الموجودة في مدخل الخليج عند مدينة هرمز باعتبارها المكان المناسب للرسو، وهي آمنة كذلك لتبعيتها لخان مغول فارس الذي يسعى جاهداً لضرب التجارة المصرية وإذا تعذر الحصول على موافقة الخان فإنه يمكن البحث عن مكان آخر مثل أرخبيل ديف على وجه التحديد.

كذلك تحدث وليم عن مسألة تسليح السفن وإمدادها بالمقاتلين، وقال أنه يلزم لذلك إعداد حوالي ألف ومائتين من الرجال، وإن هذا أمر متروك للقائد الذي سيتولى قيادة هذه السفن. أما تمويل هذه السفن فأمر يتولاه البابا من حصيلة صكوك الغفران، أو من أثمان السلع التي تصادر من التجار الذين يتاجرون مع مصر.

هذه هي الأفكار الرئيسية التي قدمها وليم آدم للقضاء اقتصادياً على الدولة المملوكية، وما يتبع ذلك من القضاء عليها عسكرياً، ويمكن تلخيص هذه الأفكار في النقاط التالية:

١ - وضع الموانى المملوكية - خاصة مدينة الإسكندرية - تحت الحصار الاقتصادي الأوربي.

٢ - إنزال قرار الحرمان من رحمة الكنيسة على جميع التجار الذين يتعاملون مع مصر.

٣ - إعداد السفن اللازمة لمراقبة حركة التجارة في حوض البحر المتوسط ومعاقبة من يتعامل مع مصر ومصادرة سلعه.

٤ - وقف حركة الحج الأوربية إلى الأراضي المقدسة لحرمان الخزانة المصرية من الأموال التي يدفعها الحجاج للدولة المملوكية.

٥ - الاستيلاء على مدينة القسطنطينية، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية باعتبارها دولة مارقة على الدين المسيحي، وكانت دائماً تقف موقف الخيانة من القضية الصليبية، فضلاً عن أنها مرتبطة بمصر اقتصادياً، بالإضافة إلى قيامها بدور الوسيط في نقل التجارة بين مغول القفجاق وبين مصر.

٦ - قطع طريق التجارة التي ترد من الشرق الأقصى، وذلك بغلق مضيق باب المندب بالسفن الحربية.

٧ - تحويل التجارة القادمة من الشرق الأقصى إلى الخليج ومنها إلى نهر الفرات ثم براً إلى دولة وموانى أرمينية.

والحقيقة أنه كان لأفكار وليم آدم صدى كبير في أوربا، فقد عارضها البعض، ومن هؤلاء فيليب الخامس Philip V ملك فرنسا (١٣١٦ - ١٣٢٢م)، ورأي أن في إعداد مثل هذه الحملات فرصة لقيام البابا بجمع الأموال واستخدامها في أغراض أخرى. ولكن يبدو أن البابوية اهتمت بهذه الآراء، وقام البابا يوحنا الثاني والعشرون بالإعداد لحملة وجهتها القسطنطينية، وأسند هذا العمل إلى روبرت ملك نابلي Robert of Naples (١٣٠٧ - ١٣٤٣م). على أن هذه الحملة فشلت ولم تتجه إلى القسطنطينية.

على أنه إذا كانت أفكار وليم آدم لم تجد من ينفذها في عصره، فإنها وجدت في العصور التالية، سبيلاً لتحقيق بعضها من خلال الكشوف الجغرافية.

خاتمة

المغول والإسلام

تعتبر امبراطورية المغول اكثر الامبراطوريات إتساعاً عرفت فى تاريخ العصور الوسطى ، والتى امتدت من كوريا حتى بولندا ومن طنكين Tonkin الى سواحل البحر المتوسط . وكان قيام المغول مثل أى امبراطورية أخرى إعتمدت على أصولها القبلية . لقد استمرت امبراطورية المغول لفترة ليست قصيرة ، ووضعت بصماتها على العديد من الأجيال التى تلتها ، والحقيقة أن قيام امبراطورية المغول ظهر فى أوقات عصيبة حيث كانت الإمارات الصليببية فى بلاد الشام وما لذلك من علاقات عسكرية بين الشرق والغرب . ومايعنينا فى هذا الفصل العناصر التى تعاملت مع المغول فى منطقة الشرق الأدنى وفى بلاد الأناضول .

وقبل القرن الثالث عشر الميلادى كان المغول معروفين بالكاد الى جيرانهم فى الصين ومنتصف آسيا ولبعض التجار القلائل ولبعض البعثات التبشيرية والنساطرة . وكانت فكرتهم حول النظم الاجتماعية وطرق الحياة مختلفة قليلاً عن القبائل التركية الأخرى . وفى عام ١٢١١ - ١٢١٢ م سقطت شمال الصين بما فيها مدينة بكين فى ايدى القوات المغولية ، كما أن سيطرة المغول على حدود ووسط آسيا جعلتهم على اتصال مع الدولة الخوارزمية . وفى عام ١٢١٩ - ١٢٢٠ م سيطروا على خوارزم وأغاروا على ايران وأزربيجان .وفى عام ١٢٢١ م سقطت غزنه التى خربت جزئياً ، والى جانب ذلك يلاحظ أن عدداً كبيراً من المسلمين خاصة التركمان فى بلاد الأناضول قد إنصهروا مع المغول الفاتحين ، رغم أن المغول ؛كانو اقل عدداً . وعلى ذلك أن المجتمع البدوى قد فضل الحياة فى الأماكن الجديدة ، وزاد عدده ولم يعد للعمل فى الحياة الزراعية التى خربت من جراء الغزوات المغولية ، وفضلاً عن ذلك فإن المغول قد تسامحوا مع كل الاديان . ولما كان سكان البلاد فى

غرب آسيا وهى البلاد التى فتحها المغول كان يسودها الاسلام لذلك أصبحت الديانة الاسلامية هى الغالبة على المجتمعات التى أصبحت تحت السيادة المغولية وكان لذلك اثرا كبيراً على الحكومات المغولية .

ويلاحظ أيضاً أن المغول أزالوا الخط الفاصل الذى أقامه السلاجقة وهى الفصل بين العالم العربى وايران . ولقد أصبح عرب بغداد في اقليم مستقل عن ايران ولم يعد عرب بغداد هم قلب الاسلام لمجاورتهم دولة المغول فى ايران . لقد اصبحت القاهرة أو دولة المماليك فى مصر هى العاصمة الاسلامية أو العاصمة الروحية ، وأصبحت هذه الدولة المؤهلة للدفاع عن الاسلام بعد ما خرب المغول بلاد الشام . ومع دخول المغول فى بلاد الشام لعبوا دوراً كبيراً فى العلاقات العالمية نظراً للصراع الدائر بين المسلمين فى الشرق وبين الامارات الصليبية وأرمينيا التى يساندها الغرب الأوربى والبابوية . لقد كان هناك إصراراً من قبل دولة المماليك على إستئصال شأفة الصليبيين من بلاد الشام ومن هنا إرتمى الأرمن والصليبيون فى أحضان المغول لنجدتهم من الضربات الاسلامية .

وواقع الحال ان المماليك لم يهتموا إلا بدولة المغول التى قامت فى ايران والعراق وبالمسلمين فى بلاد الأناضول . لقد أقام دولة أيلخانات فارس ، خلفاء هولاكو بعد موته فى عام ١٢٦٥م. وكانت مدينة تبريز فى أول الأمر عاصمة الدولة وبعد عهد أولجايتو انتقلت الى مدينة السليمانية (كانجولان) Kangwlan وظلت مزدهرة فى شمال ايران . وقد تميزت هذه الدولة بعداوتها مع دولة مغول روسيا ، وهى التى عرفت باسم القبيلة الذهبية ، على العكس مع الامبراطورية البيزنطية التى ساد الوئام بينها وبين إيلخانات فارس . وقد تعاون الاثنان ضد القبيلة الذهبية ودولة المماليك ، كما تعاون مغول فارس مع الغرب المسيحى ضد دولة المماليك ، وقد لعب الدين والاقتصاد دوراً كبيراً عند المغول لما لهما من

تأثير عالمى فى تلك العصور .

والواقع لم يكن للمغول دينا محدداً فى تلك المرحلة ، وقد تعاملوا مع كافيه الاديان بسياسة التسامح . وفى بداية الامر كان المغول يميلون الى المسيحية والى طائفة الشيعة . لأن هذه الطوائف كما رأى المغول أنهم عانوا من النظم الاسلامية القديمة ، لذلك تقربوا إلى المغول . يضاف الى ذلك دون شك أن النساطرة فى إيران وفى وسط آسيا والأرمن فى قيليقيا قد مالوا الى جانب المغول وساعدوهم ، يلاحظ أن هولاكو نفسه كان يميل الى البوذية وأن زوجته طقز خاتون كانت نسطورية ، كما أن البلاط المغولى كان به كثير من المسيحيين ، ومن جانب آخر فإن سعد الدوله وزير الخان أرغون كان يهودياً وقد ظل كذلك دون أن يكتشف أمره.

رغم هذا كله فإن المغول قد اعتنقوا الاسلام فى النهاية ، ولعل ذلك مرجعه الى أن تكودار بن هولاكو (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م) قد اعتنق الاسلام بأمل أن تنتهى الحروب التى دارت بين المغول والمماليك ، ولكن ذلك قد كلفه حياته ، فقد ثار عليه زعماء المغول وقتلوه . ولكن غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) قد إعتنق الديانه الاسلامية دون خطر أو مشاكل وقد سار على نهجه كل خلفائه .

لقد كان هناك أسباباً عديدة لاعتناق المغول للديانه الاسلامية أو بمعنى آخر لانتشار الاسلام بين المغول ، لقد كان للمحيط الدينى الاسلامى الذى وجد بداخله المغول عاملاً كبيرا ، ولكن يجب ألا نغالى فى أهمية هذا العامل ، لأن الأقلية المنتصرة من العرب مع ظهور الاسلام لم يعتنقوا ديانه الأغلبية المهزومة ، وانما يمكن القول أن ذلك يرجع الى

لقد تحول إلى الاسلام مغول القبيلة الذهبية قبل خانات فارس ،وقد أوجد ذلك حاجزاً بينهم وبين السكان الروس الذين كانوا خاضعين فى البداية لإمارات إقطاعية لم يتول المغول إدارتها مباشرة ، وإذا كنا سوف نهتم بتأثير المواطنين الأصليين ، ففى الحقيقة يجب أن نهتم بقبائل التركمان إذا أردنا أن نشرح أو نفسر ظاهرة انتشار الإسلام بين المغول . ففى بلاد الشام وفى إيران كانت أعداد التركمان أكثر من المغول ، وكان هؤلاء التركمان يعتنقون الإسلام ، ولما كان هؤلاء التركمان والمغول لهم طريقة واحدة فى الحياة ، فإن ذلك جعل التركمان يمتصون المغول فى وقت مبكر ، ولذلك إعتنق المغول الإسلام فى وقت مبكر .

لقد أصبح المغول مسلمى العقيدة وابقوا على حقوق الأقلية غير الاسلامية ، لقد كافحوا لكسبهم الى صفوفهم من أجل الكسب الدبلوماسى للممالك المسيحية . لقد نظر المماليك نظرة الشك للمغول الذين تحولوا الي الاسلام ، وان غازان الذي تحول إلى الاسلام قد قام بغزوات عديدة فى بلاد الشام واتخذ الوزير رشيد الدين الذى تحول الى الاسلام وزيراً له . وبالأضافه الى ذلك فإن بعض المغول قد تحولوا الى الديانه الاسلامية على المذهب السني والبعض الآخر على المذهب الشيعى ولما كان هولاكو يعتقد فى النجوم فقد كان نصيراً وحامياً للعالم الشيعى، الخوارزمى الكبير نصير الدين الطوسى وأقام له مرصداً فى مدينة مراغة ، وبذلك استعاد الشيعة مكانتهم التى فقدوها منذ قرنين مضت . وكان فى ذلك مقدمه لعلو شأن الشيعة منذ القرن السادس عشر الميلادي فى بعض المناطق مماجعل ايران دوله اسلامية شيعية وانعزلت عن بقية العالم

الاسلامى ، وخاصة عن جارتها ، الدولة العثمانية التى سارت على المذهب السنى .

وكان التأثير الدبلوماسى لسياسة التسامح الدينى التى إتبعها المغول كبيراً . وكانت لها أهمية كبيرة على العلاقات المغولية مع الغرب . لقد كانت رؤية الغرب للمغول عندما . ظهروا على الساحة الحربية والسياسية مختلفة تماماً ، فلم ينزعج الأوربيون من الخراب الذى أنزله المغول بالشعوب الاسلامية وغير الاسلامية . وكانوا يرون أن المغول هزموا المسلمين المجاورين لهم ، وفى ذلك فائدة للصليبيين ويعد إنتصاراً لهم . وان الصليبين الذين تلقوا هذه المعلومات من النساطرة والمسيحيين فى أواسط آسيا ، أدركوا مغامرات المغول وسيطرتهم لعلها تكون مفيدة للمسيحيين .

وان هؤلاء الذين تحالفوا من الأرمن فى قيليقيا كانوا يميلون الى مشاركة المغول فى موقفهم ، وهو الموقف الذى تبناه بيت هيثوم ، والأبعد من ذلك فإن أسطوره الكاهن يوحنا ساندت هذا الموقف ، ومن المعروف أن هذه الأسطورة قد ظهرت فى القرن الثانى عشر ، وهنا تذكر الغرب هذه الأسطورة كما تزكرها النساطرة والصليبيون فى الامارات الصليبية بالشام ، لقد كان هناك بعض النساطرة بين المغول ، وقد مارسوا شعائرهم وكانو مقربين من السلطات المغولية ، يضاف الى ذلك ما كان هناك من بعثات تبشيرية .

لقد تزامن تقدم المغول الى غرب آسيا مع انهيار الروح الصليبية وانشغال الغرب الأوربى بأموره عن الصليبيين ، وان ماقام به بعض الرهبان من البعثات السياسية قد فشل هو الآخر ، وفى النهاية أرسل

البابا إنوسنت الرابع الى المغول عبر روسيا الراهب الفرنشيسكانى يوحنا اف بيان دى كاربين ،والراهب الدومنيكانى وليم رويروك عبر الأناضول ولقد كانت إجابة المغول محيرة ، فقد كان الخان نشوان بالنصر وطلب خضوع جميع ملوك وأباطرة أوربا بالإضافة الى البابا ، ولكن الوضع اختلف بعد موقعة عين جالوت ١٢٦٠م ، وبعد عين جالوت بدأ المغول فى البحث عن حلفاء ، ولذلك قاموا من جانبهم بإرسال السفراء الى البابا كلمنت الرابع فى عام ١٢٦٧م والى جيمس الأول ملك أراغون فى عام ١٢٦٩م ، والى مجلس ليون الكنسي فى عام ١٢٧٤ م يقترحون القيام بحملة مشتركة ضد العدو المشترك وهو المسلمين ، وهى الحملة التى كان يستحيل إمدادها بالقوة الكافية لصعوبة المسافة والمشاكل الداخلية للبلاد الأوربية . لقد تحمس البابا نيقولاس الرابع للفكرة ، وقد حمل فكرة المغـــول مـــار يابا هالا Mar Yabhaha الثالث الذى زار جنوة ، وملك فرنسا ، وملك انجلترا ، وظل التشاور بين المغول وأوربا حتى عهد غازان ولكن هذا التشاور لم يتعد الخطابات والبعثات . وبعد عهد غازان فإن التشاور كان بين البابا يوحنا الثانى والعشرين وابى سعيدالذى كان قد عقد السلام مع المماليك ، ثم مالبث أن زالت دول المغول ، وبقيت الدول الاسلامية والاسلام .

الجداول والخرائط

أ - الجداول

ب - الخرائط

خانات المغول

(بيت أوكيتاي وطولوى)

منغوليا

	تاريخ تولى العرش
جنكيز خان	١٢٠٦
أوكيتاي	١٢٢٧
توراكينا (وصية)	١٢٤١
كيوك	١٢٤٦
اوغول قيميش (وصية)	١٢٤٩
مونكو	١٢٥١
قوبيلاي	١٢٦٠
اولجايتو	١٢٩٤
كيولوك	١٣٠٧
بويانتو	١٣١١
كه كُن	١٣٢٠
يسّون تيمور	١٣٢٣
راجي بقا	١٣٢٨
جياغاتو	١٣٢٨
كويتنالا	١٣٢٩
رينجن بال	١٣٣٢
طوغان تيمور	١٣٣٢ - ١٣٧٠

بيت جغتاي باقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية

جغتاي	١٢٢٧
قراهولاكو	١٢٤١
يسّو منكو	١٢٤٧
قراهولاكو للمرة الثانية	١٢٥٢
الكَو	١٢٦١
مبارك شاه	١٢٦٦
براق خان	١٢٦٦
نيكباي	١٢٨١
توقا تيمور	١٢٧٢
ذوورا خان	١٢٩١
قونجوق خان	١٣٠٦
تاليقو	١٣٠٨
كِبك خان	١٣٠٩
اسن بغا	١٣٠٩
كبك خان للمرة الثانية	١٣١٨
ايلجي كداى	١٣٢٦
دووا تيمور	١٣٢٦
علاء الدين ترماشيرين	١٣٢٦
جنكشي (جنكاشاي)	١٣٣٤
بوزون	١٣٣٤

اسن تيمور	١٣٣٨
محمد	١٣٤٢
قازان تيمور	١٣٤٣
دانشمندجه	١٣٤٦
بويان قولى	١٣٤٨
شاه تيمور	١٣٥٩
تقلق تيمور	١٣٥٩ - ١٣٧٠

حاز تيمور تلك البلاد

خانات فارس
١٢٥٦-١٣٥٣

فارس

هولاكو	١٢٥٦
ابغا	١٢٦٥
احمد تكودار	١٢٨٢
ارغون	١٢٨٤
كيختو	١٢٩١
بايدو	١٢٩٥
غازان محمود	١٢٩٥
اولجايتو خدا بنده محمد	١٣٠٤
ابو سعيد بهادر	١٣١٧
اربا كماون (معز الدين)	١٣٣٥
موسى	١٣٣٦

انقســام فــارس بين اســرات عـديدة امــثـال الجـلائريين والمظفــرين والسرباداريين (خراسان). ١٣٣٦ - ١٣٥٣

خانات القبيلة الذهبية

(جوجي)

١٢٢٦

جنوب روسيا وغرب سيبريا

١ - فرع باطو - خانات القبيلة الزرقاء في جنوب وغرب بلاد القبجاق :

باطو بن جوجي	١٢٢٧
سارتاق	١٢٥٥
اولاغجي	١٢٥٦
بركة بن جوجي	١٢٥٧
مانكو تيمور	١٢٦٧
تودا مونكو	١٢٨٠
تولا بوغا	١٢٨٧
تقتو، غياث الدين	١٢٩٠
اوزبك، غياث الدين محمد	١٣١٢
تيني بك	١٣٤١
جاني بك	١٣٤١
عصر فوضى واضطراب	١٣٥٧ - ١٣٨٠

٢ - فرع أوردا - خانات القبيلة البيضاء في سيبريا وشرقي بلاد القبجاق ثم اتحدت القبيلتان الزرقاء والبيضاء في القبيلة الذهبية في جنوب روسيا - بعد ١٣٧٨ :

أوردا بن جوجي	١٢٢٦
قوجي	١٢٨٠
بايان	١٣٠٢
ساسي يوقا	١٣٠٩
إبسان	١٣١٥
مبارك خواجه	١٣٢٠
جمتاي	١٣٣٤
اوروس	١٣٦١
توقتاكيه	١٣٧٥
تيمور ملك	١٣٧٥
غياث الدين تقتاميش	١٣٧٦
تيمور قتلغ	١٣٩٥
شادي بك	١٤٠١
بولاد	١٤٠٧
تيمور	١٤١٠
جلال الدين	١٤١٢
كبك	١٤١٤
جبار بردى	١٤١٧
اولغ محمد	١٤١٩

ملوك انجلترا بعد الفتح النورماني

وليم الأول (الفاتح)	١٠٦٦ - ١٠٨٧
وليم الثاني	١٠٨٧ - ١١٠٠
هنرى الأول	١١٠٠ - ١١٣٥
ستفن	١١٣٥ - ١١٥٤
هنرى الثاني	١١٥٤ - ١١٨٩
ريتشارد الاول	١١٨٩ - ١١٩٩
يوحنا	١١٩٩ - ١٢١٦
هنرى الثالث	١٢١٦ - ١٢٧٢
إدوارد الاول	١٢٧٣ - ١٣٠٧
إدوارد الثاني	١٣٠٧ - ١٣٢٧
إدوارد الثالث	١٣٢٧ - ١٣٧٧
ريتشارد الثاني	١٣٧٧ - ١٣٩٩
هنرى الرابع	١٣٩٩ - ١٤١٣
هنرى الخامس	١٤١٣ - ١٤٢٢
هنري السادس	١٤٢٢ - ١٤٦١
إدوارد الرابع	١٤٦١ - ١٤٨٣
ريتشارد الثالث	١٤٧٣ - ١٤٨٥
هنرى السابع (تيودور)	١٤٨٥ - ١٥٠٩

ملوك فرنسا

١١٨٠ - ١٢٢٣ فيلب اوغسطس

١٢٢٣ - ١٢٢٦ لوبس الثامن

١٢٢٦ - ١٢٧٠ لوبيس التاسع (القديس)

١٢٧٠ - ١٢٨٥ فيلب الثالث

١٢٨٥ - ١٣١٤ فيلب الرابع

١٣١٤ - ١٣١٦ لويس العاشر

١٣١٦ حنا الاول

١٣١٦ - ١٣٢٢ فيليب الخامس (الطويل)

١٣٢٢ - ١٣٢٨ شارل الرابع

١٣٢٨ - ١٣٥٠ فيلب السادس فالوا
١٣٥١ - ١٣٦٤ حنا الثاني (الطيب)
١٣٦٤ - ١٣٨٠ شارل الخامس
١٣٨٠ - ١٤٢٢ شارل السادس
١٤٢٢ - ١٤٦١ شارل السابع
١٤٦١ - ١٤٨٣ لوبس الحادي عشر
١٤٨٣ - ١٤٩٨ شارل الثامن

اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة وملوكها

١٠٥٦ - ١١٠٥ هنرى الرابع
١١٠٥ - ١١٢٥ هنرى الخامس
١١٢٥ - ١١٣٨ لوثر الثاني
١١٣٨ - ١١٥٢ كونراد الثالث
١١٥٢ - ١١٩٠ فريدريك بارباروسا
١١٩٠ - ١١٩٧ هنرى السادس
١١٩٧ - ١٢٠٨ فيليب الثاني
١١٩٧ - ١٢١٨ أوتو الرابع
١٢١٢ - ١٢٥٠ فريدريك الثاني
١٢٥٠ - ١٢٥٤ كونراد الرابع
١٢٥٤ - ١٢٥٦ وليم الهولندي
١٢٥٧ - ١٢٧٢ (فترة الشغور)
١٢٧٣ - ١٢٩١ رودلف لأول

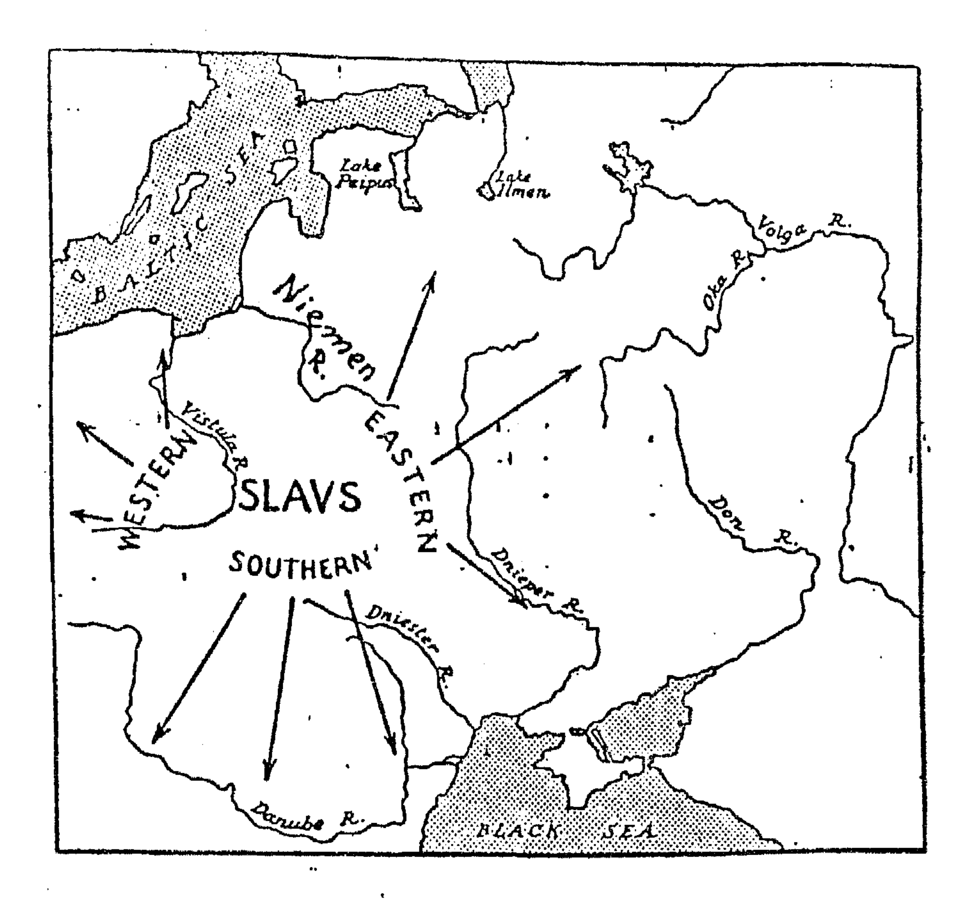
هابسبورج

١٢٩١ - ١٢٩٨ أدولف ناسو
١٢٩٨ - ١٣٠٨ ألبرت الأول

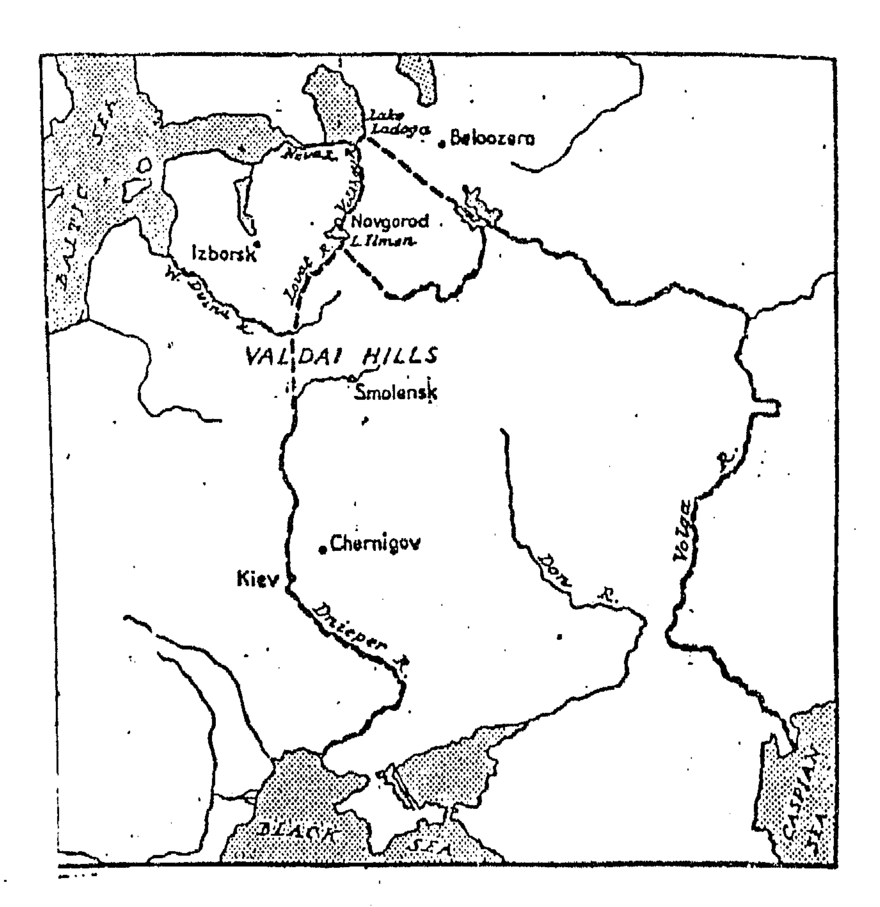
البابـــاوات

١١٩٨ - ١٢١٦ انوسنت الثالث
١٢١٦ - ١٢٢٧ هونوريوس الثالث
١٢٢٧ - ١٢٤٠ جريجوري التاسع
١٢٤١ - ١٢٦٤ لستين الرابع

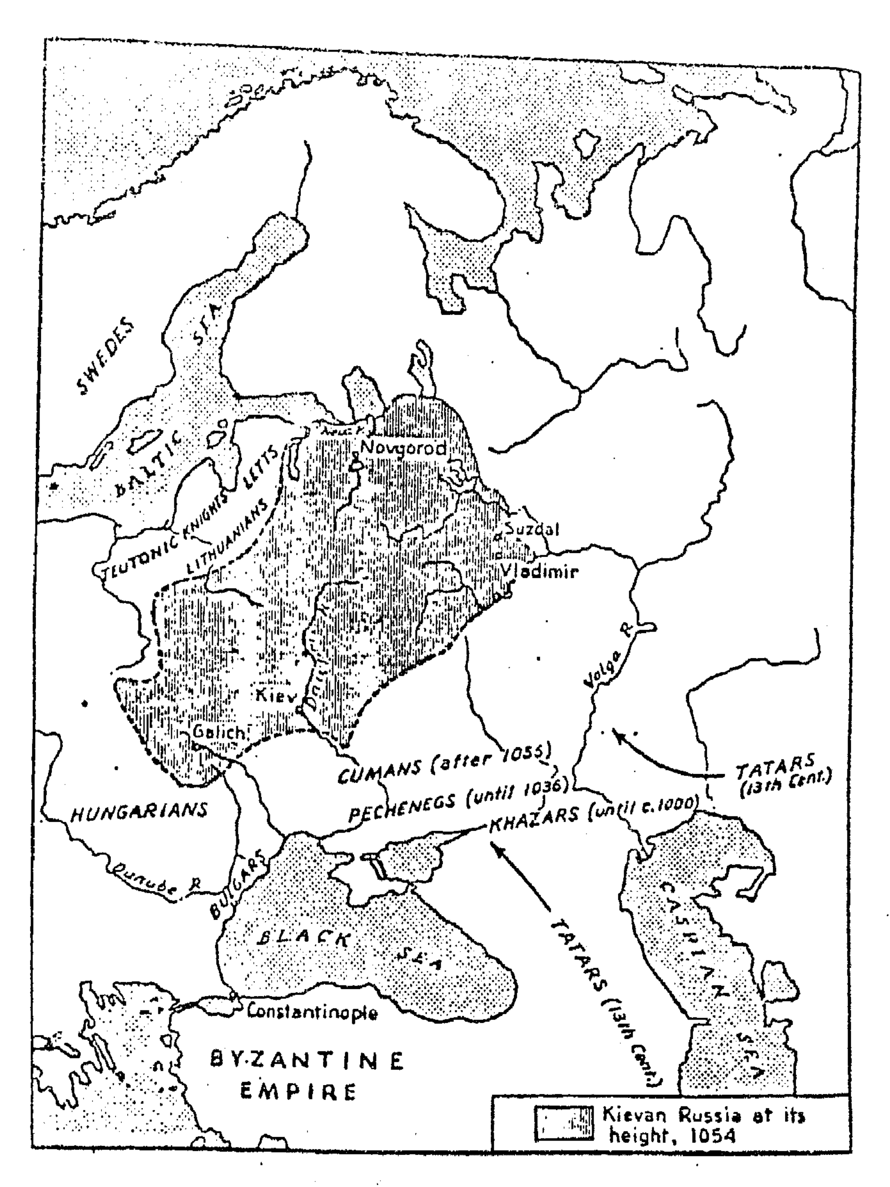
١٢٣٤ - ١٢٥٤	انوسنت الرابع
١٢٥٤ - ١٢٦١	اسكندر الرابع
١٢٦١ - ١٢٦٤	أوربان الرابع
١٢٦٥ - ١٢٦٨	كلمنت الرابع
١٢٧١ - ١٢٧٦	جريجوري العاشر
١٢٧٦	انوسنت الخامس
١٢٧٦	هدريان الخامس
١٢٧٦ - ١٢٧٧	حنا الواحد والعشرون
١٢٧٧ - ١٢٨٠	نيقولا الثالث
١٢٨١ - ١٢٨٥	مارتن الرابع
١٢٨٥ - ١٢٨٧	هونوريوس الرابع
١٢٨٨ - ١٢٩٢	نقولا الرابع
١٢٩٤	كلستين الخامس
١٢٩٤ - ١٣٠٣	بونيفاس الثامن
١٣٠٣ - ١٣٠٤	بندكت الحادي عشر
١٣٠٥ - ١٣١٤	كلمنت الخامس
١٣٠٥ - ١٣١٤	كلمنت الخامس
١٣١٦ - ١٣٣٤	حنا الثاني والعشرون
١٣٢٨ - ١٢٣٠	(نيقولا الخامس)
١٣٣٤ - ١٣٤٢	بندكت الثاني عشر
١٣٤٢ - ١٣٥٢	كلمنت السادس
١٣٥٢ - ١٣٦٢	انوسنت السادس
١٣٦٢ - ١٣٧٠	أوربان الخامس



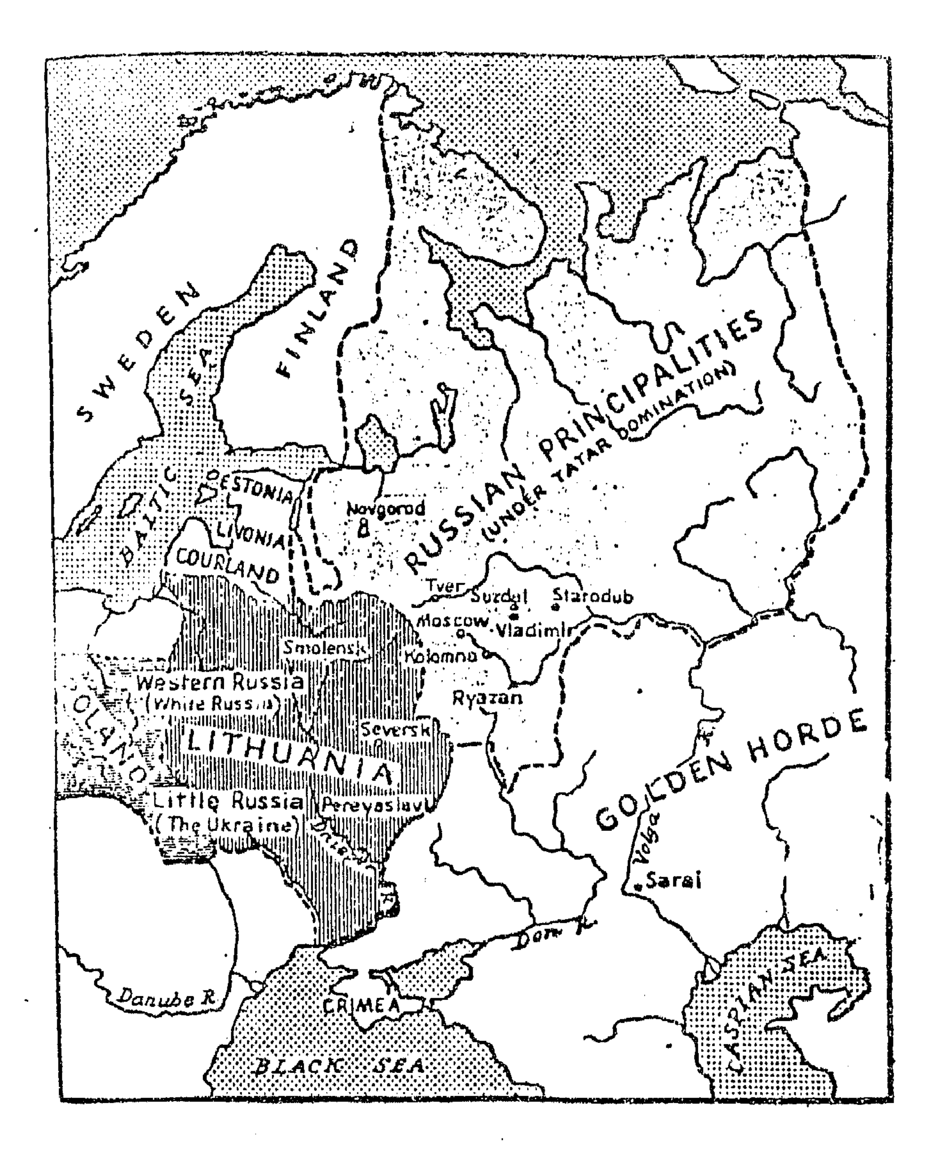
انتشار السلاف في روسيا



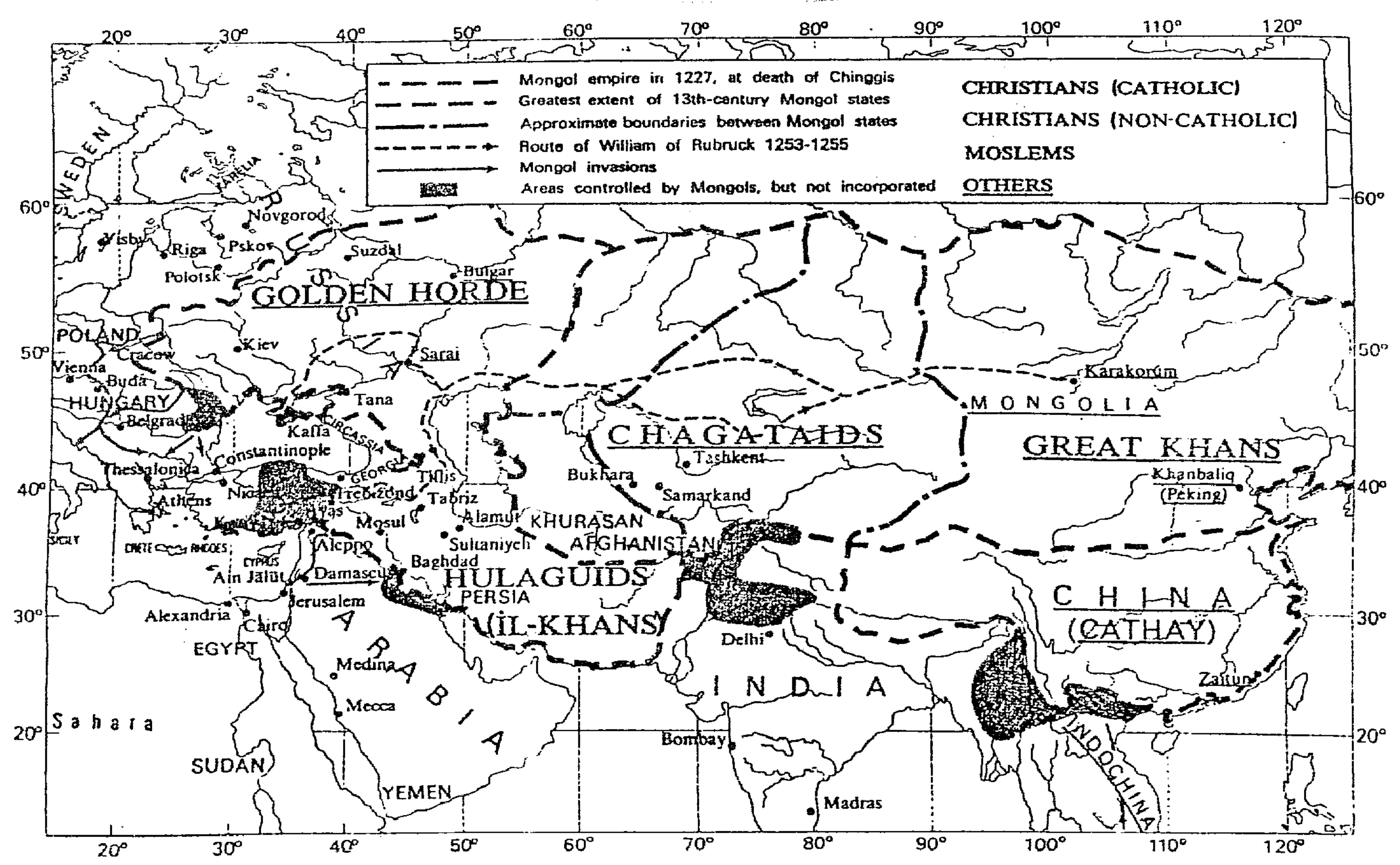
الطرق التجارية والمدن الروسية في القرن التاسع الميلادي



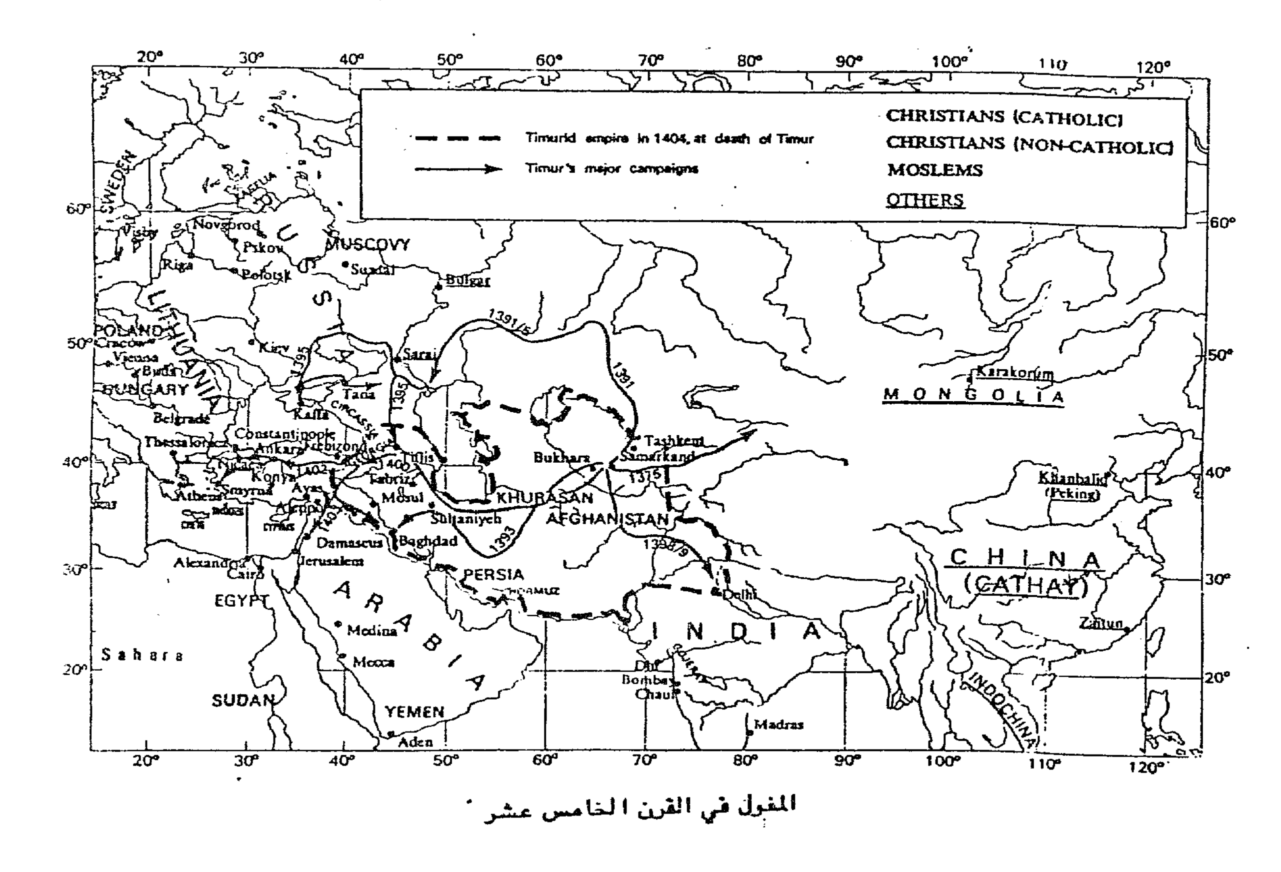
روسيا الكيفية وغزوات المغول



- روسيا في القرن الخامس عشر الميلادي



Mongol empire in 1227, at death of Chinggis
Greatest extent of 13th-century Mongol states
Approximate boundaries between Mongol states
Route of William of Rubruck 1253-1255
Mongol invasions
Areas controlled by Mongols, but not incorporated
CHRISTIANS (CATHOLIC)
CHRISTIANS (NON-CATHOLIC)
MOSLEMS
OTHERS
SWEDEN
KARELIA
Novgorod
Visby
Riga
Pskov
Polotsk
Suzdal
Bulgar
GOLDEN HORDE
POLAND
Cracow
Kiev
Sarai
Vienna
Buda
HUNGARY
Belgrad
Tana
Kaffa
CIRCASSIA
Constantinople
Thessalonica
GEORGIA
Tiflis
Trebizond
Tabriz
Athens
Nicaea
Mosul
Alamut
KHURASAN
AFGHANISTAN
Sultaniyeh
Baghdad
SICILY
CRETE
RHODES
CYPRUS
Aleppo
Ain Jalut
Damascus
HULAGUIDS
PERSIA
(İL-KHANS)
Jerusalem
Alexandria
Cairo
EGYPT
ARABIA
Medina
Mecca
Sahara
SUDAN
YEMEN
CHAGATAIDS
Tashkent
Bukhara
Samarkand
MONGOLIA
Karakorum
GREAT KHANS
Khanbaliq
(Peking)
CHINA
(CATHAY)
Delhi
INDIA
Bombay
Madras
Zaitun
INDOCHINA
20°
30°
40°
50°
60°
70°
80°
90°
100°
110°
120°



المغول في القرن الخامس عشر .

المصادر والمراجع

١ - المصادر العربية
٢ - المصادر الاجنبية
٣ - المراجع العربية
٤ - المراجع الاوربية

أ - المصادر العربية

إبن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٤م) أبو الحسن على بن أبى الكرم الملقب عز الدين :

«الكامل في التاريخ - ١٢ جـ ي ١٢ منجلد - ليدن ١٨٥٣م» .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله:

«مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» - الطبعة الأولى - القاهرة - (مطبعة السعادة) ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) عبدالرحمن محمد :

«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس احمد بن ابراهيم:

«وفيات الأعيان وأنباء الزمان» - ٢ جـ - القاهرة (بولاق) ١٢٧٦هـ

إبن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي :

«الانتصار لواسطة عقد الأمصار» جـ ٤ و ٥ في مجلد واحد - بولاق - ١٣٠٩ - ١٣١٠هـ.

إبن الشحنه (ت ٨١٥هـ/١٤١٣م) محب الدين محمد بن محمد بن محمود .

«روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر» - على هامش كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي - طبعة أولى - القاهرة (المطبعة الأزهرية المصرية) - ١٣٠٣ هـ.

إبن الطقطقي (المتوفى بعد ٧٠١هـظ/ ١٣٣١م) فخر الدين محمد بن على :

«الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية» - راجعه ونقحه محمد

عوض ابراهيم وعلى الجارم - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٨م.

إبن عبدالظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) القاضى محى الدين أبو الفضل الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - حققه عبدالعزيز الخويطر - الرياض - ١٩٧٦.

إبن عرب شاه :
«عجائب المقدور في إخبار تيمور» - القاهرة - ١٢٨٥ هـ .

إبن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م) أبو الفلاح عبدالحي بن عبى بن محمد:
«شذرات الذهب في اخبار من ذهب» - ٨ جـ - القاهرة ١٣٤٠ - ١٣٥١هـ

إبن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) ناصر الدين محمد بن عبدالرحمن بن علي :
«تاريخ إبن الفرات» - المجلد الرابع جـ ١ ، ٢ والمجلد الخامس جـ١ - عنى بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشماع - البصرة (مطبعة حداد) ١٩٦٧ - ١٩٧٠م.

إبن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٣١م) عبدالرازق بن أحمد الفوطي البغدادي :
«الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة» - بغداد - (مطبعة الفرات) ١٣٥١هـ .

إبن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر :
«البداية والنهاية في التاريخ» - ١٤ جـ - القاهرة (مطبعة السعادة) .

إبن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم .
«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» - ٤ جـ - جـ ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة - ١٩٦٠م جـ٤ تحقيق الدكتور حسين محمد ربيع - القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢م.

إبن الوردي (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر:
«تتمة المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ إبن الوردي» جـ٢ - القاهرة (الطبعة الوهبية) ١٢٨٥هـ/١٩٦٨م» .

أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن على :
«المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء» - ٤ جـ - استانه (دار الطباعة الشاهانية) ١٢٨٦هـ .

أبو الفرج الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) غريغور أبو الفرج بن أهرون :
«تاريخ مختصر الدول» - بيروت (المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين) ١٨٩٠م.

أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحسن يوسف بن تغرى بردي :
«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» - ٩ جـ - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ - ١٣٦١هـ/١٩٢٩ - ١٩٤٢م».

البدري الدمشقي (عاش في القرن التاسع هـ/ الخامس عشرم) عبدالله بن محمد البدري المصري الدمشقي المعروف بأبى البقاء:
«نزهة الأنام في محاسن الشام» - القاهرة (المطبعة السلفية) ١٣٤١ هـ.

الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين :
«دول الإسلام» - ٣ جـ - الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر أباد الدكن) ١٣٣٧هـ .

السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) عبدالرحمن بن أبى بكر جلال الدين.
١ - «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين» - تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد - الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
٢ - «كتاب بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة» - القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٦هـ .

القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد عبدالله:
«صبح الأعشى في صناعة الانشا» - ١٤جـ - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠/١٣٣١ - ١٣٣٨هـ.

الكتبي (ت ٧١٤هـ/١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن فخر الدين :
«فوات الوفيات» - ٢ جـ - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - القاهرة (مطبعة السعادة ١٩٥١م .

المقريزي (ت ٨٤٥هـ /١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس احمد :
«السلوك لمعرفة دول الملوك» - الجزءان الاول والثاني الى سنة ٧٤١ هـ - نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفي زيادة - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ - ١٩٤٣م.

ب-المصادر الاجنبية

Fabri, Felix,
The Book of Wandering (1480 - 1483), 2 Vols. 4 tram. by Aubery stewart. London. Parts,

Joinville, Jean Sire de,
The life of Saint Louis, Panguin. 1973, pp. 161 - 353.

Matthew Pari

English History, tran. by J.A. Giles, 2 Vols. London 1852-3.

Marino Sanuto,

Secrets for true Grusaders. Tron. by Aubery stewart. London, 1896.

Macro Polo,

The Travels, Penguinm , 1974.

Oliver of Padenborn,

The Capture of Damiettce, trans. by J. Cavigan, Philadelpia, 1948.

Otto, Bishop of Freisin

The two Ciries, tran. by ch. Mierow, New York, 1928.

Pretre - Jean,

Lettre au le Emperor Byzantine Manuel (1143-1180), dated 1155. Cf. Y. Kamal, Monumenta Cartographica Africaer. III Fasc IV, 1934(pp. 89o-1).

Roger of Wendover,

Flowers of History, 2 Vols, tran by J.A, Gilles, London, 1849.

Vitry, Jacques de

Letter de Jacques de Uitry, Leiden 1960.

جـ - المراجع العربية والمعربة

ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام : بحث في تاريخ نشر العقيدة الاسلامية ،

ترجمة الى العربية حسن ابراهيم حسن، وعبدالمجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي ، القاهرة ، د.ت .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :
لوبيس التاسع في الشرق الاوسط ١٢٥٠ - ١٢٥٤م ، القاهرة، ١٩٦٥.

حسن ابراهيم حسن (الدكتور)
«انتشار الاسلام بين المغول والتتار» ، صحيفة الجامعة المصرية، ١٩٣٣.

سيزار ياروسلاف ، جوزيف فوزار :
«نقاط التلاقي والصراع بين اوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ - ١٥م) «ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف : انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الاسكندرية، ١٩٨٣م.

عبدالسلام فهمي (الدكتور)
تاريخ الدولة المغولية في ايران ، القاهرة ، ١٩٨٠م

فايد حماد عاشور (الدكتور) :
العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ي الدولة المملوكية الأولى، القاهرة ، د . ت .

فايز نجيب اسكندر (الدكتور) :
مملكة ارمينيا الصغرى بين الصليبين ودولة المماليك الأولى ١٢٥٠ - ١٣٧٥م. ٦٤٨ - ٧٧٦هـ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠م.

فؤاد عبدالمعطي الصياد (الدكتور) :
السلطان محمود غازان حاكم المغول واعتناقه الاسلام، القاهرة ١٩٧٩م.

لويس شيخو اليسوعي :
«النصرانية بين قدماء الاترك والمغول» ، مجلة الشرق ، السنة السادسة عشرة ١٩١٣، ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .

محمد صالح داوود القزار (الدكتور) :
الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغرلية ، بغداد، ١٩٧٠م.

مصطفى طه بدر (الدكتور) :
مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

د - المراجع الأوربية

Abel	Extrait d'un second memoire sur les relations des rois de France avec les Empereurs mongoles. (J.A. T. lere serie).
Atiya, Aziz-Susyal	The Crusade in the Late Middle Ages, London 1938.
Barthold, W.	Cinghis Khan. Em. Is. Khwaresm. En. Is. Turkestan down to the Mongol Invasion. London 1928. Turks, Turkman, Ghuzz, Berke, Kara-Khiti Karluck, Arghun, Tatar, Ghazan, Rashid
Blochet, F.	al-Din Olcaito, Bourak. En. Is. Hulagu En Is.

Blochel, F. — Introduction a l'historie des mongoles de Rashid ed-Din. Leyde 1910.
- Deux residents mongols en Chine, et en Asic
- Centrale, de Tchinkhis Khan a Khoubilai, 1925.
- Successaires de Tchinkhiz Khagan, Leyde 1911.
- La Conquete des Etats nestoriens de L'Asie
- Centrale par les Chites, Revue de L'Orient Chretien, 1925 - 1926.

Bouvant — L'Empire Mongolo. Paris 1927.

Bratianu — Rechercies sur le commerce genois dans la mer noire au XIIIe siecle. Paris 1929.

Bretschnieder — Medieval Researches 2 vols. London 1888.

Brosset, M. — Historie de la Georgie. Petersbourg 1949.

Browne. E.G. — A Literary History of Persia II.III Camridge 1964.

Budge, Wallis — History of the Life and Travels of Rabban Souma, and Markos of the Nestorian Church in Asia 1928.

Cahun — Introduction a l'Historie de L'Asie. Paris 1896.
Cambridge Medieval History. Vol. IV.

Canard, M. — Un Traite entre Byzance el L'Egypte au IIIe siecle et les relations diplomatique de Michel VII Palcologue avec les Sultans Mamluks Bajbars et Oala'um. Melanges Gaudefroy Demombynes. Cairo 1937.
Le Traite de 1281 entre Michel Paleoplogne et le Sultan Qala'un. Byzantiuon X (1935) pp. 669-680.

Chabot — Relations du roi Argon avec l'Occident. Revue de L'Orient latin 1894.

Chapman, C. — Michel Palcologue restaurateur de L'Empire Byzxantin (1961-1281). Paris 1926.

Chronique de Mich el le Syrien. Trans. J.B. Chabot (1899-1919).

Curtin	The Mongols, Boston 1908.
Czaplika	The Turks of Central Asia in History and present day Oxford 1918.
Darylk Forde, C.	Habitat, Economy and Society. London 1966.
Dawson, Christopher	The Mongol Mission. London 1955.
D'Ohsson, M.	Historie de Mongols depuis Tcchinguiz Khan isuqu'a Timur Bec. 2 Vols. Amsterdam 1834-1835 III (1852), IV (1835).
Douglas	The Life of Jenghis Khan. London 1877.
Dulaurier	Les Mongols d'apres les historiens armentiens.
Gregory of Akner	The History of the Nation of the Archers. e. R. Blake and R. Frye. Cambridge Mass. 1954.
Grousset, R.	Le Monde Mongol, Historie de L'Asie t. III Paris 1922. L' Empire de Steppes, Paris 1948. Historie des Croisades T. III. Paris 1936. Historie de L'Extreme-Orient. T. II, Paris 1929.
Heyd, U	Historie du Commerce du Levant au Moyen-Age, 2 Vols. 1923.
Howorth, H.	History of the Mongols. 5 vols. London 1876-1888.
Le Strange	Mesopotamia and Persia under the Mongols (XIV C). LOndon 190#.
Martin, H.D.	The Rise de Chingis Khan and his conquest of North China. Baltimore 1950.
Morgan D.,	The Monglos, Cambridge, 1996,

Oliver — The Chagatai Mughais J.R.A.A. 1888.

Parker, E.H. — A thoudand years of the Tartars. London 1895.
Mongolia after Genhizides and before the Manchus. Journal of North China. branch R.A.S. XLIV 1918.

Pelhiot, P — A propos de Comans. J.A 1920. I.
Chwtiens d'Asie. Centrale et d'Extreme-Orient. 1914.
Mongols et Papes, aux XIIIe et XIVe siecles. Seance de L'Institut. 25 Octobre 1922.
Les Mongols et la Papaute. Revue de L'Orient

Ross, Dension — History of the Mongols of Central Asia. London 1985.

Rockhill — The Journey of William of Rubruck. Hakluyt. London 1908.

Rubens Duval — Le Partiarche Mar. Jabalaha III et les Prineces Mongols de l'Adherbaidjan (Journal Asiatique, serie VIII T. XIII 1889).

Runcirman, steven — History of the Crusades. Cambridge vol. III 1954.

Sauvaget, Jean — Introduction to the History of the Muslim East. Second Edition. Cl. Cahen. Carlifornia 1965.

Sectton, K.M., (ed) — A History of the Crusades. 5 Vols. Pennsylvania, 1958-1985.

Shrine and Dension Ross — The Heart of Asia London, 1899.

Sykes. Sir Percy — A History of Persia. Vol. II. London 1963.
History of Bokhara. London 1873.

Vambry G. — The Golden Horde, Egypt. and Byzantium in their mutual relations in the Reign of Michel Palcologle. Annales de Linstituc.

كتب وابحاث

الاستاذ الدكتور محمود سعيد عمران
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الكتب :

١- الحملة الصليبية الخامسة : طبعة أولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب اسكندرية ، ١٩٧٨ .

٢- الحملة الصليبية الخامسة : طبعة ثانية ، دار المعارف ، اسكندرية، ١٩٨٥ .

٣- ادارة الإمبراطورية البيزنطية ترجمة وتعليق - دار النهضة ، بيروت، ١٩٨٠ .

٤- معالم تاريخ الامبراطورية البيزانطية ، دار النهضة - بيروت ، ١٩٨٠.

٥- معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٦- مملكة الوندال فى شمال افريقيا ، دار المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٥.

٧- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، اسكندرية، ١٩٨٥ .

٨- القادة الصليبيون الأسرى فى أيدى المسلمين ، دار النهضة ، بيروت، ١٩٨٦ .

٩- تاريخ الحروب الصليبية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٩٠ .

١٠- حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٩١.

١١- تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، دار المعارفة الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٩٦ .

١٢- أوروبا والمغول ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٩٧ .

ثانيا - البحوث :

١- نيقولا مستيقوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٢- المؤرخ جريجروى التورى، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٨٠.

٣- الإمبراطورية رومانوس الرابع ، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ٨٢ / ١٩٨٣ .

٤- أركولف ورحلته إلى الشرق ، بحث منشور فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط - جامعة عين شمس ، المجلد ١٣ دار المعارف، ١٩٨٥ .

٥- كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام فى عصر الراشدين ، بحث منشور فى أعمال المؤتمر الدولى الرابع لبلاد الشام - الأردن عمان ، ١٩٨٧ .

٦- صلاح الدين من الاسكندرية إلى حطين ، بحث فى المؤتمر الدولى لذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين ، بغداد ، ١٩٨٧ .

٧- السفراء والقناصل فى عصر بالحروب الصليبية ، بحث القى فى الموسم الثقافى لجامعة بيروت العربية - بيروت ، ١٩٨٨/٨٧ .

٨- الهدن بين المسلمين والصليبين فى عصر الدولة الأيوبية ، بحث القى فى ندوة العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ٢٠-٢٢ اكتوبر ١٩٩٢ كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ، ١٩٩٢.

٩- رحلة الشهيد أنطونيوس إلى بلاد الشام ومصر ٥٦٠ - ٥٧٠ م ، بحث القى فى ندوة العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الثانية ، ٣٠-١٠ الى ١-١١-١٩٩٣ ، كلية الآداب - جامعة المنيا ، ١٩٩٣ .

١٠- تحصينات مدينة القسطنطينية فى مواجهة الغزوات الخارجية ، بحث القى فى ندوة الحضارة الاسلامية وعالم البحار - اتحاد المؤرخين

العرب، القاهرة ٦-٨ نوفمبر ١٩٩٣ .

١١- مصر فى كتب الرحالة الاجانب فى العصر البيزنطى ، بحث القى فى مؤتمر الاسكندرية الدولى حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ ٢٢ - ٢٦ يناير ١٩٩٤ .

١٢- دور الحركة الصليبية فى تكوين مملكة البرتغال ، ندوة الأندلس : الدرس والتاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٣-٢٥ أبريل ١٩٩٤.

١٣- حولية سقوط لشبونة ١١٤٧م ، ندوة الغرب الاسلامى والغرب المسيحى خلال القرون الوسطى كلية الآداب ، الرباط ٢ - ٤ ، نوفمبر ١٩٩٤ ، نشر ١٩٩٥ .

١٤- السلطان قلاوون بين أوروبا والمغول ، بحث القى فى ندوة مدينة طرابلس لبنان بمناسبة مرور ٧٠٠ عام على بناء الجامع المنصورى ١٧-٢٤ نوفمبر ١٩٩٤ .

١٥- روسيا وسقوط الامبراطورية البيزنطية ، ندوة تاريخ وحضارة العصور الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية - ٢٤ - ٢٥ ابريل ١٩٩٤ .

١٦- تحصينات مدينة دمياط فى عصر الحروب الصليبية ، ندوة التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور ، كلية لآداب ، ٨ - ٩ اكتوبر ١٩٩٥ .

١٧- وليم آدم واستعادة الأراضى المقدسة ، ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية - اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٨ - ٣٩ نوفمبر ١٩٩٥ .

١٨- القدس فى كتب الرحالة الاجانب فى العصر البيزنطى ، ندوة القدس: التاريخ والحضارة ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ٢-٥ نوفمبر ١٩٩٦ .

١٩- العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد معركة عين جالوت

١٢٦٠ - ١٢٧٠ م ، بحث القى فى ندوة اقليم الخليج على مر عصور التاريخ - اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٣ - ٢٥ نوفمبر ١٩٩٦ .

٢٠- شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس ، بحث القى فى ندوة بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى « التاسع الهجرى » ، القاهرة ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ، ١٩٩٧.

٢١- حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين فى مدينة الاسكندرية ٥٦٢هـ ، بحث القى فى ندوة سواحل مصر الشمالية عبر العصور - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع المجلس الاعلى للثقافة ٢٢ - ٢٣ ابريل ١٩٩٨ .

٢٢- الحركة الفكرية فى الاسكندرية فى القرون الاولى للمسيحية ، مشاركة فى الكتاب الذى اصدرته محافظة الاسكندرية (د.ت) .

٢٣- المراكز الحضارية فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى ، بحث القى فى المؤتمر الدولى الثالث (التبادل الثقافى بين شعوب البحر المتوسط) - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع وزارة الثقافة ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨ .

٢٤- العرب فى مدونة المؤرخ السريان زكريا الملطى ، بحث القى ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة تحت اسم « أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب » ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨ .

ثالثا - كتب باللغة الانجليزية :

Contributors,

Chronicles of the Crusades, Eye - Witness Accounts of the Wars Between Cheistianity and Islam - Edited by Elizavbeth Hallam, London 1989 .

رابعا - بحوث باللغة الأجنبية :

1- King Amarlric and the Siege of Alexandria, in the First Conference of the Crusades and the Latine East, Cardiff 1 - 4 Cardiff 1985, U.K.

2- Truces between Moslems and Crusaders (1174 - 1217) in Autour de la Premiere Croisade Actes du Colloque de la society for the Study of the Crusades and the Latin East (Clermont - Ferand 22 - 25 Juin 1995 France)Reunis par Nichel Balard, Publication de la sorbonne, Paris 1996.

3- John Kinnamos As a Historian of the Second Crusade. In the international symposium on Crusade. Istanbul 23 -25 June 1997 .

4- Edward I king of England and the Holy land (Jerusalem) In the 35th Innternational Congress of Asian and North African studies, Budapest 2 - 21 July 1997 .